

المعهد الملكي للدراسات الدينية

القدس

في زمن الفاطميين والفرنجة

مصطفى الحياري

القدس

في زمن الفاطميين والفرنجة



صورة الغـلاف : خريطة فـرنجية لمدينة القـدس وجوارها رسمـت خلال القرن الميـلادي الثاني عشر. وتظهر المدينة المقدّسة في هذه الخريطة على شكل دائرة، رمزا إلى كمال مكانتها في العالم. وجهة الشمال من المدينة إلى فوق وحولها رسومات لحجّاج قادمون من الغرب، كل يحمل عصاه، ومتاعه على ظهره.

تكريماً لذكرى المناضل المقدسي المغفور له

روحي الخطيب

آمين القدس

(١٩١٤ - ١٩٩٤)

رقم الايداع لدى المكتبة الوطنية
(١٢٣٧/١١/١٩٩٤)

رقم التصنيف : ٩٥٦٫٤١١
المؤلف ومن هو حكمه : مصطفى الحياري
عنوان المصنف : مدينة القدس في عصر الفاطميين والفرنجة
رؤوس الموضوعات : ١ - فلسطين - تاريخ
٢ - القدس - تاريخ - عصر الفاطميين
رقم الايداع : (١٢٣٧/ ١١/ ١٩٩٤)
الملاحظات : مكان النشر : عمان
الناشر : مكتبة عمان
★ تم أعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

ساهم بنك الانماء الصناعي في اصدار هذا الكتاب تكريما لذكرى الرئيس السابق لمجلس ادارته.

بنك الانماء الصناعي، مؤسسة اقراض متخصصة منشأة بقانون، تأسس في عمان عام ١٩٦٥.

الادارة العامة : عمان، ص.ب. ١٩٨٢، تلفون : ٦٤٢٢١٦ (٠٠٩٦٢٦)، فاكس : ٦٤٧٨٢١ (٠٠٩٦٢٦).

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

في بداية كتابه الأعمال يتحدث المؤرخ اللاتيني المشهور وليم الصوري عن العلاقة الطيبة بين الخليفة هارون الرشيد والإمبراطور شارلمان، وكيف انعكست هذه العلاقة على الحياة في مدينة القدس والتي كانت نتيجة الإتفاق الذي عُقد بينهما، وأن الشروط التي اتفق عليها: «. . . كانت مصدر راحة للمؤمنين (المسيحيين)، بحيث بدوا وكأنهم يعيشون في ظل حكم الإمبراطور شارل وليس تحت حكم هارون [الرشيد]».

ومهما كانت صحّة هذه العبارة التي كتبت في أواخر القرن الثاني عشر، فإن ما قاله عن المدينة في بقيّة الفترات يُعَبر بصورة أدق عن أحوال المدينة المقدسة:

«وهكذا فإن أسياد المدينة المقَدّسة . . . كانوا يتغيرون مراراً نتيجة تحولات الأحداث وتطورها. وقد مَرّ عليها فترات مشرقة أو غائمة حسب شخصيّة الأمراء الذين حكموها. وكانت أحوالها كأحوال الرجل المريض الذي تتحسن صحته أو تسوء حسب تصرفات الزمان، لكن الشفاء الكامل كان مستحيلاً . . .».

تحاول هذه الدراسة تتبع التطورات العامة في مدينة القدس خلال قرنين من الزمان شهدت خلالها تحولات جذريّة أحياناً في عمرانها وتَغيّر سكانها (كلياً أحياناً) ومؤسساتها وأسلوب حياة الناس واحتفالاتهم وأعيادهم، في أوقات الأمن والاستقرار وفي أوقات الحرب والحصار والاضطراب والخراب والجلاء عن البلاد.

وتبدأ الدراسة من مطلع القرن الحادي عشر باجراءات الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله المشهورة وتنتهي بخراب المدينة ورحيل معظم أهلها ومن يسكنها عنها في اواخر الفترة الأيوبية؛ تبدأ بمدينة عامرة كثيرة السكان، وتنتهي في وقت صار اسم «القرية» كثيراً عليها. أما ما بين البداية والنهاية فقصّة المدينة، بكل تحولاتها وتقلباتها العامة، التي ترويها هذه الدراسة.

وبعد، فانني أرجو أن أكون قد وفقت في تقديم صورة واضحة المعالم، على الأقل في خطوطها الأساسية، تمكن القارىء من تكوين فكرة كأقرب ما تكون إلى ما كانت عليه المدينة المقدسة والغالية في ذلك الوقت. أمّا الخطأ في فهم النصوص والحكم على الأحداث والسهو عن بعضها أو عدم تيسر الوصول إلى معلوماتها فمسؤوليتي وحدي.

وفي الختام، يسعدني أن أتقدّم بجزيل الشكر وجميل العرفان إلى علاء الرشق وحسن البطوش ورياض ابو وندي وبكر الحياري، من أسرة المعهد الملكي للدراسات الدينية، على نشر هذا الكتاب ضمن منشوراته.

والله ولي التوفيق

الجامعة الأردنية ، عمان ١٩٩٤ مصطفى الحياري

مدينة القدس في زمن الفاطميين والفرنجة

١ — القدس والاتراك السلاجقة :

في سنة ٤٨٦ للهجرة / ١٠٩٣م، أي بعد فترة نصف قرن من زيارة ناصر خسرو، الرّحالة الفارسي الاسماعيلي والدّاعي الفاطمي النَّشِيط، لمدينة القدس (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م)، وقبل ست سنوات فقط من سيطرة الفرنجة على المدينة المقدسة إثْرَ حملتهم الأولى المشهورة على العالم الإسلامي، قام شاب أندلسي يطلب العلم، في السابعة عشرة من عمره، بزيارة المدينة. كان هذا الشَّاب المتوقِّد الذّكاء والحماس في طلب العلم هو أبو بكر إبن العربي (٤٦٨ هـ - ٥٤٣ هـ / ١٠٧٥ — ١١٤٦م) الذي صار بَعْدُ من أعلام الفكر الأَندلسي خاصة في الفقه والتفسير(١).

كان وصول إبن العربي إلى القدس الشريف محّطة في طريقه هو ووالده إلى مكّة لأداء فريضة الحجّ. ومنذ خروج الأب والإبن من الأَندلس وحتى وصولهما إلى القدس لم يتوقفا طويلاً في المراكز التي مَرّا بها إذ لم يجدا فيها من النشاط العلمي والفكري ما يدفعهما إلى ذلك. أما مدينة القدس فقد كانت في الوقت الذي وصلا فيه اليها تشهد إحياءً فكرياً ونشاطاً ثقافياً لم تعرف مثله طوال فترة القرن ونصف القرن السابقة. وكان هذا النَّشاط من التَنَوّع والإثارة إلى الدرجة التي دفعت الشاب المتنقل باستمرار إلى الإقامة فيها وفي

---

(١) أنظر ترجمته في وفيات الأعيان. تحقيق احسان عباس. بيروت، دار صادر، ١٩٧١. ج٤ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ ومصادر ترجمته في الحاشية ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء. تحقيق شعيب الأرناؤط. بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥. ج ٢٠، ص ١٩٧ — ٢٠٤، ومصادر الترجمة في الحاشية ص ١٩٧.

فلسطين مدة طويلة نسبياً لمتابعة دراساته واهتماماته العلميّة[٢].

وكان قد استقر في القدس في العقد التاسع من القرن الخامس الهجري (العقد العاشر من القرن الحادي عشر الميلادي) عددٌ من أعلام الفقه من أصحاب المذهب الشافعي والمذهب الحنفي الذين وفدوا إلى المدينة بعد سيطرة الأتراك السلاجقة والتركمان عليها، وعلى المناطق الجنوبية من بلاد الشام. وكان لهؤلاء الفقهاء مدارس خاصة بهم، تعقد فيها حلقات درس ومجالس علم يحضرها الطلبة والمهتمون في أوقات محدَّدة، لكنَّ أكثر ما أثار اهتمام إبن العربي ودفعه إلى الإصرار على والده في البقاء في المدينة المقدّسة هو أساليب التدريس والنقاش التي كان يتبعها هؤلاء العلماء في معالجة المسائل الفقهية والتي لم تكن مألوفة في بلده الأَصلي — الأَندلس[٣].

وامتدت إقامة إبن العربي في مدينة القدس وبعض مدن فلسطين — خاصة عسقلان — إلى أكثر من ثلاث سنوات. وقد كتب هذا الفقيه فيما بعد وقائع رحلته من الأندلس إلى المغرب ومصر وفلسطين والشام والعراق والحجاز، لكن هذه الرحلة ضاعت ولم يصلنا منها إلاَّ مقتطفات قليلة وقطع متفرقة حفظها هو في مؤلفاته الأُخرى خاصة **قانون التأويل**. وتُصَوِّر لنا الفقرات منها المتعلقة بالقدس وفلسطين بعض جوانب الحياة العامة

---

(٢) كان أكثر ما أثار اهتمام إبن العربي في الحياة العلمية في مدينة القدس هو أساليب التدريس والنقاش في معالجة الموضوعات التي تدرّس والتي لم تكن مألوفة في بلده الأصلي الأندلس. أنظر مقال احسان عباس «رحلة إبن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل»، **الأبحاث**، م ٢١ قسم ١ (آذار ١٩٦٨) ص ٥٩ وما بعدها. ص ٦٥ من دراسة المؤلف

(*The Arab Tribal Emirates of the Fertile Crescent*. unpublished Ph.D. Thesis. University of London, 1975.)

وص ٨١ (من مقتطفات الرحلة).

(٣) المصدر ذاته.

والفكرية في المدينة المقدسة تصويراً شاعرياً وحيّاً[٤].

وفي الفترة التي زار فيها مدينة القدس، كان الحُكْم فيها وفي معظم بلاد الشَّام الجنوبية بيد بني أَرْتُقْ التركهان الذين وُلُّوا عليها نيابةً عن سلاطين السلاجقة في العراق والمناطق الشرقيَّة من بلاد الخلافة العباسية. وكان هذا الحكم في القدس قد بدأ قبل حوالي عشرين سنة من قدوم صاحبنا الأندلسي إلى المشرق، وذلك عندما تمكن أُتْسِزْ بن أوق الخُوارزمي[٥] ومن معه من الجماعات التركهانية التي دخلت الشام قبل فترة وجيزة بناء على طلب والي الفاطميين هناك[٦]، من السيطرة على هذه المناطق بالتدريج خاصة مدينة القدس التي دخلوها في شوال من سنة ٤٦٥ هجرية (حزيران ١٠٧٣ ميلادية)[٧].

---

(٤) وصل إبن العربي إلى القدس، كما رأينا، سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م، وبقي في القدس ومدن فلسطين الأخرى إلى سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م (أي قبل وصول الحملة الفرنجية اليها بثلاث سنوات) رحلة إبن العربي، ص ٨٤ — ٨٦. ونجد وصفه للقُدس والحياة فيها في أكثر من مكان من المقتطفات.

(٥) كان أُتْسِزْ أميراً تركهانياً في خدمة الدولة السلجوقية، وقد تمكن في العقد السابع من القرن الخامس الهجري من السيطرة على بلاد الشام الجنوبية والوسطى، وأقام فيها إمارة تابعة للسلطنة السلجوقية في العراق وإيران. انظر المقال في دائرة المعارف الاسلامية (بالانكليزية) ط ٢، تحت "Atsiz b. Awaq"

(٦) كان دخول التركهان إلى بلاد الشام الجنوبية نتيجة دعوة بدر الجمالي، وزير الدولة الفاطمية، لهم لمساعدته في القضاء على نفوذ القبائل العربية — خاصة آل الجرّاح الطائيين — في هذه المنطقة. أنظر مرآة الزمان، (اسطنبول) م ١٣ ورقة ١ ق. ابن القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**. تحقيق هـ. ف. أمدروز. بيروت، مطبعه الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩. ص ٩٩. المقريزي، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**. تحقيق جمال الدين الشَّيَّال. القاهرة، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية — لجنة احياء التراث الاسلامي. ١٩٧١. ج ٢، ص ٣٠٣. ومصطفى الحياري. **الامارات القبلية العربية في الهلال الخصيب**. ص ٢٣٩ — ٢٤٠.

(٧) أنظر: **مرآة الزمان** (الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة) نشر علي سويم. أنقرة، مطبعة الجمعية التاريخية التركية. ١٩٦٨. ص ١٦٩.

وشَهِدَتْ مدينة القدس خلال فترة حكم التركمان القصيرة (٤٦٦ — ٤٨٩هـ / ١٠٧٤ — ١٠٩٦م) إحياءً ثقافياً، خاصة في دراسات الفقه الشافعي والفقه الحنفي والفكر الديني، لم تشهد له مثيلاً خلال فترة قرن ويزيد من حكم الدولة الفاطمية الاسماعيلية (٣٥٨ — ٤٦٦هـ / ٩٦٩ — ١٠٧٤م) فمجير الدين العليمي (ت ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م) الذي عُرفَ أكثر ما عُرفَ بتأريخه لمدينة القدس الذي جمعه في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، يؤكد هذه الحقيقة إذ لا يذكر أي عالم أو شخصية مشهورة خلال هذه الفترة الطويلة عاش في مدينة القدس أو استوطن فيها، بينما يذكر للفترة التركمانية القصيرة عدداً من العلماء الذين عاشوا في المدينة أو زاروها [٨] مثل أبي الفتح نصر والطرطوشيّ والغزالي وإبن العربي وغيرهم [٩].

وتوضح الفقرات المتبقية من رحلة إبن العربي، ومقتطفات أُخرى حفظها في بعض مؤلفاته، جوانب خاصة من الحياة الفكرية والاجتماعية في مدينة القدس في الرُّبْعِ الأخير من القرن الخامس الهجري. فمن ناحية يَرِد عنده

---

(٨) أنظر مجير الدين العليمي، الأُنس الجليل في تاريخ القدس والخليل. عمان، مكتبة المحتسب، ١٩٧٣. م ١ ص ٢٩٧. ولا نجد لديه ذكر لاي شخصية علمية بارزة أو من الرجال المشهورين في السنوات بين ٣٤١ هـ / ٩٥٢م حتى سنة ٤٨٠هـ — ١٠٨٧م. وانظر المصدر ذاته، ص ٢٩٧ — ٣٠٣.

(٩) كان نصر شيخ الشافعية في بلاد الشّام في زمنه، وقد زار بيت المقدس ومكث فيها مدة في زاويته هناك في باب الرحمة (داخل الباب الذي عرف في الفترة الفرنجية بالباب الذهبي الذي يقع في الجهة الشرقية من سور الحرم الشريف) التي عرفت فيما بعد بالزاوية النّصرية. وكذلك الغزالي الذي زار القدس في هذه الفترة (التركمانية) وأقام في نفس المكان الذي أقام به نصر فسميت ايضا باسمه «الغزالية». أما الطرطوشي فقد زار القدس أيضاً، وقد كان فيها عندما وصل اليها إبن العربي في سنة ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م. انظر الأُنس الجليل ج ١، ص ٢٩٧ — ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠١.

ذكر «المدرستين لأهل السنة في المدينة إحداهما لأصحاب المذهب الشافعي والأخرى لاصحاب المذهب الحنفي، وكلتاهما بنيتا أو أُسّستا خلال الفترة التركية التركمانية حيث كان العلماء من المذهبين يعقدون حلقات الدرس للطلاّب ويجرون المناقشات بصورة منتظمة. ومن ناحية ثانية، تُزَوِّدنا رحلة إبن العربي بمعلومات قيمة عن المحاورات والمناقشات التي كانت تدور بين علماء مدينة القدس من المسلمين والنصارى واليهود في مجالس بَحْث وُمدَارَسَةٍ تعرض فيها موضوعات تهم هؤلاء العلماء وتوضح جوانب من العلاقات الفكرية بين هذه الديانات السَّماَوِيّة[10]. أما الناحية الثالثة التي نجدها في رحلة إبن العربي فتُبْرِزُ موقف سُكّان المدينة من الصرّاعات الدّاخليّة بين فئات الأقليّة التركية الحاكمة. ويبرز هذا الموقف بصورة جلية في حادثة شاهدها الرَحّالة بعينه، والتي يؤكد في عرضه لها أنّه لا يمكن أنْ يقع مثلها في أيّ مدينة أو بلدة من بلدان الأندلس، موطنه الأصلي. فبعد وصفه لبرج داود، يذكر ما يلي:

«ورأيت فيه (برج داود) غريبة الدهر، وذلك أنّ ثائراً ثار به على واليه وامتنع فيه بالقوة، فحاصره وحاول قتاله فيه بالنشّاب فترة، والبلد على صِغَره مُسْتَمر على حاله، ما أُغلِقَت لهذه الفتنة سُوق ولا سار اليها العَامَّة بِشرّ، ولا برز للحال من المسجد الأقصى مُعْتَكف ولا انقطعت مُنَاظَرة، ولا بطل التَّدْريس، وإنما كانت العسكرية قد تفرّقت فرقتين يقتتلون، وليس عند سائر الناس لذلك حركة، ولو كان بعض هذا في بلادنا (الأندلس) لاضطَرَمَتْ نار الحَرْب في البعيد والقريب، ولانقطعت المعايش وغلقت الدَّكَاكين، وبَطُل التَّعَامل، لكثرة

---

(١٠) رحلة إبن العربي، ص ٨١ — ٨٢. المصدر ذاته، ص ٦٦ — ٦٧.

فضولنا وقلّة فُضُولِهِم»[11].

وقد كان لهذه اللاّمبالاة المَدْرُوسَة من قبل سكان المدينة المقدسة ما يبررها: فقد عانت المدينة كثيراً في تاريخها السَّابق من تَغَيُّرُ القوى التي حكمتها من ناحية، ومن الصرّاعات المستمرة بين الفئات الحاكمة نفسها من ناحية أخرى، مما وَلّد لدى النَّاس قناعات ومواقف أثبتت التجربة أَنهَّا أنْسَب من غيرها من المواقف في خدمة مصلحة الناس فيها. وإن عرضاً سريعاً لتطورات تاريخ المدينة خلال القرن الحادي عشر الميلادي يعطينا صورة واضحةً عن بعض التَّجَارب القَاسِيَة التي مَرّت بها القدس وما عانته وعاناه أهْلها من كوارث كان بعضها من صُنْع الطبيعة وبعضها الآخر من صُنْع الإنسان.

افتُتح القرن الحادي عشر الميلادي، فيما يخص تاريخ مدينة القدس، بأمرٍ أصدَره الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م — ٤١١هـ/ ١٠٢١م) إلى والي المدينة كلَّفة فيه بهدم كنيسة القيامة، واخْتُتِم القرن ذاته بحمامات الدَّم في المدينة التي رافقت الاحتلال الفرنجي للمدينة والتي أدّت إلى قتل معظم سُكَّانها من المسلمين. وبين بداية القرن المذكور ونهايته عَرَفَتْ مدينة القدس سِلْسِلةً من الأحداث والتَّطورات التي كان لها كبير أثر في تاريخها فيما بعد. وسنحاول في السطور التالية عرض أبْرَز هذه

---

(١١) المصدر ذاتهُ، ص ٦٦ — ٦٧. وقد اعتبر إبن العربي القدس مدينة صغيرة، وربما كان ذلك بالمقارنة مع المدن الكبيرة في الأندلس أو التي زارها مثل القاهرة أما ناصر خسرو، الذي زار القدس قبل ذلك بخمسين سنة، فقد اعتبرها مدينة كبيرة. انظر:

Diary of a journey through Syria and Palestine, trans. by Guy Le Stronge, PPTS, Vol. 4, London, 1893 (AMS reprint, NewYork, 1971) p. 21.

ناصر خسرو، سفرنامة. ترجمة يحيى الخشاب، ط ٣. بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٨٣. ص ٥٥ وما بعدها.

التَّطَورات والأَحـداث التي تشكـل أساس التَّطـورات التي وقعـت في القرن التالي .

في سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م كتب الخليفـة الفاطمـي الحاكم بـأمر الله إلى والي الدولـة الفاطمية في فلسطين ، والمقيم في الـرملة عاصمـة جُند فلسطين منذ الفتـح ، وبناء سليمان إبن عبـد الملك لها بعد ذلك ، يـأمُرُه بالتـوجُّه إلى القدس وهدم كنيسـة القيامة وتسويتهـا بالأَرض وتَعْفِيَة آثارهـا . فاستجاب الوالي لـلأمر، وبدأ في ٥ صفـر من سنة ٤٠٠هـ / ٢٨ أيلول ١٠٠٩م بهدم الكنيسة وتسويتهـا بالأَرض[١٢]. وتبع ذلـك مباشرة تنفيـذ سياسـة مضايقـة سكَّان القدس من النصـارى والتي كانت جزءاً من سياسـة الحاكم بأمر الله واجراءاته المتقلبة ضد النصارى والمسلمين وغيرهم من الرَّعايا في كل المناطق التابعة له [١٣]. هذه السيـاسة التـي أدت آنذاك إلى هجـرة كثير من نصـارى فلسطين إلى المناطـق الحُدُودِيَّة في الشمال من بلاد الشـام التي كانـت تخضع لنفوذ الدولـة البيزنطية أو دولة الروم . ومنـذ ذلك التاريخ وحتـى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي صـارت قَضِيَّة «كنيسـة القيامـة» القضية الـرئيسية في العلاقـات الدبلـوماسية بين الخلافـة الفاطِميَّة والإمبراطـورية البيـزنطية كما سيتضح من العرض التالي :

في ذات الفترة المذكورة ، أي مطلـع القرن الحادي عشر الميـلادي ، وقعت في فلسطين أَحداث بين الـدولة الفـاطمية والقبائل العـربية في بـلاد الشام ، أضعفت النفوذ السيـاسي للفاطميين في كل بلاد الشـام الجنوبية ، وأدت إلى

---

(١٢) أنظر يحيى بن سعيد . تاريخ يحيى بن سعيد . بيروت ، ١٩٠٩ . ص ١٩٥ — ١٩٦ ؛ اتعاظ ، ص ٨١ .

(١٣) أنظر عـن سيرة الحاكم بأمـر الله واجراءاته الـداخلية دراسة صـادق اسعد *The Reign of al-Hakim Bi Amr Allah* : 996 - 1021, Beirut, 1974.

والمقال في دائرة المعارف الاسلامية (الانكليزية ، طبعة ٢) .

سيطرة آل الجَرّاح الطائيين على فلسطين جميعهـا من الفَرْما عنـد حدود مصر جنوباً وحتى طبريّة في الشمال فترة تزيد على سنتين ونصف[١٤]. وقام حَسَّان بن مُفَرِّج الطائي، أمير آل الجَرَّاح، بصفته صاحـب الأمر والسلطة في مدينة القدس بتنصيب بطريركاً للنصارى فيها جاء به من مدينة إقليم الجبال الذي يقـع إلى الجنوب الشرقـي مـن البحر الميـت ووادي عـربة. كما سمـح الأمير الطائي للنصـارى في القدس وفلسطين باعادة بنـاء كنيسة القيامـة. ويخبرنا المؤرخ النصراني المعـاصر يحيى بـن سعيـد الأنطاكـي أنّ إبـن الجَرّاح ساهـم بنفقات إعادة البناء بما سمحت به امكاناته المادية المحدودة[١٥].

وتمكن الحاكم بأمر الله من استرضاء آل الجَرّاح، فـأعْلَنُوا طاعتهم للدولة الفاطمية، وعـادت القُدس وجميع فلسطين للنفوذ الفاطمـي، واتبع الخليفة الفاطمي سيـاسة جديدة تجاه النّصارى الذيـن هجروا فلسطين إذ سمح لهم بالعودة إلى بلادهم، وألغى جميع الاجـراءآت التي كان أصدرها في السـابق. وربما كان هذا التغيرّ في سيـاسة الحاكم بأمر الله نتيجة للسفـارة التي أَرْسَلَها الإمبراطور البيزنطي إلى بَلاطه في القاهرة سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤ — ١٠١٥م حيث استقبل الخليفة مبعوث الإمبراطور شخصيا[١٦].

وبعد وفـاة الخليفة الحاكـم بأمـر الله سنة ٤١١هــ/ ١٠٢١م) تَحَسَّنَت

(١٤) كادت حـركات القبـائل أنْ تقضي كلياً على نُفُـوذ الفاطميين في بـلاد الشام. أنظـر : مصطفى الحياري، **الإمارة الطائيـة في بلاد الشام**. عمان، منشورات وزارة الثقافـة والشباب، ١٩٧٧. ص ٤٤ وما بعدها؛ **الامارات القبلية العربية في الهلال الخصيب** (رسالة دكتوراه غير منشورة بالانكليزية) ص ٧٨ وما بعدها؛ اتعاظ، ج٢ ص ١٠٧ — ١٠٨، ومقال مـاريوس كـانار عن الجراحيين (آل الجَرّاح) في دائرة المعارف الاسلامية (ط ٢ بالانكليزية).

(١٥) يحيى بن سعيد، تاريخ، ص ٢٠١.

(١٦) اتعاظ، ج ٢ ص ١٠٧ — ١٠٨. أما يحيى بـن سعيد الأنطاكي فلا يذكـر هذه السفارة، وإنما يركز على المفاوضات التالية التي تمت في زمن الخليفة الظاهر.

العلاقات بين الخلافة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية . وجاء هذا التحسن نتيجة لمفاوضات طويلة بين الجانبين امتدت حتى سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٨م . ففي هذا التاريخ الأخير تم الإتفاق على عَقْدِ اتفاقية بين الطرفين ، ونُصَّ في أحد بُنُودها على إعادة فتح كنيسة القيامة والسَّماح بإكمال بنائها . ويذكر المقريزي ضمن حوادث سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٨م أنه :

«وُقعت الهدنة بين متملك الروم (قسطنطين الثامن) وبين الظَّاهر(الخليفة الفاطمي آنذاك) عن ديار مصر والشام، وكتب بينهما كتاب ، وتَفَرّدَتْ الخُطْبَة للظاهر ببلاد الروم ، وفُتِحَ جامع القسطنطينية ، وعُمِل له الحُصرُ والقناديل ، وأُقِيمَ به مؤذن ، وعند ذلك أَذِنَ الظَّاهر في فتح كنيسة القيامة التي بالقدس ، فحَمَلَ اليها ملوك النصارى الأموال والآلات ، وأعادوها وارتد إلى دين النصرانية كثير ممن أَسْلَم كُرهاً في أيَّام الحاكم بأمر الله» [(١٧)].

أما يحيى بن سعيد الأنطاكي فيقول إنَّ المفاوضات بين الجانبين امتدَّت على فترة طويلة من الزّمَن بسبب الظروف العسكرية في مناطق الحدود بين الدولتين ، وإن ملك الروم طلب من الخليفة الفاطمي السَّماح له بإعادة بناء كنيسة القيامة على نفقته الخاصة وكذلك إعادة بناء بقيَّة الكنائس التي هدمت في مصر والشام، وأنْ يعين الملك بَطْرِيَركاً للقدس في مقابل إطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين لدى البيزنطيين الذين أُسِرُوا خلال فترة حكمه وفترة حكم الإمبراطور البيزنطي السابق له[(١٨)] . لكن الخليفة الظاهر لم يوافق على هذه الاقتراحات، فاستمرت المفاوضات متقطعة بين الجانبين مُدَّة بعد

---

(١٧) اتعاظ ، ج ٢ ص ١٧٦ .

(١٨) يذكر يحيى بن سعيد أنَّ تبادل السفراء والرسائل بين الجانبين بدأ بعد موت الحاكم بأمر الله (تاريخ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩). وانظر للشروط من الجانبين المصدر ذاته ، ص ٢٧١ . كما يذكر أنَّ المفاوضات استمرت لمدة ثلاث سنوات ونصف . المصدر ذاته ، ص ٢٧١ .

ذلك[١٩].

وفي أواخر سنة ٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م، أَمر الخليفة الفاطمي أَهالي القدس والمسؤولين فيها ببناء أسوار مدينتهم. ويبدو أن عملية البناء هذه قد بدأت مباشرة لكنها توقفت نتيجة للهزّة الأَرضية القَوِيّة التي وقعت في فلسطين يوم الخميس ١٠ صفر من سنة ٤٢٥هـ/ ٤ كانون الثاني ١٠٣٤م، وأدّتْ إلى تهديم نصف مدينة الرملة واجزاء من سوُرها، وخَراب معظم مدينتي أَريحا ونابلس وقراهما، وجزء من المسجد الأقصى[٢٠].

في هذا الوقت كانت المفاوضات بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية لا تزال مستمرة حتى توصلوا أخيراً إلى شُروطٍ قَبل الطرفان بها. وفي سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م عُقد بين الجانبين اتفاقيَّة وهدنة مدتها عشر سنوات[٢١] وكاد الاتفاق الجديد أن ينهار إذ تُوفي الخليفة الفاطمي الظَّاهر في ذات السنة التي عقد فيها. لكن الخليفة الفاطمي الجديد المستنصر بالله (٤٢٧ ـــ ٤٨٥هـ/ ١٠٣٥ ـــ ١٠٩٢م) تابع سياسة والده وسلفه تجاه الدَّولة البيزنطية وقام بالمُصَادقة على الإتفاقية. وكان أبْرَز البنود في اتفاقية السَّماح للإمبراطور البيزنطي باعادة بناء كنيسة القيامة مقابل إطلاق سراح خمسة آلاف أسير من أسرى المسلمين. ويبدو أنه نتيجة لذلك تم إطلاق الأَسرى وبدء باعادة بناء الكنيسة وإكمالها إذ يُذْكَر أنَّ الإمبراطور صرف مبالغ

(١٩) يحيى بن سعيد، تاريخ، ص ٢٧١.

(٢٠) عن أمر البناء والهزة، أنظر: تاريخ يحيى بن سعيد، ٢٧٢، وانظر سفرنامة، ص ٥٤ عن المكتوب في جامع الرملة عن الزلزلة التي وقعت في ١٥ محرم ٤٢٥هـ/ ١٠ كانون الأول ١٠٣٣م. أما عن الهزة الأرضية التي ضربت فلسطين أنظر: اتعاظ ٢ ص ١٨١. وربما كانت الإشارة التي ترد عند الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات. تحقيق جانيت سورديل. دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٥٣. تدل على الإصلاحات التي قام بها الخليفة الفاطمي الظاهر بعد هذه الهزة.

(٢١) اتعاظ، ج٢ ص ١٨٢.

كبيرة من أجل بنائها [٢٢].

وفي سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤٢م تعرضت العلاقات الفاطمية البيزنطية لأزمة حادة نتجت، كما يبدو، عن نقض البيزنطيين شروط الاتفاقية، خاصة وأنَّ مدتها لم تنته بعد. ففي هذه السنة قام البيزنطيون بحملة على المناطق الحدودية معهم من بلاد الشام الشمالية التي كانت تتبع السيادة الفاطمية، مستغلة وفاة الوالي والقائد الفاطمي القوي أَنُوشْتَكِين الدِّزْبَري الذي تمكن من بسط السِّيادة الفاطميَّة على هذه المناطق لأول مرة ولمدة تزيد على عِقْدٍ من الزمان. وكانت العادة أنْ تَرُد الدولة الفاطمية على مثل هذه الأعمال البيزنطية باجرآءات مناسبة، أمَّا في هذه المرَّة فإنهَّا لم ترد على الهجوم ولم تتخذ أيّ إجراء مضاد تجاه كنيسة القيامة أو نصارى بيت المقدس أو غيرهم من النصارى التابعين لها. وبعد هذه الأزمة بأربع سنوات (٤٣٧هـ / ١٠٤٦م) استؤنفت الاتصالات بين الجانبين لإعادة العلاقات بينهما، وأرسل كل من الإمبراطور والخليفة الفاطمي مبعوثين من قبله إلى بلاط الجانب الآخر وتبادلوا الهدايا فيما بينهم [٢٣].

وبعد مرور أقل من سنة على هذه التطورات البيزنطية الفاطمية، أي في رمضان سنة ٤٣٨هـ / آذار ١٠٤٧م [٢٤] كان الرحالة المشهور ناصر خسرو قد وصل إلى مدينة القدس في طريقه إلى مقر الخلافة الفاطمية في القاهرة. ومكث ناصر خسرو في المدينة مدة لزيارة أماكنها المقدّسة ومعالمها الأخرى. ويقدم لنا هذا الرحالة في رحلته التي دَوَّنها وصفاً يدل على ازدهار المدينة في هذه الفترة وكثرة النشاط فيها، يقول:

---

(٢٢) المصدر ذاته، ص ١٨٧. ويذكر المقريزي أنّ الاتفاقية كانت سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م.

(٢٣) اتعاظ، ج ٢ ص ١٩٤.

(٢٤) وصل ناصر خسرو إلى القدس في ٥ رمضان سنة ٤٣٨هـ / ٥ آذار ١٠٤٧م عن طريق الرملة. سفرنامة، ص ٥٥.

«هي مدينـة مشيدة على جبل . . . والمدينة مُحاطـة بسور حصين من الحجر والجص، وعليهـا بوّابـات حديديـة . . . وهي مـدينة كبيرة، كان بها في ذلـك الوقت عشرون ألـف رجل، وبها أسواق جميلـة وأبنية عـاليـة، وكل أرْضِهـا مُبَلّطـة بـالحجارة، . . . وفي المدينـة صُنّـاع كثيرون، لكـل جمَاعَـة منهـم سُـوق خـاصـة . . . . وفي بيـت المقـدس مستشفـى عظيـم عليـه أوقـاف طـائلـة، ويصرف لمرضـاه العديـدين العلاج والدّوَاء، وبـه أطبّاء يأخـذون مرتباتهم من الـوقف المقرّر لهذا المستشفى»[٢٥].

جاءت زيـارة ناصر خسرو للقدس بعـد تسع سنين مـن توقيع الاتفـاقية والهُدْنَة بين بيزنطة والخلافة الفاطمية، وفي وصفه لكنيسة القيامة ما يدل على تنفيذ بنـود الاتفاقية الخَاصَّـة بالكنيسة، إذ يـذكر: «وهذه الكنيسـة فسيحة تسع ثمانيـة آلاف رجل، وهي عظيمـة الزّخرف مـن الرُّخَام الملـوّن والنقوش والصور، وهي مزدانـة من الداخل بالديباج الرّومـي والصُّوَر، وزيّنت بطِلاءٍ من الذهب . . . »[٢٦].

كانت فترة العِقْدَيْن الرابع والخامس من القرن الحادي عشر الميلادي أكثر فترات العلاقات البيزنطية الفاطمية هدوءاً وازدهاراً ، لكنَّ تطورات وقعت في العقد السادس من هذا القرن أدّت إلى سوء العلاقات مرة أُخرى . وجاء هذا التطور نتيجة ظهـور قوة إسلامية جـديدة في شرق العالم الاسلامـي هي دولة الأتـراك السلاجقـة الذيـن مدّوا نفـوذهـم غربـاً حتى حـدود الإمبراطوريـة البيزنطيـة، كما بعثوا برسـل من عنـدهم إلى بلاد الإمبراطـور في القسطنطينية لتحديـد العلاقـات بين الجانبين . وأدى ظهور هذه القـوة الإسلاميـة بجوار

---

(٢٥) سفرنامة، ص ٥٦ — ٥٧ .

(٢٦) المصدر ذاته، ص ٧٥ .

دولة الرُّوم إلى تَغَيُّر موقف الروم من الدولة الفاطمية . فقد منح الإمبراطور للسلاجقة حَقّ الخطبة من على منبر مسجد القسطنطينية للخليفة العبّاسي في بغداد وللامير السلجوقي في خراسان من بعده . وكان ردّ الخليفة الفاطمي المستنصر بالله على هذا التغير عنيفاً إذ أَمر باغلاق كنيسة القيامة ومصادرة محتوياتها وطرد البطريرك المقيم فيها واحتجازه في بيت منفرد في المدينة، واغلاق الكنائس في مصر والشام، وزيادة الجزية على النَّصارى، والطلب من الرُّهبان دفع جزية أربع سنوات مقدما [٢٧].

في هذه الفترة المضطربة من تاريخ مدينة القدس، وصلتنا أقدم الإشارات الموثقة التي تشير إلى منح الدولة الفاطمية جماعات من المسلين وأفراداً من خارج حدود بلاد الشام التابعة لهم أَوقافاً في المدينة المقدسة لخدمة الزُّوَّار القادمين اليها من هذه المناطق البعيدة . ففي نقش عشر عليه في مدينة القدس مؤرخ سنة ٤٤٥هـ (١٠٥٣ — ١٠٥٤م) وقف أمير ديار بكر من بني مروان الأكراد [٢٨] بيتين متجاورين خارج سُور الحرم الشريف لسكنى الزُّوَّار الذين يفدون إلى المدينة من ديار بكر في الجزيرة الفراتية [٢٩]. ويُلاحظ

---

(٢٧) كان جامع القسطنطينية قد أعيد فتحه للصلاة منذ سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م . وأعلنت الخطبة فيه في ذلك الحين باسم الخليفة الفاطمي الظاهر وحده . وأرسل الخليفة الفاطمي القناديل والحصر من مصر إلى المسجد كما عينّ له مؤذناً . اتعاظ، ج ٢ ص ١٧٦ . واستمر وضع الجامع على هذه الحال إلى سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤ - ١٠٥٥م التي فشلت فيها المفاوضات بين الجانبين لتجديد الهدنة . وفي هذه السنة أيضاً سمحت الإمبراطورة ثيودورا لرسل السلاجقة بالصلاة بالجامع وإعلان الخطبة العبّاسية فيه يوم الجمعة . اتعاظ، ج ٢ ص ٢٣٠ ؛ إبن ميسر، المنتقى من أخبار مصر. تحقيق أيمن فؤاد السيد . القاهرة، المعهد الفرنسي للآثارة الشرقية، ١٩٨١ . ص ١٤ .

(٢٨) كان أمير ديار بكر آنذاك نصر الدولة احمد بن مروان، أشهر أمراء بني مروان الأكراد واكثرهم نشاطاً . انظر، الفارقي، تاريخ الفارقي . تحقيق بدوي عبد اللطيف . بيروت، دار الكتاب اللبناني . ص ٩٣ - ١٧٦ .

(٢٩) M. H. Burgoyne, "A recently discovered Marwanid Imscription in Jerusalem", *Levant*, Vol. XIV, 1982, pp. 118-121

ان هذا الأمر تم في الوقت الذي كانت الدولة الفاطمية تسعى فيه لكسب وُدّ بني مروان الأكـراد ودَعْمِهِم لحركة البساسيرى التـي تبنتها [٣٠] والتي هدفت إلى القضـاء على الخلافـة العبـاسية. وربما كـان في القـدس أوقـاف أخـرى لجماعـات مـن مسلمـي الشرق في هـذه الفترة إلاّ أنّنـا لم نعثـر على مخلفـات مكتوبة تؤيد ذلك.

كان لقيـام الدولـة السلجوقية في شرق العـالم الإسلامـي، وسيطرتها على الخلافة العبّـاسِيَّة، ومـن ثم تقـدم قواتها والقبـائل التركمانية التـي اندفعـت أمامها باتجاه بـلاد الشام، دور كبير في تاريخ فلسطين بصورة عامـة ومدينة القـدس بصورة خـاصة. فقـد تمكنـت القبائل التركمانيـة من السيطـرة على فلسطين ولم تتمكـن الدولـة الفـاطمية مـن التصـدي لهذا التحدي بصـورة مناسبـة بسبب ظـروفها الخاصـة والتطورات التـي وقعت في مصر في العقـد السادس من القرن الخامس الهجري[٣١]. وهكذا تمكن التركمان مـن السيطرة على القدس بـاسـم الـدولة السلجـوقية وإقـامة إدارة فيهـا امتدت أكثـر من عقدين من الزمان.

وشهدت مدينة القدس خلال النصـف الثاني من القرن الخامس الهجري (النصف الثاني مـن القرن الحادي عشر الميلادي) تطورات وأحـداثاً كان لها أثر واضـح في تاريخها خـلال الفترات التاليـة. فقد ظهر خـلال هذه الفترة «حي البطـريرك» الخاص بـالنصارى في المدينـة وبني «بيـت الاسبتار» الأول لخدمـة الحجاج الأوروبيين ورعـايتهـم مدة اقـامتهـم في المدينـة المقدسـة، واستـولى التركمان على المدينة وحكمـوها نيـابـة عن السـلاطين السلاجقـة، وتمكـن الأفضل بـن بدر الجمالي، وزيـر الدولـة الفاطميـة، من استعـادتها

(٣٠) انظر عن حـركة البساسيري في العراق وعلاقة الفـاطميين بها رسالتنا للدكتوراه الـواردة سابقاً، الامارات القبلية . . . ، الفصل ٤ ص ١٧٥ - ٢١٨.

(٣١) تعرف فترة العقـد السادس من القرن الخامـس الهجري بمصر فبفترة «الشـدة العظمى»، وقـد أسهب المقريزي في وصفها في الاتعاظ وفي كشف الغمة باغاثة الأمة.

للدولة الفاطمية سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، واحتلهـا أخيراً الفرنجة بالقوة بعد ذلك بسنة واحدة تقريباً. وسنحاول في ما تبقـى من هذا القسم من الدراسة توضيح هذه الأحداث والتطورات.

إنشاء «حي البطريرك» أو حارة النصارى:

كان سُكّـان مدينـة القدس، في عهود الإستقـرار السابقـة للقرن الحادي عشر الميلادي في ظل الدول الإسلامية المتعاقبـة وحتى أقل من مدة عقد من السنوات من سيطـرة التركمان عليها، يعيشون ـ خاصة المسلمون والأكثرية النصرانية[٣٢] ـ بصورة عفويـة بمساكن متجاورة دون تمييز أو تـركيز في أحياء خاصة بهم. واستمـر هذا الوضع، كما يبدو، إلى أنْ تقرر إنشـاء حَيٍّ خاص بالنصارى في المدينة له صبغة قانونية محددة وذلك بناء على طلب من الرئيس الروحي للنصارى (البطـريرك) وموافقة الخليفة الفاطمـي على ذلك رسمياً. ونتيجة لـذلك تغير تـوزيع السكان داخـل حدود مدينـة القدس وأسـوارها فنشأت أحيـاء خاصـة لأصحاب الـديانـات السماوية الثـلاث. فقد أجبر المسلمون الذين يقطنـون في «الحي أو الربع» ـالذي حدّد بصورة طبـوغرافية دقيقة لسكنى النصارى، وبأمر من الخليفة الفاطمي بالانتقال من مساكنهم في «حي البطريرك» إلى منازل في أجزاء أخرى داخل أسوار المدينة[٣٣].

وأمـا السبب الـذي دفـع الخليفة الفـاطمـي إلى الموافقة على هـذا التغيير الجذري في سكنى النـاس في مدينة القدس فهـو، كما يذكر المصدر الـوحيد

---

(٣٢) هذا على الأقل ما كان عليه الوضع في النصـف الثاني من القـرن الرابع الهجـري، أي في زمن المقدسي، أنظر: **احسن التقاسيم في معـرفة الاقاليم**. تحقيق م. دي خويـه. بريل، ١٩٠٦. ص ١٦٧. ولا نعرف إلى أي مدى أثـرت التطورات المذكورة آنفاً في نِسَـبِ سُكان المدينة، إذ لا تتوافر لدينا معلومات مناسبة حول الموضوع.

(٣٣) أنظر وليـم الصوري، **تـاريخ الأعمال فيما وراء البحـار** (بالإنكليـزية). ترجمة بابكـوك وكري، نيويورك، ١٩٧٦. ج ١، ص ٤٠٧.

الذي يزودنا بهذه المعلومات أنّ أسوار المدينة كانت في حالة سيئة جداً[٣٤]. وربما كان للهزة الكبيرة التي وقعت في فلسطين يوم الثلاثاء ١٠ جمادى الأولى سنة ٤٦٠هـ (١٧ آذار سنة ١٠٦٨م) وهدمت أكثر دور الرملة وسورها وتضعضع جامعها، وكذلك في بانياس وبيت المقدس، أثر كبير في هذا السوء[٣٥]. فقد أمر الخليفة الفاطمي سكان المدينة بترميم وإعادة بناء أجزاء من سورها. لكن نصارى القدس لم يتوافر لديهم وقتذاك الإمكانات الماديَّة الكافية التي تمكنهم من القيام بالعمل المطلوب بصورة مناسبة مما دفعهم إلى الطلب من الخلافة الفاطمية السماح لهم بطلب المساعدة والدَّعم من الإمبراطور البيزنطي. ووافق الخليفة الفاطمي على هذا الإجراء، وتم الاتصال بين النصارى والامبراطور، ونتج عن ذلك اتفاق عقد بين الخليفة والإمبراطور، تقرر بموجبه أنْ يقوم الإمبراطور بتمويل بناء الجزء من السُّور الذي طلب من نصارى القدس بناؤه (والذي انتهى منه [في قوله] سنة ١٠٦٣م) مقابل أنْ يسمح الخليفة بجعل الحي الذي يحيطه السُّور مَقْصُوراً على السكان النصارى في القدس لا يخالطهم فيه أحَد[٣٦]. وكان طبيعياً أنْ يكون الحي الجديد هو ذلك الجزء من المدينة المقدسة الذي تقع كنيسة القيامة في قلبه.

وقد حدّد المؤرخ الفرنجي المشهور وليم الصوري حدود «حي البطريرك» كما تم الاتفاق عليها بين الجهات المعنية وكما عَرَفَها هو في النصف الثاني من

---

(٣٤) المصدر ذاته، ج ١ ص ٤٠٧.

(٣٥) انظر إبن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق. ص ٩٤؛ إتعاظ، ج٢ ص ٢٧٧؛ وليم الصوري، تاريخ الأعمال. ص ٤٠٧.

(٣٦) وليم الصوري، تاريخ الأعمال. ج ١، ص ٤٠٧،

J. Prawer, "The Patriarch's Lordship in Jerusalem", in *Crusader Institutions*. the Clarendon Press, Oxford University Press, 1980. p.296.

القرن الثاني عشر الميلادي[٣٧]، فكانت كالتالي :

«يتكون الحد الخارجي (للربع) من سُور المدينة الذي يمتد من الباب الغربي أو باب داود (باب الخليل) مروراً بالبرُج الذي يقع في الزاوية (الجنوبية والغربية والذي يعرف [في عصر المؤرخ] ببرج تانكرد (Tancred Tower)، ويمتد من ثَمَّ إلى الباب الشمالي الذي يعرف باسم الشهيد اسطفان (باب العمود أو باب دمشق). أما الحد الداخلي (للحيّ) فيتكون من الشارع العام الممتد من باب (القديس) اسطفان وحتى مكان صرّافي النُّقود (شارع القديس اسطفان في الفترة الفرنجية)، ويتجه من ثَمّ مع الطريق العام المُمتد إلى الباب الغَرْبي» [٣٨].

كما حدّدت الإتفاقية بين الخليفة الفاطمي والإمبراطور البيزنطي الوضع القانوني للحي إذْ تقرر أنْ يوضع الحَيّ بأكمله تحت سلطة البطريرك الأرثوذكسي ونفوذه وحده، ولذلك عرف الحي في الفترة الفرنجية من تاريخ المدينة باسم «ربع البطريرك» [٣٩].

---

(٣٧) لا يذكر أي من المصادر العربية التي رجعت اليها تأسيس «حي البطريرك» أو حدوده ويبدو أن وليم الصوري كان على اطّلاع على وثائق وسجلات كنيسة القيامة. أما السبب الذي يقدمه المؤرخ الفرنجي فلا يرد في أي مصدر آخر. فناصر خسرو يذكر، كما رأينا، أنّ الأسوار كانت بحالة جيدة، ولم تحدث في الفترة بين ١٠٤٧-١٠٦٣ أي هزة قوية. وربما كان ذلك الجزء من السور مهملاً، لأن القدس لم تواجه تهديداً خطيراً منذ بداية الفتوحات الإسلامية وربما كان للاهمال، والخطر التركماني، والأزمة الاقتصادية التي شهدتها مصر خلال العقد السادس من القرن الخامس الهجري، دور في طلب الفاطميين من نصارى القدس تحصين هذا الجزء من أسوار المدينة.

(٣٨) وليم الصوري، **تاريخ الأعمال**. ج ١، ص ٤٠٧-٤٠٨.

(٣٩) المصدر ذاته. وانظر لتفاصيل الوضع القانوني لحي البطريرك قبل وبعد الفترة الفرنجية مقال برافر المشار إليه سابقاً.

بناء بيت الاسبتار :

ولم تكن إقامة «حي البطريرك» الإمتياز الوحيد الذي منحته الدولة الفاطمية في مدينة القدس في هذه الفترة . فقبل سيطرة التركمان على المدينة بقليل ، مَنَح الخليفة المستنصر أيضاً قطعة كبيرة من الأرض داخل أسوار المدينة تقع إلى الجنوب من كنيسة القيامة في داخل حدود الحي الجديد ، لتجار مدينة أمالفي(Amalfi) الإيطالية ، لبناء مركز لإقامتهم ولاقامة غيرهم من النصارى الأوروبيين أثناء وجودهم في المدينة ولخدمة الحجاج الأوروبيين الذين يفدون إلى الأماكن المقدسة . وقام هؤلاء التجار ببناء دير للرُّهْبان على هذه الأرض عرف بدير القديسة ماري اللاتينية (Mary of the Latins)، ودير للراهبات عرف بدير القديسة مريم المجدلية ليكون مأوى للحَاجَّات من النساء . ثم بني على هذه الأرض فيما بعد مأوى (Hospice) وكنيسة عرفت بكنيسة القديس يوحنا ، ثم تحول المأوى والمرافق التابعة له في الفترة الفرنجية إلى مستشفى القديس يوحنا (Hospital of St. John) والذي صار بعد مقراً لجماعة الفرسان الإسبتارية الدينية [٤٠].

---

(٤٠) منحت هذه الهدية لتجار أمالفي بعد إقامة «حي البطريرك» بقليل . وربما كانت الأرض التي وهبت خَرِبَة أو خالية من العمران أو من الأراضي التي آلت حكماً إلى ملكية الدولة (الصوافي) ويعتقد رايلي سميث أنّ الدير الخاص بالرهبان وكذلك دير الراهبات بنيا على أساسات لأبنية سابقة . أنظر،

The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus, C. 1050-1310, McMillan, London, St. Martin Press, 1967. P. 34-36; Chap. 2 of Pt. 1.

وبالرجوع إلى خرائط مدينة القُدس للفترة الرومانية نجد أن الأرض التي أُعطيت لتجار أمالفي هي السّاحة العامة (Forum)المجاورة للمعبد الكبير الذي بنيت مكانه كنيسة القيامة .

وبعد حصول النصارى المحليين في القدس والنصارى الأوروبيين على هذه الامتيازات مباشرة استولى التركمان سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م على المدينة وعلى معظم فلسطين من أيدي الفاطميين، وأقاموا لأنفسهم فيها إمارة خاصة بهم كانت تتبع الدولة السلجوقية في العراق وايران. فكيف سيطر التركمان على مدينة القدس؟ وما التطورات التي وقعت فيها أو تتعلق بها حتى احتلال الفرنجة لها؟ هذا هو موضوع ما تبقى من هذا الجزء من البحث.

٢ - القدس والاحتلال التركماني :

دخلت القبائل التركمانية، التي اندفعت أمام تَقَدُّم السلاجقة نحو العراق، إلى بلاد الشام الجنوبية بناء على استدعاء والي دمشق الفاطمي، بدر الجمالي. فقد طلب هذا الوالي مساعدة التركمان للقضاء على نفوذ القبائل العربية التي تعيث فساداً في المنطقة التابعة له [١]، مقابل أموال واقطاعات وعدهم الوالي بها. وقدمت جماعات تركمانية عِدَّة بقيادة أمير هو أتْسِزْ بن أوق الخُوارزمي وتمكنت من تفريق القبائل العربية. لكن بدر الجمالي لم يف بالوعود التي قطعها للتركمان فقام هؤلاء بالعيث والفساد في المنطقة ثم تمكنوا، بعد استدعاء بدر الجمالي إلى مصر، من السيطرة على معظم بلاد الشام الجنوبية. واستطاع بعد ذلك أبرز مقدّمي التركمان المذكور سابقاً الإستيلاء على القدس في شوّال ٤٦٥هـ/ حزيران ١٠٧٣م، واتَّخَذَها مركزاً لاقطاعيته السلجوقية التي ضَمَّت معظم بلاد فلسطين [٢].

---

(١) كانَ بَنُو الجَرّاح وبنو كلب أبرز القوى القبلية في بلاد الشام الجنوبية في ذلك الوقت. انظر مصطفى الحياري، **الإمارات القبلية العربية في الهلال الخصيب** (رسالة دكتوراه غير منشورة بالإنكليزية). ص ٢٢١-٢٣٤.

(٢) **مرآة الزمان**، (الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين السنوات ١٠٥٦-١٠٨٦م)، (علي سويم) ص١٦٩.

وقد حفظ لنا أحد المصادر المعاصرة الكيفية التي تم بها استيلاء القائد التركماني على مدينة القدس. ففي رسالة بعث بها أتْسِز بن أوق الخوارزمي إلى الخليفة العباسي في بغداد والسلطان السلجوقي[٣]، وصف مناسب لذلك. فقد تقدم أتْسِز على رأس قواته إلى القدس، فوصل إليها، وباشر حِصارها، لكِنَّه رَفض قتال من فيها والاستيلاء عليها بالقوة، لأن المكان - كما قال: «حرم الله لا أقاتله، وإنما أريد إقامة الدعوة العباسية والسلطانية»[٤]. فامتدت مدة الحصار وارتفعت الأسعار بالمدينة بحيث بلغ سعر غرارة[٥] القمح فيها سبعين دينارا[٦].

كان والي مدينة القدس آنذاك، الذي قاد عمليات الدفاع عن المدينة، تركياً من بقايا الأتراك الذين بدأت الدولة الفاطمية باستخدامهم في جيشها وإدارتها منذ عهد الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٥هـ/ ٩٧٥ - ٩٩٦م). وقد رفض هذا الوالي في البداية الاستسلام للتركمان على أمل انسحابهم أمام تحصيناتها القوية، لكن إصرار أتْسِز وتركمانه على مواصلة الحصار وإحكامه، ونقص الأقوات في المدينة، واستشراء الغلاء فيها، وفقدان أيّ أملٍ بوصول نجدات من مصر أو الشام تساعد على فك الحصار ودفع التركمان، أدى بالوالي المتعاطف مع أبناء جنسه الأتراك إلى مراسلة أتسز في

---

(٣) لم تحفظ المصادر نص الرسالة كاملاً، لكن مضمون الرسالة محفوظ في كتاب مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزي المتوفي سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م، والذي يذكر صراحة أنه ينقل معلوماته هذه عن المؤرخ المعاصر والمطلع على مراسلات الدولة، محمد بن هلال الصابيء، الذي أكمل تاريخ والده.

(٤) مرآة الزمان، مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس، ورقة ١٤٨، والمقتطفات المذكورة سابقا التي نشرها علي سويم، ص ١٦٩.

(٥) مكيال دمشقي للحنطة - وهي «العدل من الصوف أو الشعر»، وتعادل، كما ذكر هنتز، ٥ر٢٠٤ كغم. هنتز، المكاييل والاوزان الاسلامية. ترجمة كامل العسلي. عمان، ١٩٧٠. ص ٦٤.

(٦) مرآة الزمان (سويم) ص ١٦٩.

التسليم، فقد ورد على لسان رسوله إلى مُقَدَّم التركمان :

«أنا منكم، وما أقمت على الإمتناع إلاَّ وفاءً لمن كنت خادماً له وعبداً (الخليفة الفاطمي)، وقد فعلت ما يجب عليّ (الدِّفاع قدر الإستطاعة)، فإن أمّنتني على نفسي ومالي سلمت اليك البلد ونزلت اليك»[7].

ووافق أتْسِزْ على ما عرضه الوالي، وأعطى رسوله أماناً وأقسم له على الوفاء بجميع الشرّوط التي حَدّدها الوالي بما فيها اقطاعه ضياعاً حَدَّدها الوالي بنفسه. ففتح الوالي باب مدينة القدس، ودخل أتْسِز ورجاله اليها[8].

وكان أول عمل قام به الأَمير التركماني بعد دخول المدينة أَنْ بعث رجالاً إلى أسواق البلد وأحيائها للنداء بمنح الأَمان لجميع الناس في المدينة، أما العمل الثاني الذي قام به ليطمئن به الناس فهو أَمْرُه جميع رجاله بعدم التعرض لشيء من أموال الناس التي يذكر أنَّها كانت «عظيمة»، وأقام رجالاً من جنده لحفظ أموال الناس[9]. وكان هذا أمراً لم يتوقعه الناس[10] إذ جرت العادة أن الفاتح يترك لرجاله نهب المدن التي يسيطرون عليها وسلب كل ما يجدونه بها.

وأما الحامية العسكرية الفاطمية التي كانت في مدينة القدس ورجال الإدارة الآخرين فيبدو أَنهَّم قَرَّروا البقاء في المدينة إذ لا ذكر لعودتهم إلى مصر

---

(٧) المصدر ذاته.

(٨) مرآة الزمان (سويم) ص ١٦٩.

(٩) المصدر ذاته.

(١٠) يذكر إبن هلال الصابيء «. . . فجاءهم ما لم يكونوا يظنوه».

أو تفرقهم في البلاد الأخرى . وعلى كل حال فقد كانت الحامية تتكون أساساً من الفرسان الاتراك والرَّجالة السَّودان وخليط من الفرسان والرجالة من المصامدة البربر[11]. أما الأتراك فقد انضموا إلى أتْسِزْ والتركمان بينما استقر الباقون كسكان عاديين . وكذلك عمل، كما يبدو، أعضاء الجهاز الإداري الفاطمي الآخرين مثل القاضي والمحتسب وصاحب الشرطة وغيرهم .

وبعد أربع سنوات من استيلاء التركمان على القدس وفلسطين، توجه أتْسِزْ على رأس جماعاته التركمانية إلى مصر في محاولة للاستيلاء عليها واتباعها بالتالي لنفوذ الخلافة العباسية والدولة السلجوقية . وحققت هذه الحملة في البداية نجاحاً ملحوظاً، لكن وزير الدولة الفاطمية، بدر الجمالي ، استطاع بجهود كبيرة افشالها ، إذ جمع كل ما تمكن جمعه من قوات منتشرة في مختلف أنحاء مصر تحت قيادته ، كما تمكن من استمالة القبائل العربية التي كانت مع قوات أتْسِزْ، وهَزَم التركمان هزيمة منكرة في رجب من السنة ٤٦٩ هـ/ كانون ثاني - شباط ١٠٧٧م، واستولى على أثقالهم وأموالهم وذخائرهم ، فهرب أتْسِزْ ومن معه إلى الرملة «فخرج أهلها فقاتلوه وقتلوا بعض أصحابه، فهرب إلى دمشق . . . » بمن بقي معه من الرجال فوصلها في ١٠ شعبان من السنة (٨ آذار ١٠٧٧م)[12].

وكاد النفوذ التركماني في فلسطين أن ينهار كلياً نتيجة لهذه الهزيمة خاصة وأن سيطرتهم لم تكن قد تثبتت بعد وأن غالبية السكان في المدن والأرياف كانت لا تزال على ولائها للدولة الفاطمية التي حكمتهم مدة تزيد على قرن من الزمان . ولذلك لم يكن مستغرباً استغلال أهل الرملة للهزيمة ولا ابتداء الفتنة التي قام بها أهالي القدس .

---

(١١) كانت هذه هي العناصر الرئيسية التي يتكون منها الجيش الفاطمي آنذاك .

(١٢) مرآة الزمان ، (سويم)، ص ١٨٢ - ١٨٦ .

استغلت الجماعات المؤيدة للفاطميين من سكان مدينة القدس هذه الهزائم التي مني بها التركمان، وخُلُوّ المدينة من رئيس هذه الجماعات والقوات التركية التركمانية التي تشتت أو عادت مع أتْسِزْ إلى دمشق، فقاموا بثورة ضد من بقي في المدينة من الأتراك. وكان على رأس هذه الثورة القاضي الفاطمي السابق والشهود، فهجموا على الأتراك في المدينة، واستولوا على الأموال والنساء والأولاد الذين تركهم أتْسِزْ وأصحابه فيها «فنهبوها، وقسموا التركيّات بينهم، واستعبدوا الأحرار واسترقوهم» أما الاتراك الذين كانوا يسكنون في برج (قلعة) داود أو التجأوا إليه فقد حمتهم أسواره المنيعة [١٣].

وعندما عرف أتْسِز، الذي كان قد وصل إلى دمشق واستقر بها، بهذه التطورات التي وقعت في القدس، جمع ما تبقى لديه من القوات التركمانية في دمشق ومناطق بلاد الشام الجنوبية الأخرى، وتوجه مسرعاً اليها فوصلها وبدأ بحصارها.

وتمكّن الثائرون من السَّيْطرة تماماً على جميع أَحياء المدينة، ولم يمتنع عليهم إلاّ برج داود الحصين الذي كان فيه أَموال أتسز وأَولاده ونساؤه ومن لجأ اليه من الأتراك. وتحصن أهالي المدينة داخل الأسوار للدفاع عن المدينة ولمقاومة الأمير التركماني أطول فترة ممكنة. أَمَّا أتْسِزْ فإنَّه قام حال وصوله إلى أسوار المدينة بمحاولة لاستعادة سلطته على المدينة المقدَّسَة عن طريق المفاوضات، فأرسل رسولاً إلى أهل المدينة طالباً منهم تسليمها إليه مقابل أمانٍ عام يمنحه لهم جميعا. لكنَّ أَهل القدس رفضوا هذا العرض وهَدَّدُوا الأمير التركماني بقتاله حتى خارج أسوار المدينة. ورغم هذا التهديد قام أتْسِزْ بمحاولة ثانية

---

(١٣) مرآة الزمان (باريس)، ورقة ١٦٩.

لإقناع أهل المدنية بالتسليم دون قتال، وتَقَدَّم هو هذه المرة إلى تحت الأَسوار وخاطبهم في ذلك، وكان ردهم عليه أن توَعّدُوه وسَبُّوه. عندها لم يجد الأَمير بداً من محاربتهم والاستيلاء على المدينة بالقوة، فقاتلهم يوماً وليلة دون نتيجة. في ذات الوقت قام السُّودان والبربر في داخل المدينة بمحاولة للهجوم على برج داود والاستيلا عليه بالقوة، لكن هذه المحاولة فشلت. أمّا المُحَاصرون في داخل البرج فقد عملوا بدورهم على إيجاد وسيلة تمكِّن القوات التركمانية من دُخُول البرج والمدينة، ووجدوا ذلك في رَتْق* جانبي في سور البرج يُؤدي منه إلى ظَاهِر البلد، فخرجوا منه إلى أَتْسِزْ ودَلُّوه عليه، فدخل الأَمير ومعه جماعة من عسكره من هذا الرتق إلى داخل البرج ومنه إلى محراب داود ثم إلى الباب المجاور (باب داود) ففتحوه، ودخل جميع العسكر التركماني إلى المدينة [١٤].

ودخل التركمان مدينة القدس هذه المرة بعزم وتصميم للقضاء على الثائرين والانتقام منهم للأَعمال التي قاموا بها ضِدَّ الأتراك ونسائهم وأولادهم في بداية سيطرتهم على المدينة، وقتلوا من السودانِ والبربر وغيرهم في العمليات العسكرية التي تلت ما يزيد على ثلاثة آلاف نفس. كما أَسَر التركمان القاضي والشهود الذين كانوا، كما يبدو، رؤساء هذه الفتنة، ثم قتلوهم صبراً. واحتمى جماعة من المشاركين في الفتنة من أهل المدينة بالمسجد الأَقصى وقُبَّة الصَّخْرة فسَلِمُوا من القتل «لأَجل المكان» – كما قال أَتْسِزْ، أي رعاية منه لحُرمة الحرم الشريف، لكنه قرر عليهم مقادير من المال يدفعونها مقابل الإبقاء على حياتهم. وسمح الأَمير التركماني هذه المرة لرِجَالِه بنهب الأَموال في المدينة فأخذوا منها «. . . شيئاً لا يبلغه الحصر بحيث

★ الرتق أو الرَّتْق: خلل ما بين الأصابع. ويبدو أن المقصود هنا فرجة ضيقة في السور تُعمل لغرض الاستفادة منها في وقت الحصار لمثل ما استخدمت لأجله أو للهرب. وربما كان هذا يشبه إلى درجة ما الـ Postern في التحصينات الأوروبية في العصور الوسطى.

(١٤) مرآة الزمان، (سويم) ص ١٦٩.

بيعت الفضة (التي نهبت) بدمشق كل خمسين درهماً بدينار مما كان يساوي ثلاثة عشر درهماً بدينار». ثم قام أتْسِزْ بترتيب أمور المدينة وغادرها بعد ذلك إلى الرَّمْلة «فلم يسر فيها من أهلها أحداً»[١٥]. ولم تقم بعد هذه الحادثة للحزب الفاطمي في القدس ومؤيديه قائمة حتى قام الأمير الأَفْضَل بن بَدْر الجمالي بحملته عليها، وأعادها للنفوذ الفاطمي، وذلك قبل استيلاء الفرنجة عليها بفترة قصيرة.

كانت مدينة القدس، كما رأينا، مقر إقَامة نساء أتْسِزْ وأولاده ومستودع أمواله الخاصة وذخائره في برج داود قلعتها الحصينة آنذاك، أما مركز ولايته الرسمي فقد كان مدينة دمشق. ولذلك فعندما فرغ الأمير التركماني من ترتيب أمور القدس وفلسطين عاد مع معظم قواته إلى دمشق بعد أنْ عين نائباً عنه فيها وزوّدها بحامية مناسبة. وكان هذا النائب يدعى قَرْمُوش الذي أقام هو والحامية في برج داود على عادة النواب والولاة في المدينة المقدسة.

وقد مكّن نجاح أَتْسِزْ في القضاء على ثورة العناصر الفاطمية في القدس من تثبيت السلطة السّلْجُوقية فيها وبعض مناطق فلسطين الأُخرى إلا أنّه واجه تحديات جديدة من الدولة الفاطمية التي لم تفقد الأمل في استعادة سيطرتها ونفوذها في بلادالشام. وتمثلت هذه التحديات بحملات إلى الشام ودمشق خاصة، مما دفع الأمير التركماني إلى طلب الإمدادات من الدولة السلجوقية التي استجابت للطلب بسرعة وبعثت الأمير السلجوقي تتش ابن ألب أرسلان أخ السلطان ملكشاه على رأس قوة تركية إلى دمشق. وكان أوّل عمل قام به الأمير السلجوقي قتل أَتْسِزْ (ربيع الأول ٤٧٢هـ/ أيلول ١٠٧٩م) والاستيلاء على جميع بلاد الشام الجنوبية والوسطى بما فيها فلسطين ومركزها القدس. وما أنْ تم لتتش ذلك حتى عين أُرْتُق بن

---

(١٥) مرآة الزمان، (سويم) ص ١٦٩، (باريس) ورقة ١٦٩.

أكْسَب[١٦]، أحد أمراء التركمان نائباً عنه في القدس وأقطعه جميع المناطق التابعة لها. وعندما وصل أرتق إلى مقر ولايته، لم يواجه أية متاعب من نائب أتْسِزْ فيها، وسَلَّم المدينة إلى الوالي الجديد دون مقاومة، خاصة وأنه قبل عرض تتش عليه بتعويضه عنها إقطاعاً مساوياً من حيث القيمة للاقطاع الذي تخلى عنه، والذي تضمن قلعة صرخد في حَوْران والبلاد التابعة لها. وأمَّا زوجة أتْسِزْ وإبنته وأحد أقاربه الذين كانوا مقيمين في برج داود فقد خافوا على حياتهم من تتش فغادروا القدس وبلاد الشام متوجهين إلى بغداد[١٧]. وهكذا بدأت مرحلة أخرى في تاريخ مدينة القدس.

حكم بنو أرتق القدس نيابة عن سلاجقة الشام مدة تقارب عشرين سنة تميزت بالهدوء والاستقرار وشهدت هذه الفترة عملية احياء لمذاهب السنة بعد قرن ويزيد من السيطرة الاسماعيلية الفاطمية، ورغم ندرة المعلومات التي توضح عملية الاحياء هذه إلاّ أن المتوافر يدل على هذا الاتجاه دلالة واضحة، ففي سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م تم بناء مسجد جديد[١٨]، داخل

---

(١٦) أرتق هو مؤسس دولة الاراتقة. كان من الأمراء في خدمة الدولة السلجوقية وتمكن أبناؤه من إقامة إمارة خاصّة بهم في منطقة الجزيرة الفراتية. انظر عنه:

Claude Cahen, "Artuk", E.I ., Second ed.

ابن خلكان، **وفيات الاعيان**. ج ١ ص ١٩١. وعنه الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج ٨ تحقيق محمد يوسف نجم. بيروت، دار نشر فرانز شتاينر، تيسبادن، ص ٣٣٦ ترجمة رقم ٣٧٦٢.

(١٧) **مرآة الزمان** (باريس)، ورقة ١٧٦.

(١٨) أنظر النقش الذي عثر عليه في مدينة القدس والذي يدل على بناء هذا المسجد:

Michael H. Burgoyne and Amal Abu Hajj. "Twenty four Medieval Arabic Inscriptions from Jerusalem", *Levant*, Vol. XI, 1979, p. 117.

وقراءة نص النقش «بسم الله الرحمن الرحيم تولى عمارة هذا المسجد المبارك و . . . ص وعليه مر (؟) الله مامه (؟) رما ما من (؟) الله وسعه (؟) الله(؟)وذلك في سنة اثنين وثمانين وأربعمائة [١٠٨٩م]».

أسوار المدينة كما أعيد ترميم بناء كنيسة القديسة حَنّة (آن) وحُوِّلت إلى مدرسة للشافعية [١٩]، وأنشئت مدرسة للأحناف [٢٠] أيضاً، وبدأ بعض العلماء والفقهاء والتلاميذ بالقدوم إلى القدس للإقامة فيها أو للزيارة والتدريس والدراسة، فكان النشاط الفكري الذي ذكرنا بعضه في بداية هذه الدراسة.

وبعد وفاة ارتق بن أكسب (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) نائب تتش في القدس، أعطيت المدينة والمناطق التابعة لها مُنَاصَفَةً بين ولديه سُقْمان وإيلغَازي، وحكم هذان الأميران اقطاعيتهما دون تحديات داخلية أو أزمات خارجية مدة تقارب عشر سنوات حتى شهر شعبان من سنة ٤٩١هـ/ تموز ١٠٩٨م، ففي هذا الشهر قاد الأفضل بن بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية حملة كبيرة من مصر باتجاه القدس، فقام بمحاصرتها في الوقت الذي كانت فيه الحملة الفرنجية الأولى قد دخلت بلاد الشام من الشمال وابتدأت حصارها لمدينة أنطاكية [٢١]، واستولت عليها.

وحاول الأفضل في بداية حصاره للقدس الاستيلاء عليها دون قتال، وفاوض حاميتها محاولاً اقناعها بالاستسلام والخروج منها دون أذى، لكنَّ التركمان رفضوا ذلك، عندئذ بدأ الوزيرالفاطمي بمهاجمتها بالمنجنيقات وآلات القتال الأخرى التي توافرت لديه [٢٢]، ويذكر إبن ميسر صاحب كتاب

(١٩ - ٢٠) يذكر إبن العربي صراحة وجود هاتين المدرستين، أنظر ما سبق ص٢، وكذلك النص في رحلته.

كما يذكر أبو الفداء تاريخاً موجزاً لكنيسة القديسة حنه وما طرأ عليها.

(٢١) بدأ حصار الفرنجة لأنطاكية في ٢١ تشرين أول ١٠٩٨م، واستمر ذلك إلى اوائل حزيران ١٠٩٩م.

S. Runciman, *A history of the Crusades,* Vol. 1, Chap III.

(٢٢) مرآة الزمان (باريس) انظر ورقة ٢٢٨، ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص ٦٥ - ٦٦.

المنتقى من أخبار مصر أنه نتيجة لهذا الهجوم وقعت قطعة من سُور المدينة فأدرك التركمان استحالة استمرار المقاومة ووافقوا على تسليم المدينة فأحسن الأفضل إلى أميرها وسمح لهما ومن معهما بمغادرة المدينة وبلاد فلسطين إلى حيث يشاؤون بعد أن خلع عليهما [٢٣]. أما سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان، الذي اعتمد على مصادر عراقية معاصرة، فيقول بأن الحصار والقتال امتدّ فترة تزيد على أربعين يوماً دون أنْ يتمكّن الفاطميون من الاستيلاء على القدس، لكن إلحاح الأفضل في الحصار ورمي المحاصرين بآلات القتال، وقلة الأقوات، وعدم توقع قدوم نجدات تركية وتركمانية للمساعدة في فك الحصار، دفعت سكان المدينة إلى الاتصال بالأفضل ووعده بفتح أبواب المدينة له إذا أعطاهم أماناً عاماً، فقبل الوزير هذا العرض وفتح السُكّان الباب، ودَخَلَتْ قوات الفاطميين المدينة في الوقت الذي كان فيه إبْنَا أرْتُق، سُقْمَان و إيلْغازي، يغادرانها مع من معهما من التركمان من باب آخر، واتجه أحدهما إلى بلدة السرها في منطقة الجزيرة الفراتية بينما توجه الآخر إلى بغداد [٢٤].

(٢٣) ابن ميسر، المصدر ذاته، ص ٦٦.

(٢٤) مرآة الزمان (باريس) ورقة ٢٢٨.

٣ - احتلال الفرنجة للقدس :

في تموز ١٠٩٨م / رجب ٤٩١هـ استولى الأمير الأفضل بن بدر الجمالي على مدينة القدس من أيدي التركمان، وتمكن من استعادة النفوذ الفاطمي على كل فلسطين، لكنه لم يمكث فيها الاّ فترة قصيرة نَظَّم فيها أموره، وعين افتخار الدولة - أحد أمرائه - والياً عليها، ووضع معه حامية كافية للدفاع عنها، ثم عاد مع القسم الأكبر من قواته إلى القاهرة.

وفي ذات الوقت الذي كانت تجري فيه هذه التطورات في فلسطين، كانت الحملة الفرنجية قد تمكنت (٣ حزيران ١٠٩٨م) من الاستيلاء على مدينة أنطاكية من السلاجقة بعد حصار طويل استمر عدة أشهر.

وقبل هذه الأحداث بشهرين أو ثلاثة أشهر، أي أثناء حصار الفرنجة أرسل الأفضل بن بدر الجمالي بعثةً من القاهرة إلى أمراء الحملة الفرنجية، والتقت بهم في معسكرهم أمام مدينة أنطاكية، وجرت مفاوضات بين الجانبين اقترح رسل الفاطميين فيها اقتسام ممتلكات السَّلاجِقة في بلاد الشام بين الفرنجة والفاطميين، بحيث يأخذ الجانب الأول بلاد الشام الشمالية ويأخذ الجانب الثاني فلسطين. لكنَّ أمراء الحملة الفرنجية الذين كانوا يعرفون هدفهم الأول وهو الاستيلاء على القدس، معرفة جيدة، لم يُلْزموا أنفسهم بأيِّ تراتيب محددة، لكنهم اكْرَمُوا الرُّسل وَزوّدُوهم بالهدايا وأعادوهم إلى القاهرة[1]، وربما كان هذه المفاوضات، وضعف نفوذ التركمان

---

(١) ستيفان رنسمن :

A history of the Crusades, Vol. 1 : *The first Crusade and the foundation of the Kingdom of Jerusalem*. a Harper torchbook, New York, 1964, p. 229 and note 1.

ويرد في هذه الملاحظة ذكر المصادر الفرنجية للرسل وللحملة التي ذكرت هذه المفاوضات.

والسلاجقة في بلاد الشام، دورها في حملة الأفضل بن بدر الجمالي على القدس[٢].

ومما يؤكد عدم التزام أمراء الفرنجة بشيء نحو الدولة الفاطمية، أنهم توجهوا بعد انطاكية إلى القدس، وفي أوائل حزيران ١٠٩٩م، وصلت قواتهم أمام أسوار المدينة المقدسة وبدأوا بحصارها الذي انتهى بالاستيلاء عليها.

كانت القدس، عند وصول الحملة الفرنجية اليها، أكبر مدن فلسطين الداخلية وأكثرها حصانة، ولذلك فقد لجأ اليها عشرات الالاف من سكان فلسطين الذين هربوا أمام تقدم الحملة من الساحل اليها، إضافة إلى الحاميات الفاطميَّة الصغيرة التي كانت في المناطق المحيطة بها، ولذلك فقد كانت تعج بالناس الذين التجأوا اليها طلباً لحماية أسوارها. أما نصارى المدينة فقد اجبروا على مغادرة البلد إلى الأرياف القريبة خوفاً من تعاونهم مع الفرنجة خاصة وأن نصارى بيت لحم كانوا قد أرسلوا وفداً منهم إلى الرَّملة حيث كانت الحملة قد سيطرت عليها، فطلبوا منهم الإسراع في تسلم البلدة[٣].

وصلت الحملة الفرنجية إلى القدس عن الطريق الرئيسي الذي يصل من الساحل اليها والذي يمر في الرملة وعمواس وبيت نوبة، وقاموا بمحاصرتها من الجهة الغربية والجنوبية، وتركز القسم الأكبر من قوات الحملة في الجهة الأولى بينما قاد ريموند، كند (كونت – Count) طولوز، الحصار في الجهة الثانية المقابلة لباب داود والبرج حيث كانت الحامية الفاطمية. ووجد أمراء القسم الأكبر من الحملة أن طبوغرافيَّة الجهة الغربية لا تساعد على قيادة

(٢) يبدو أن الأفضل بن بدر الجمالي قرر القيام بحملته بعد عودة رُسُلِه من معسكر الفرنجة خاصة وأن صاحب دمشق آنذاك، دُقَاق بن تتش، وأتابكه طُغْتَكين كانا على رأس قواتهما في شمال بلاد الشام للمشاركة في التصدي للحملة الفرنجية التي استولت على أنطاكية.

(٣) أنظر Fulcher of Chartres, *A history of the expedition to Jerusalem* 1095 - 1127, trans. Harold S. fink, University of Tennesse Press, Norton & Company, New York, 1969, p. 115 - 116; William of Tyre, *History,* Vol. 1.p. 335 ff.; and S. Runciman, Ibid, p. 280 - 81; Hans E. Mayer, *the Crusades*, trans John Gillingham, Oxford University Press, 1972, p. 59 - 60.

حصار مؤثر، فانتقلوا بكليتهم إلى الجهة الشمالية للاسوار الممتدة من باب العمود (باب دمشق) وحتى برج اللَّقْلَقْ الذي يقع في الزاوية الشمالية الشرقية المشرفة على وادي جهنم، وأقاموا معسكرهم في السهل الممتد أمام باب السَّاهِرَة، حيث تساعد الطبيعة الجغرافية للمنطقة على سهولة الحركة واستعمال آلات الحصار الكبيرة. ووقع عبء الدفاع عن هذه الجهة من الأسوار على سكان المدينة وبعض رجال الحامية وغيرهم من العساكر الذين لجأوا إلى المدينة.

ودام حصار الفرنجة للقدس ما يقرب من أربعين يوماً استعمل المهاجمون خلالها مختلف أنواع أسلحة الحصار التي كانت معهم أو التي استطاعوا بناءها، وفشلت معظم محاولاتهم لاختراق دفاعات سكان المدينة. وفي النهاية تمكن الفرنجة من بناء برجين خشبيين كبيرين وعاليين بأخشاب ومواد أخرى قَدَّمَها البحارة الجنَويّون الماهرون الذين انضموا إلى معسكر غودفري، وبذلك تمكنوا من التغلب على مقاومة المدافعين عن الأسوار. أما جماعة ريموند الذين كانوا في الجهة الجنوبية فقد استعملوا أولاً السَّلالم لتسلق الأسوار دون طائل، فقاموا بدورهم ببناء برج خشبي[٤]. ودافع سُكَّان القدس، من الرجال والنساء، عن السُّور الشمالي للمدينة دفاعاً مستميتاً، واستعملوا بدورهم كل ما لديهم من آلات حرب ومواد عسكرية تمكنهم من ابعاد المهاجمين عن آسوارها. وقد وصف احد المصادر الفرنجية المعاصرة القتال عند السّور الشمالي وما كان يقوم المدافعون به وصفاً دقيقاً، فقال:

«كان على المهاجمين غالباً أن يتصدوا للإمدادات (التي كانت تصل من

---

(٤) كان استعمال الأبراج الخشبية من أهم آلات الحصار التي استخدمها الفرنجة في عملياتهم العسكرية خاصة حصار المدن وقد استخدمت في غالبية أعمال الحصار الناجحة التي قاموا بها.

أجزاء المدينة الأخرى) للمدافعين وفي ذات الوقت أن يطلقوا المنجنيقات وغيرها من الآلات، ويحفروا الأنفاق تحت الأسوار، آملين أن الجوع واليأس سيجبر المدافعين على الاستسلام. ومع ذلك فقد لجأ المسلمون لحماية أسوارهم إلى تعليق أكياس كبيرة مملوءة بالقش وغيره من المواد، وتعليق السجاجيد والأخشاب الطويلة والفرش المحشوة بالحرير، (لاضعاف فاعلية حجارة المنجنيقات على الأسوار) ومع ذلك فقد استمر الفرنجة بضرب الأسوار بقوة»[٥].

وتمكن المدافعون باستعمال هذه الأساليب من إفْشَال كل المحاولات الفرنجية بإحداث فجوة في الأسوار أو تسلُّقها أو حتى الإقتراب منها، لكن عندما انتهى الفرنجة من بناء الأبراج التي لم تكن من الآلات المألوفة في حروب المنطقة، تمكنوا من تسلق الأسوار الشمالية ودخلوا المدنية بالقوة.

وفي يوم الجمعة، ١٥ تموز ١٠٩٩م، وعند وقت الظهيرة، تمكن غُودفري ومن معه من الفرنجة المتمركزين في البرج الكبير من شَقِّ طريقهم إلى أعلى السور الشمالي بين برج اللَّقْلَقْ وباب السَّاهرة، وهرب المدافعون إلى داخل المدينة عبر الطرق الضيقة، واندفع الفرنجة إلى داخل المدنية يلاحقون الهاربين من المدافعين[٦]، وتبع ذلك مذبحة لم تشهد المدينة لها مثيلاً في تاريخها الطويل، إذ قتل الفرنجة المندفعون نتيجة نجاحهم في الاستيلاء على المدينة المقدسة كل من وجدوه في طريقهم من أهلها من الرجال والنساء والأطفال، وفي الشوارع والطرق والبيوت التي دخلوها وقضوا على من فيها.

---

(٥) Roland Finucane, *Soldiers of the Faith*. London and Melbourne, J.M. Dent Sons Ltd, 1983 p. 96-97, based on William of Tyre's narrative, *History*, Vol. 1, p. 362.

(٦) Fulcher, *Expedition*, p. 121; William of Tyre, *History* Vol. 1, p. 370 ff.

والتجأ قسم كبير من الناس إلى ساحة الحرم الشريف يقدر عددهم بحوالي عشرة آلاف انسان، على أمل أن تمنع حرمة المكان من قتلهم كما كان يحصل في الماضي القريب، لكن جموع الفرنجة المنتصرة لاحقتهم إلى هناك وقتلت معظمهم[٧]، ولم يسلم من سُكّان المدينة الذين تقدر المصادر عددهم وقت الحصار بين ستين وسبعين ألف شخص الاّ أعداداً قليلة. وكان من بين الجماعات التي سلّمت الحامية الفاطمية التي كانت تتمركز في برج داود الحصين، وكل من تمكن من الهرب إلى هذا المكان قبل وصول الفرنجة اليه، فكان ذلك نتيجة اتفاق بين ريموند الصنجيلي الذي كان يحاصر المدينة من هذه الجهة وبين افتخار الدولة والي المدينة وقائد الحامية، وبموجب هذا الاتفاق سَلَّم الوالي البرج إلى الأمير المذكور مقابل السماح له بمغادرة المدينة هو ومن معه بأمان وحماية إلى عسقلان ومصر[٨]. ويضاف إلى ذلك ان الفرنجة أسروا بعض وجهاء المدينة وعلمائها على آمل أن يقوم المسلمون بفدائهم بمبالغ كبيرة من المال وقصة الشيخ عبد السلام الانصاري، التي يوردها مجير الدين العليمي، خير مثال على ذلك، فعندما عرف الفرنجة أنه من العلماء أسروه وداروا به فيما بعد في مختلف أنحاء فلسطين ليفتدى بمبلغ ألف دينار، ولما لم يدفع أحد من المسلمين المبلغ الذي قرره الفرنجة، قتلوه كما قاموا بقتل عالم آخر هو عبد الجبار بن أحمد الاصبهاني، وكل منهما كان

---

(٧) Fulcher, *Expedition*, p. 121-122.

أما المصادر العربية فتذكر أن حوالي مئة ألف قتلوا في ساحة المسجد الأقصى والحرم الشريف. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠ ص ٢٨٣.

المقريزي، اتعاظ، ج٣، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٢٣؛ أما ابن القلانسي فلا يذكر رقماً محدداً لاعداد القتلى ولكنه يقول «وانهزم بعض أهله إلى المحراب وقتل خلق كثير، وجمع اليهود في الكنيسة واحرقوها عليهم وتسلموا المحراب بالأمان في الثاني والعشرين من شعبان من السنة» ص ١٣٧.

(٨) Fulcher, *Expedition*, p. 124; See also Runciman, *History*, Vol. 1, p. 286.

من علماء الشافعية الذين قـدموا إلى القدس خلال الفترة التركمانيـة واستقروا فيها(٩).

واستخدم الفرنجة من أُسر من سكان المدينـة في تنظيف شوارعها وطرقها وساحة الحرم الشريف من عشرات الآلاف مـن جثث القتلى التي إمّا جمعت على شكل أكوام ثـم أحرقت أو رميت من فوق الأسوار إلى الخارج، وعندما زار المؤرخ الفرنجـي فولشر مدينة القـدس مع الأمير بلدوين الأول صـاحب الرها بعد ذلك بعِدّة أشهر، كانت رائحة الجثث البشرية المتعفنة لا تزال تملأ جو المدينة. يقـول فولشر: «يا لها من رائحـة كريهة جداً كانـت حول أسوار المدينة من الداخل والخارج التي كانـت تنبعث من الأجسام البشرية المتعفنة للمسلمين الذيـن قتلهم رفاقنا في وقـت استيلائهم على المدينـة، والملقاة في الأماكن التي اصطادوهم بها» (١٠).

وهكذا حَقّقَت الحملة الفرنجية الأولى هدفها الرئيسي بالسيطرة على مدينة القدس واخضاعهـا لسيطرة العالم المسيحي، واعتبر يـوم الخامس عشر من تموز عيداً (وطنياً) كانت تحتفل فيه مملكة بيت المقدس الفرنجية احتفالاً كبيراً كل سنة (١١).

وفي اليوم التـالي لنصرهم والمذبحة التـي قضت على معظم سكـان المدينة المقدسـة، قام الفـرنجة، الـرهبان والامـراء والعامـة، بالتـوجه وهـم يُغَنّون ويقدمـون القرابين والهبات إلى كنيسـة القيامة وقبـة الصّخرة (المعبد بـالنسبة لهم) للزيـارة وشكر الـرب الذي سلـم اليهم المدينـة (١٢). وإبتدأت بـذلك

---

(٩) الأنس الجليل، ج١، ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(١٠) فولشر، الحملة، ص ١٣٢.،

(١١) أنظر فيمايلي القسم الخاص من هـذا البحث والمتعلق بالأعياد والاحتفالات التـي كانت تقام في القدس خلال الفترة الفرنجية ص ٦٧.

(١٢) فولشر، الحملة ص ١٣٢.

مرحلة جديدة من تاريخ مدينة القدس الطويل والتي امتدت هذه المرة إلى حوالي تسعة عقود.

نتيجة لهذه التطورات التي ذكرنا، أفرغت مدينة القدس من كل سُكَّانها السابقين، فالمسلمون قتل معظمهم كما رأينا وطرد من تبقى منهم ولم يسمح لأحدٍ من المسلمين بعد بسكناها. وكذلك كان مصير اليهود، أما النصارى المحليون فقد غادروا المدينة كما ذكرنا، قبل بدء الحصار، ولم يسمح الفرنجة بعودتهم اليها، ولم يبق في القدس الاّ المحتلين الجدد من الفرنجة الذين استولوا على منازل المدينة وامتلكوها بما فيها من أثاث ومتاع، وتم هذا الاستيلاء طبقاً لما كان يعرف آنذاك «بقانون الإحتلال». ويصف لنا فولشر كيف تم هذا الاستيلاء:

«كانوا (أي الفرنجة) يدخلون بيوت أهل المدينة ويستولون على كل ما يجدونه فيها، وتم هذا الأمر بطريقة أن أول من كان يدخل إلى بيت من البيوت في القدس، (ويترك أمام بابه قطعة من سلاحه أو أي شيء آخر يدل على أن بداخله شخصاً ما) يصبح مالكاً لهذا البيت ولا يتحدى هذا الأمر أي من الفرنج الآخرين، وكان (المحتل الفرنجي) يشغل البيت أو القصر ويصبح مالكه وكل ما يجده فيه كما لو كان هو مالكه الحقيقي، وكان هنالك اتفاق متبادل بين الجميع على حق الملكية هذا وبهذه الطريقة صار كثير من فقراء (الفرنجة) أغنياء» [١٢].

---

(١٢) فولشر، الحملة ص ١٢٣.

٤ - القدس في ظل الاحتلال الفرنجي (١٠٩٩ - ١١٨٧م) :

ابتدأ الاحتلال الفرنجي لمدينة القدس في سنة ١٠٩٩م مرحلة جديدة من تاريخها الطويل والعريق امتدت فترة ثمان وثمانين سنة . وبالرغم من قصر هذه الفترة في سجلّ المدينة المقدسة إلاّ أنّه حدث أثناءها عدّة تغيرات في بُنَى المدينة المختلفة ، ومن بين التغيرات التي حصلت أثناء فترة السيطرة الفرنجية بعض التغَيُّر في عمران المدينة وفي نوع الأبنية واستخداماتها إضافة إلى تغيرات سُكّانية واجتماعية واقتصادية جَذْرِيَّة . وسنحاول في الفقرات التالية توضيح هذه التغيرات بصورة مناسبة .

ا- العمران والسكان

كانت التغيرات في عمران المدينة المقدسة في الفترة الفرنجية كبيرة نسبياً ، وتمثلت في ناحيتين رئيسيتين : الأولى تغير دَوْر بعض العمائر والأبنية الإسلامية التي كانت قائمة حتى تخدم أغراضاً جديدة ، والثانية إقامة أبنية جديدة في مختلف أحياء المدينة لتلائم أو تلبي حاجات السُكّان الجدد الذين استوطنوها بصورة تدريجية ، وعلى الرغم من هذه التغيرات التي تمت في هذه الفترة ، فإنّ ما استحدث في القدس من عمائر وأبنية جديدة لم يُشَوِّه صورة المدينة المقدسة بل أَضَافَ عمائر ومرافق جديدة زادت في جمال المدينة ، إذ مَلأَت الأبنية الجديدة كثيراً من الأجزاء الخالية من العمران داخل أسوار المدينة .

وقد تأَثّرَت أَسْوار مدينة القدس والتحصينات التابعة لها مثل الأبراج نتيجة للحصار الطويل والعمليات العسكرية التي رافقته وخَرِبَت أو تهدَّمت بعض المواقع منها ، وقد أصلح ما لحق بهذه التحصينات من خراب بصورة تدريجية فيما بعد ، كما رُممت المواقع الضعيفة من الأسوار والأبراج ، وتشير الحفريات الأثرية إلى بعض الإضافات في التحصينات هنا وهناك ،

وكان أبرز الإضافات في تحصينات الأسوار بناء بُرج تَنْكرِد (Toncred) [١]، نسبة إلى أحد الأمراء الذين شاركوا في الحملة الأولى، في الزاوية الجنوبية الغربية من الأسوار في ذلك الجانب من «حي البَطْرِيَرْك» وتحصينات المنطقة التي عرفت آنذاك بإسم القديسة مريم المَجْدليَّة في الزاوية الشمالية الشرقية من الأسوار، قرب المنطقة التي دَخَل الفرنجة منها إلى المدينة والتي ربما كانت أضعف المناطق تحصينا في كل أسوار المدينة [٢].

وحُوِّلت المدرسة الشَّافعية إلى كنيسة واطلق عليها إسم كنيسة القديسة حَنّه (أن) (Saint. Anne) وهو الإسم الذي كانت تحمله قبل أن تتحول إلى مدرسة في الفترة السابقة [٣] . أما المسجد الأقصى فقد صار المَقرّ الرَّسْمي لملوك الفرنجة حتى تم بناء قصرٍ ملكي جديد بجانب برج داود على الطرف الشرقي للبوابة التي كانت تحمل ذات الإسم، وعندها أُعْطِيَ المسجد لجماعة فرسان الدَّاويَّة التي تأسست حديثاً ليكون مقراً لهم، ثم صار المقر المركزي لكُلّ فرسان الدَّاويّة والمُشْرِف على كلّ فروع هذه الهيئة العسكرية الدينية في الشرق، فأضافوا اليه أبنية جديدة في الداخل والخارج ليتناسب البناء

---

(١) كان تَنْكَرِد أحد الأُمراء الصِّغار الذين شاركوا في فتح مدينة القدس، وكان له دورٌ في مذبحة ساحة الحرم الشريف، وهو الذي سيطر بقواته القليلة على منطقة الجَلِيل كلها وأقام فيها إمارة تابعة لمملكة بيت المقدس وصار أول أمير لها.

(٢) يبدو أن هذه المنطقة (أنظر الخارطة) كانت خالية من السُّكّان وقت الإحتلال فحصنت وتركت كذلك.

(٣) يذكر أبو الفداء، المؤرخ الأيوبي من القرن الثامن الهجري، بأن بناية صند حنة (سانت آن) كانت كنيسة قبل الإسلام ثم صارت مدرسة في الفترة قبل ١٠٩٩م، المختصر في أخبار البشر. بيروت، لا . ت، ج ٣ ص ٨٣.

وحاجاتهم الحياتية اليومية الدائمة، واتخذوا من الأقبية تحت أرض المسجد إسطبلاً لخيولهم الكثيرة [٤]، أما الأبنية التي كانت في الأرض التي مُنِحَت لتجار مدينة أمالفي الايطالية في أواخر الدولة الفاطمية فقد استمرت في تقديم خدماتها للحجاج القادمين من أوروبا، ثم صارت بَدوْرِها مقراً رئيساً ومركزياً لفرسان الإسبتارية الذين تحولوا تدريجيا إلى هيئة عسكرية كالدَّاويّة، وكان لهم دور في حروب الفرنجة مع المسلمين كبير.

ومن إضَافات البناء الأُخرى التي تمت داخل أَسوار مدينة القدس الفَنادِق التي بنيت لتأوي حجاج النصارى التابعين لمختلف الدول الأوروبية والشرقية في مختلف أنحاء المدينة، والكنائس والأَديرة للرُّهْبان والراهبات والتي تركز معظمها في «حي البَطْرِيَرك» وحي الأَرمن والأَحياء الجديدة التي أنشئت فيما بعد مثل حي القديسة مريم المجدليّة في حارة النصارى الشرقيين الجديدة، هذا وترد إشارة إلى بناء أَسواق جديدة مثل السوق الذي يتفرع من طريق الواد باتجاه المسجد الأَقصى والذي عرف فيما بعد بسوق القَطَّانِين [٥]، بل ربما كان يعرف بذلك الاسم في الفترة السابقة.

وتغيرت بعض أسماء أَبواب المدينة وأسماء شوارعها وبعض الأَماكن فيها، وأطلق عليها أَسماء جديدة خاصةً إذا كانت الأَسماء القديمة صعبة النطق على الناطقين باللاتينية [٦].

---

(٤) تذكر كتب الرحلات الأوروبية ذلك صراحة.

أما الاسبتارية فقد كانت اسطبلات خيولهم تقع خارج باب القديس اسطفان.

(٥) يذكر بيرغوين Burgoyne أن الفرنجة بنوا سوقاً كبيراً يتفرع من ذلك الجزء من طريق الواد الذي كان يعرف في الفترة الفرنجية بشارع الفرائين وهو الذي عرف في الفترة المملوكية بسوق القَطَّانين.

Mamluk Jerusalem. World of Islam festival trust, London, 1987, p. 80 col. 2.

(٦) لا نستطيع أن نُحَدِّد بدقة مدى التغير في الأسماء لأنه لا يتوافر لدينا من الفترة السابقة، خاصة بالنسبة للشوارع والخطط الداخلية أية أسماء، أمّا الفترات التالية فربما كان بعضها يشير إلى أسماء سابقة للاحتلال الفرنجي وربما للفترات التالية.

أما التَغيرُّات السياسية والاجتماعيَّة في مدينة القدس في هذه الفترة فقد كانت جَذْريَّة فبدلاً من المسلمين والنصارى المحليين واليهود الذين كانوا يُكَوِّنون سكَّان المدينة في السابق، صار سكان المدينة الجُدُد من الفرنجة اللاَّتين من مختلف أنحاء أوروبا – خاصة الغربية – ومن النصارى الشرقيين الذي استقدمهم الفرنجة من المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن (من شرق الأردن) ومن أقليَّات نصرانية شرقية متعددة خاصة الأرمن والكُرْج (سكان جورجيا). وأقيمت أنظمة سياسية وقانونية وإدارية جديدة لتحكم حياة هذه الفئات المختلفة التي تعيش في مركز المملكة الفرنجية، وتغير التنظيم الإجتماعي للمدينة المقدسة والمؤسسات والحياة اليومية فيها، كما حدث تغيرٌ أساسي في بعض أعيادها واحتفالاتها. هذه هي الجوانب من تاريخ القدس التي سيركز البحث على ملامحها الأساسية فيما يلي:

توطين النَّاس في المدينة من جديد:

أُخْلِيَتْ مدينة القدس في تموز ١٠٩٩م، عن طريق القتل والطرد، من كل سُكّانها السابقين، وحَلّ مَحلّهُم الفرنجة الذين شاركوا في الحملة التي أدت إلى الإستيلاء عليها، والذين احتلوا مساكنها وبيوتها واستولوا على كل ما وجدوه فيها من مالٍ وأثاثٍ ومتاع، لكن لم يتوطن في القدس من الذين شاركوا في احتلالها إلاَّ جزءاً صغيراً، ويرجع ذلك إلى عوامل عديدة كان أبرزها أن قسماً كبيراً ممن دخل المدينة فاتحاً غادرها بعد فترة إلى بلاده بعد أن حقق هدفه بالمشاركة في فتحها والقيام بالحَجِّ وزيارة الأَماكن المقدسة. وعاد معظم الفرنجة من الأمراء الذين غادروا فلسطين وعادوا إلى بلادهم او بلاد أخرى مثل ريموند الصنجيلي أو إلى مناطق أخرى كانت قد خضعت للفرنجة، وقسم ثالث غادر مدينة القدس إلى المدن السَّاحِلِيَّة أو الأرياف حيث كانت فرص الحصول على عيش ملائم أكثر توفراً، ولذلك فقد كانت

أعداد الذين استوطنوا في المدينة بصورة دائمة، طبقاً لما ذكره وليم الصوري في كتابه **تاريخ الأعمال**، قليلة جداً وكانوا موزعين في مختلف مناطق المدينة، وهؤلاء القلة عاشوا في السنوات الأولى التي تلت الاحتلال مباشرة في حالة من الخوف والذُّعْر الدائم :

« . . . وحتى داخل أسوار المدينة (وفي ذلك الوقت لم يكن بأيدي الفرنج من المدن سوى القدس والرملة ويافا) وداخل جدران المنازل، لم يكن هنالك من مكان يستطيع (الإفرنج) الرّكون فيه باطمئنان وأمان، فقد كان السكّان (الفرنجة) قلة ومبعثرين (في أنحاء المدينة) . . . وكان (المسلمون) يقتحمون هذه المدن (شبه) المهجورة التي كان المستوطنون الفرنج يعيشون فيها في بيوت متباعدة، ويدخلون عليهم في بيوتهم ذاتها، ونتج عن ذلك أن تخلىّ (الفرنج) عن الممتلكات التي أحرزوها سراً وعلانية، وبدأوا يعودون إلى بلادهم الأصلية» [٧].

ولم يكن فقدان الأمن هو الدافع الوحيد الذي أدّى إلى هجرة الفرنجة من القدس وإنما كان لظروف المدينة الاقتصادية أثر كبير في ذلك. فامكانية كَسْبِ الفرنجة الذين استوطنوا المدينة رزقهم في المدينة المقدسة كانت محدودة جداً، فقد كان هؤلاء الفرنجة في معظمهم من أصول فلاّحيّة أوروبية، وليس لديهم المهارات الحِرَفيّة التي تمكنهم من المساهمة بفعالية في الحياة الاقتصادية للمدينة والإندماج فيها، ذلك أنّ اقتصاد مدينة القدس كان على الاغلب لا يعتمد على الزراعة وما يرتبط بها، وإنما تعتمد حياة سكانها أساساً على الحِرَف اليَدَويّة والتي يكثر طلب الحاج الزائر عليها والخدمات المختلفة التي يتطلبها الحاجّ والزوار الذين يَفِدُون إلى المدينة كل سنة في موسم الحج والزيارة من كل أنحاء العالم، ولم يكن غالبية السكان الجدد ممن لديهم المعرفة أو الخبرة في أي منها [٨].

---

(٧) وليم الصوري، تاريخ الاعمال، ج ١ ص ٤٠٩ .

(٨) ارجع إلى مقال برافر .

ويبدو أن حركة الهجرة المُسْتَمِرَّة من مدينة القدس، بالرغم من قدوم جماعات جديدة كل سنة في موسم الحجّ، هي التي دفعت ملك المملكة الفرنجية إلى إصدار قرارٍ باجراء تعداد سنوي للسكان والمساكن في المدينة، وأنه إذا وجد أي مسكن لم يشغل من قبل صاحبه مدة سنة واحدة ويوم واحد، فإنّه يُستولى عليه، ويصبح للملك حق التصرف به كما يريد[٩]. ولكن هذا الإجراء لم يكن كافياً لتوطين الناس في القدس لتقديم الخدمات الضرورية التي كان يحتاج اليها من استقر من الناس فيها وآلاف الحجاج الذين كانوا يفدون سنوياً للحج وزيارة الأماكن المقدسة، ووجد الملك بلدوين الأول (١١١٠ - ١١١٨م)، كما يذكر المؤرخ وليم الصوري، «بأن المدينة المقدسة كانت خالية تقريباً من السكان إذ لم يكن فيها من الناس ما يكفي للأعمال والخدمات التي تحتاجها الدّولة الجديدة. وبالفعل فقد كان السُكّان من القلة بحيث لا يكفون، في حالة هجوم مفاجيء لعدو على المدينة، لحماية أبوابها والدفاع عن الأبراج والأسوار فيها»[١٠].

ولتصحيح هذا الخَلَلِ في توطين النَّاس في المدينة المقدسة، وجد الملك بلدوين الأول أنْ لا بُدّ له من الإستعانة بالنصارى المحليين في فلسطين وشرق الأردن، أما نصارى فلسطين من سكان المدينة فقد كانوا قد تفرقوا في الأرياف وفي المدن التجارية التي تقع على السَّاحل، ولذلك فقد قَرَّر الملك

---

(٩) وليم الصوري، تاريخ الاعمال، ج ١ ص ٤٠٩.

(١٠) وليم الصوري، تاريخ الاعمال، ج ١ ص ٥٠٧، ويدل هذا الأمر على أنّ المملكة اللاتينية لم تتمكن من المحافظة على الأمن في المناطق التي خضعت لها خلال العقدين الأولين بعد تأسيسها فسكان القدس التي صارت عاصمة المملكة، كانوا قلة متناثرة ولم يشكلوا إلاّ جزءاً من عدد سكانها في الأحوال العادية والذي يقارب عشرة آلاف نسمة، انظر Josiah C. Russel, "The population of the Crusader States", in *A history of the Crusades*, Vol. 5 : *The impact of the Crusades on the Near East*, ed. Norman P. Zacour and Harry W. Hazard, Madison, University of Wisconsin Press 1985, table 2, p. 306.

إحْضَار نصارى من المناطق الواقعة إلى الشرق من نهر الأردن .

وكان الملك بلدوين الأول قد تَعرّف على أوضاع هذه المنطقة عن كثب، وذلك أثناء الحملات التي قادها إلى جنوب شرق الأردن، وتعرف على أوضاع النصارى فيها [١١]، ولذلك فقد أرسل إلى أولئك النَّصَارى طالباً منهم القدوم لسكنى المدينة وواعداً اياهم بمنازل خاصة بهم وحياة أفضل من تلك التي كانوا يعيشونها في قُرى وأرياف المنطقة هناك، ويبدو أنهم قبلوا هذا العرض إذ وفدت عليه بعد فترة قصيرة اعداد كبيرة منهم حاملين معهم زوجاتهم وأبنائهم وقطعان أغنامهم وماشيتهم وكل ما يملكون، كما جاءَ وإيَّاهم جماعات أُخرى ممن لم يوجه الملك اليهم الدعوة للقدوم. ومنح الملك لهذه الجماعات جزءاً كبيراً من مدينة القدس ووهبهم المساكن القائمة فيه [١٢]. وكان هذا الجزء يقع بمحاذاة السُّور الشمالي، أضعف جوانب المدينة تحصينا وأكثرها تعرضا للخَطر، وعُرِفَ هذا الجزء في الفترة الفرنجية باسم حَيّ (حارة) النصارى السوريين تمييزا لهم عن حارة البطريرك التي استوطنها الفرنجة وحدهم .

وهكذا ما أنْ جاءت نهاية العقد الثالث من اتخاذ مدينة القدس عاصمة للمملكة التي أقامها الفرنجة في بلاد الشام حتى كان قسمان كبيران من المدينة يعجان بالسُّكَّان من اللاّتين والنصارى المحليين، الأول «حي البطريرك»، الذي استوطن فيه الأوروبيون المحتلون وحيّ النصارى الشاميين الذين استقدمهم الفرنجة للاستفادة منهم في حماية المدينة وفي توفير الخدمات الضرورية التي تحتاج اليها. وقد بَيَّنَّا حُدود الحي الأول (البطريرك) التي تحددت منذ العقد السابع من القرن الحادي عشر الميلادي، في ما تقدم

(١١) المصدر ذاته .

(١٢) وليم الصوري، تاريخ الأعمال، ج ١ ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .

من بحث [١٣]، أما الحَيّ الثاني فقد شغل الأقسام داخل المدينة التاريخية التي تقع ضمن الحدود التالية :

كان الحد الخارجي لهذا الحي يمتد من باب القديس اسطفان (ستيفن) (باب العمود أو باب دمشق) في الجهة الشمالية من السُّور، ويمتد حتى الزاوية الشماليَّة الشرقيَّة منه حيث برج اللّقْلَق، والمنطقة التي دخل منها الفرنجة القدس ثم التحصينات الجديدة التي عرفت بتحصينات القديسة مريم المجدليّة، وتمتد الحدود الشرقية للحي من هذه الزاوية وتسير جنوباً مع الأسوار حتى تصل إلى باب جهنم يهوشوفات Jehoshaphat (باب أريحا سابقاً) الذي يقع خارج أسوار الحرم من الجهة الشمالية، أمّا الحد الداخلي فيبدأ من هذه البوّابة الأخيرة ويسير مع الشارع العام المسمى باسم هذه البوابة ويتجه غرباً حتى يلتقي مع شارع الإسبان (طريق الواد فيما بعد) ثم يسير مع هذا الشارع ويتجه نحو الشمال الغربي حتى يصل إلى باب القديس اسطفان، ويبدو أن كنيسة القديسة حَنّة لم تكن ضمن حدود هذا الحي إذ كانت كنيسة للاتين وبالتالي لم تخدم السكان من النصارى الشرقيين. ولذلك أقيمت فيه كنيسة القديسة مريم المجدلية لسُكّان الحَيّ الجديد من الأرثوذكس[١٤].

وبالإضافة إلى هذين الحَيينّ الكبيرين اللذين ضما اللاتين الأوروبين اتباع الكنيسة الكاثوليكية والارثوذكس الشرقيين اتباع الكنيسة الأرثوذكسية وفروعها الشرقية، فقد استوطنت في المدينة جماعات أخرى في أجزاء أخرى

---

(١٣) أنظر ص ٢٦ - ٢٧ من هذه الدراسة.

(١٤) أنظر خارطة القدس في كتاب : Michel Join-Lambert, *Jerusalem*, trans. Charlotte Haldane, Elek Books, London, 1966, p. 193.

منها» وذلك خلال القرن الثاني عشر الميلادي، فقد ازداد عدد رجال الدين الأرمن، والأرمن عامة، بالتدريج في القدس خلال هذه الفترة، واستقروا في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة حول كنيسة القدّيس جيمس الواقعة إلى الشرق من القصر الملكي الجديد وعرف هذا الحي داخل المدينة بحي الأرمن ولا يزال، واستقرت جماعات أخرى في بعض المناطق الخالية الأخرى في المدينة، وكان آخر هذه الجماعات من الألمان الذين أقاموا حياً خاصاً بهم. فعندما زار الألماني جون أف فورتزبرغ **John of Wurzburg** القدس في العقد السابع من القرن الثاني عشر شعر بخيبة أمل كبيرة لأنّه لم يجد أي مكان في المدينة المقدسة ينسب إلى الألمان أو يسمى باسمهم، بالرغم من أن مشاركتهم في الحملة الأولى التي نجحت في السيطرة على المدينة كانت كبيرة [١٥].

لكن بعد سنوات قليلة وجد في القدس شارع الألمان، وفندق وكنيسة خاصة بهم، أقيمت جميعاً إلى الشرق من شارع جبل صهيون الذي كان يصل إلى باب المدينة المعروف بذات الإسم [١٦] ويقع إلى الجنوب من شارع المعبد وطريق باب السلسلة والشمال من سوق الحلال ورتق الدباغين. ويذكر جون أف فورتزبرغ أيضاً وجود مجموعات قومية ودينية كانت تسكن المدينة المقدسة وكان لكل منها كنيستها وربما فندقها الذي يأوي اليه حجاجها:

---

(١٥) *Description of the Holy Land.* trans. Aubrey Stewart, PPTS, New York, AMS Press, 1971. Vol. V p. 40.

(١٦) John of Wurzburg, *Description*, p. 69.

«كـان (في القدس) اليـونـان والبلغـار واللاتين والألمان، والمجـريـون والإسكتلنـديـون والنـافـاريـون والبريطـانيـون والإنجليـز والفـرنـج والـروثنيايـون والبـوهيميـون والكرج والارمـن واليعـاقبـة والسوريـون والنساطرة والهنود والمصريون والأقباط . . . والموارنة وآخرون»[١٧].

وكان من نتائج إقامة مملكة الفرنجة في فلسطين وتمكنها من تثبيت نفوذها في المدن والأرياف المجاورة للقدس، والمحافظـة على الأمن على طريق الحاج الرئيسي الـذي يصل من يافـا الى الأماكن المقـدسة[١٨]، كان أن ازداد عـدد السكان في المدينة بالتدريج بحيث بلغ عـددهم في أواسط العقد التاسع من القرن الثاني عشر الميلادي عشرة آلاف نسمـة يقيمون بصفة دائمة[١٩]، لكن هذه الزيـادة المستمرة أدت، كما يبدو إلى بروز مشكلـة أساسية وهي تـزويد هذه الاعداد الكبيرة مـن السكان بحاجتهم من المواد الغذائيـة، خاصة وأن كل المواد التي كانت تدخل المدينة كـانت تدفع ضريبة للسلطات الرسمية. وهذا الوضع هو الذي دفع بطريرك المدينـة المقدسة اللاتيني آنذاك إلى تقديم طلب إلى الملك بلدوين الثاني في سنة ١١٢٠م يتمنى فيه الغاء الضريبة التي تدفـع على المواد الغذائية التـي تجلب إلى المدينة، فـأصدر الملك، استجـابة لطلب صاحب السلطة الفعلية في أكبر حي في المدينة، الأمر التالي :

---

(١٧) المصدر ذاته ص ٤١ .

(١٨) كان الطريق بين يافا والقدس والـذي يمر بعمواس وبيت نـوبة أكثر الطرق استعمالاً مـن قبل الحاج من أوروبـا، وكان هـذا الطريق يتعـرض لغارات العـرب والمسلمين في عسقلان والمنـاطق الجنوبية من فلسطين، وكـان للمحافظة على الأمـن على هذا الطريق دور كبير في قيـام المؤسسة العسكرية الدينية التي عرفت باسم (الدّاويّة).

(١٩) أنظر الحاشية رقم (١٠) أعلاه ص٥١ .

«أنا بلدوين الثاني، . . . استجابة مني لصلوات أبينا البطريرك جورمون Gaurmund واستجابة مني لرجال الدين وأبرشية Chapter مدينة القدس المقدسة، آمر وبموافقة من النبلاء (في المملكة) الآن وفي المستقبل بالغاء الضرائب والرسوم التي كانت تجبى عند باب المدينة من الذين يجلبون الحبوب والخضروات . . . وفي الحقيقة فقد كانت هذه الرسوم عبئاً (على الناس) وضارة (بالمصلحة) ليس فقط بالنسبة للذين يأتون لزيارة كنيسة القيامة وإنما أيضاً لكل سكان المدينة المقدسة، ولذلك فإنني أسامح كل من يرغب بإحضار الحبوب والخضروات والفاصوليا والعدس والبازيلا إلى داخل أبواب القدس من دفع أي شيء، وستكون لهم الحرية بالمجيء اليها والخروج منها وان يبيعوا دون أي اعاقة في أي مكان ولأي كان سواء أكان (البائعون) من النصارى أو المسلمين»[٢٠].

وفي مجتمع مدينة القدس هذا، المتنوع الاجناس والمذاهب الدينية المسيحية كان يمكن التمييز بين الفئات المختلفة التي استوطنت المدينة بسهولة، وذلك من طريقة لباسها والاسلوب الذي كان رجالها يربون لحاهم. فالحاج المجهول الذي زار المدينة المقدسة قبل أقل من سنة من استيلاء صلاح الدين عليها سنة ١١٨٧م، والذي دون اخبار زيارته هذه فيما بعد، يقدم لنا وصفاً دقيقاً لمعظم الجماعات الدينية التي كانت تسكن المدينة، بحيث كان يستطيع أي متجول في شوارعها وأحيائها أن يميز بين مختلف الجنسيات والفئات الدينية التي كانت فيها، ونستطيع أن نتبين من ملاحظاته الفئات الرئيسية وملامحها المميزة الخاصة بها كالتالي :

---

(٢٠) أنظر : : *Cartulaire Sepulchre*, 1849, p. 83-85 as translated in Peters, *Jerusalem* : *The Holy City in the eyes of the Chroniclers* . . . . . . Princeton, Princeton University Press, 1985, p. 306.

«كـان (الـلاتين أو الفرنجـة) متمـرسين في القتـال(ويبدو ذلـك مـن ملامحهم) وكانت رؤوسهم عارية من أي لباس، والوحيدين (من بين رجال المدينة) الذين يحلقون لحاهم.

أما اليونـانيون فأذكياء ومهرة، ويـربون شعر لحاهم طويـلا وباسلوب معين خاص بهم، لكنهم لم يكونوا متمرسين في استعمال الاسلحة.

ويختلف النصارى السـوريون عن كل الجماعات الأخرى (التـي كانت تسكن المدينة) فهم عـديمو الفائدة في الحرب من ناحية، ومـن ناحية أخرى كـانوا على الأغلـب لا يتركون لحاهم تنمـو طويلـة كاليـونانيين وإنما يقصونها بأسلوب معين، وكانوا (يخضعون) وتابعين في كل مكان للشعوب الأخرى، وكـانوا يتحدثون اللغـة العربية، وكانـوا مع ذلك يشبهون اليونانيين في جوانب أخرى من حياتهم.

وأما الأرمن الذين كان عددهم كبيراً في المدينة آنذاك [٢١]، فيختلفون في كثير من المجالات عـن اللاتين وعن اليونانيين، فلهـم لغتهـم الخاصة بهم، كما كان لديهم بعض الخبرة في استعمال الاسلحة.

والكرج (سكـان جورجيا الـواقعة بجانـب أرمينيا) فلهم أيضـاً لغتهـم الخاصة بهم، وأسلوب خاص في تربية لحاهم وترتيبها، ويلبسون نوعاً خاصاً من القبعـات، فقد كانوا يتركون شعورهـم تطول كثيراً ويلبسون قبعات مكعبة وطويلة.

وجميع الكرج، من رجـال الدين ومن الرجال العـاديين، كانوا يلبسون

(٢١) يظهر ذلك من الاشارات التي ترد في المصادر العربية التي عالجت فتح صـلاح الدين للقدس واعداد الأرمن التي سـومحت من دفع الإتاوة لشفاعة أمراء الجزيـرة الفراتية بهم على أساس أنهم من رعاياهم.

الـ Tonsure حيث يكون مـدوراً عند الفئة الأولى ويكون مـربعاً عند الفئة الثانية . . . ويقلدون اليونانيين في كل ما عدا ذلك» (٢٢).

هذا ولا تزودنا المصـادر المعاصرة بأوصاف مشابهة أو موازيـة للباس نساء مختلف الفئات المذكورة التي كانت تقطن في مدينة القدس ، ويبدو أن طبيعة الحيـاة الاجتماعية لهن كـان لها أثـر في ذلك ، لكـن لا بـد مـن وجود بعـض الاختلافـات نظراً لاختـلاف الجذور التـاريخيـة والبيئية والعـادات والتقاليـد الاجتماعية للفئات والجماعات المختلفة التي استوطنت في المدينة التاريخية .

---

(٢٢) *Anonymous pilgrims*, in *PPTS*. New York, AMS Press, 1971, (Rep. of 1894 ed.) Vol. 4, p. 27-29.

٢ - المجتمع والحياة الاجتماعية

كـان لمدينة القـدس، قبل احتـلال الفـرنجة لها سنـة ١٠٩٩م، تكويـن اجتماعي واداري مثل أي مدينة إسلاميـة أخرى في بلاد الشام تماثلها في عدد السكان، ومع ذلك فقد كانت تختلف عن المدن الاسلامية الأخرى في بعض جوانب تكوينهـا ونظام حياتها نظراً لكونها مدينة مقدسـة تضم فئات بشرية تمثل أتبـاع الديانات السماويـة الثلاث. وأوجد هذا التعـدد والاختلاف بين سكان المدينة نشاطات دينية واجتماعية مميزة وخاصة بها، وبصورة عامة فقد كان مجتمع القدس في القرن الحادي عشر الميلادي يتكون من فئتين رئيسيتين هما فئة الخاصة وفئة العـامة، فأما فئة الخاصة فقد كانـت تتكون من الوالي، الذي كان على الأغلب قائد الحامية العسكرية، وكبار رجال الإدارة في المدينة وأفراد الحامية العسكرية الفاطمية التي كـانت تتكون من عناصر مختلطة من الأتـراك (الفرسـان) والسودان والبربـر (الرجـالة) وعنـاصر أخرى، أو مـن الاتراك والتركمان في فترة حكـم هؤلاء للمدينة والتـي تحدثنا عنها سـابقا [١].

وأما عـامة النـاس من سكـان المدينة فقد كـانوا يتكـونون مـن العلماء وكبار التجار الذين كانوا يشكلون القيادة لفئـات العامة وحلقة الوصل بينها وبين فئـات الخاصـة، واصحـاب المهـن والحرف المختلفـة، الـرفيعـة منهـا أو الوضيعة، كما يظهر ذلـك واضحاً من الاسواق المتخصصة بأنـواع معينة من السلع أو المنتوجات والأعمال، التي يـذكرها ناصر خسرو في رحلته [٢]، وغير هؤلاء مـن فئات العامـة الذين كـانوا يقدمـون الخدمات المختلفة التـي كان سكان المدينة يحتاجونها.

---

(١) ينطبق هذا الـوصف على ممثلي السلطـة في المدينة، وكـان للنصارى واليهـود فئاتها الخاصـة على الأغلب والتي تتمثل برؤسائها خاصة بطريرك المدينة.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامة. ص ٥٤ - ٥٧.

وتركزت ادارة المدينة في الفترة السابقة للاحتلال الفرنجي حول الوالي، ممثل الخليفة الفاطمي أو السلطان السلجوقي، في القدس والمناطق التي كانت تتبعها، والذي كان في الوقت ذاته قائد الحامية العسكرية في المدينة، وكان يساعد الوالي في ادارة المدينة والولاية موظفون خاصون يمثلون الدواوين المركزية الرئيسية، وكان القاضي أبرز هؤلاء الموظفين في أي مدينة من المدن الكبيرة التي كانت مراكز لوحدات إدارية خاصة، وكان يتبعه الشهود والكتاب الذين كانوا مسؤولين عن الأعمال الكتابية التي يتطلبها عمل القضاء والأحكام. وكان القاضي يدير شؤون القضاء في المدينة والمناطق التي حددها عهد ولايته طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، الفقه الشيعي الإسماعيلي بالنسبة لقضاء الدولة الفاطمية، والفقه السني (الشافعي) بالنسبة لقضاة التركمان - الأتراك، ويخضع للقاضي كل المسلمين في المدينة وما يقع من خصومات وجنايات بينهم، ما عدا المظالم التي كانت من اختصاص الوالي الذي كان يقوم بحلها على الأغلب في مجالس خاصة تعقد بحضور القاضي ليسترشد الوالي برأيه عند الحاجة، أما أهل الكتاب من النصارى واليهود فقد كانت تحكمهم تشريعاتهم الخاصة بهم ومن قبل قضاتهم، ما عدا الأمور التي يكون أحد المسلمين طرفاً فيها مع أحد أهل الكتاب، فترجع القضية عندئذ إلى القاضي المسلم. وإضافة إلى ما تقدم فقد كان في المدينة مؤسسات الشرطة والحسبة، ولكل صاحبها الخاص بها (وربما جمعت مع بعض) والقاضي وأعوان تابعين له ورجال بعددٍ مناسب للقيام بإدارة الشؤون الخاصة بهم في المدينة [٣].

---

(٣) تمثل هذه المؤسسات التي ذكرت المؤسسات التي كانت عادة في مركز ولاية متوسطة الحجم، وقد كانت القدس مركز ولاية من هذا النوع في الفترة الفاطمية والفترة التركمانية، وتذكر بعض هذه المؤسسات في المصادر العربية أما البعض الآخر فيمكن استخلاصه من معلومات متأخرة، وخير مثال على ذلك وجود المحتسب في الادارة الفرنجية للمدنية والذي استخدم بلفظ Methessep.

وبعد احتلال الفرنجة للقدس في سنة ١٠٩٩م تغيرت كل هذه البنى الاجتماعية والادارية في المدينة وحلت محلها بنى جديدة تتناسب وحياة الجماعات البشرية المختلفة ذات الأصول الاجتماعية والثقافية المختلفة التي استوطنت في المدينة العريقة .

كان السكان الجدد في القدس ، في بداية سيطرة الفرنجة عليها ، من الأصول البشرية اللاتينية التي شاركت في الحملة الفرنجية ، وكان هؤلاء يتكونون من الفئات الاجتماعية التالية :

رجال الدين ، الفئات الخاصة وفئات العامة . وشكل رجال الدين ، برئاستهم المتمثلة ببطريرك اللاتين ، فئة كبيرة كان لها امتيازاتها الواسعة خاصة داخل مدينة القدس ، وكان لها دور كبير في حياة المدينة ، أما فئة الخاصة فكانت تتكون من الملك وخاصته وكبار النبلاء وتابعيهم والبارونات والفرسان ، واستوطن هؤلاء جميعاً في المدن [٤] ، خاصة مدينة القدس ، ومنهم كانت تتكون الطبقة الحاكمة في مملكة بيت المقدس الفرنجية والقوة المقاتلة الأساسية فيها ، وتكونت فئات العامة من بقية الجماعات التي شاركت في الحملة والتي كانت على الأغلب من فئات الفلاحين الأوروبين الذين دفعهم الحماس إلى مشاركة الفئات الأولى في التوجه إلى فلسطين ، يذكر ج . براقر J. prawer" علينا أن نبحث بين هؤلاء Pedites الأحرار الذين صاروا كذلك نتيجة للمشاركة في الحملة الصليبية لمعرفة العناصر التي شكلت فيما بعد طبقة البرجوازية »[٥](أو الطبقة المتوسطة في الإمارات الفرنجية) .

---

(٤) أنظر J. Prawer, "Social Classes in the Latin Kingdom" in *A history of the Crusades*, Vol. V, p. 130.

(٥) المصدر ذاته ، ص ١٤٥ .

ومن الواضح أن غالبية من استوطن في مدينة القدس في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، أي في بدايات تأسيس المملكة الفرنجية، كانوا يرجعون إلى أصول فلاحيَّة أوروبية، ولذلك فقد كانوا لا يملكون المؤهلات الفنية في المهن والحرف والخدمات التي كانت تشكل الأساس في اقتصاد المدينة. والحادثة التالية خير دليل على مستوى المهارات المهنية لهذه الجماعات، فأثناء حصار القدس الذي تم في حزيران – تموز ١٠٩٩ لم يتمكن الجيش الفرنجي في البداية «من بناء أبراج الحصار وغيرها من الآلات إلاّ بعد وصول بعض سفن الجنويين إلى ميناء يافا محمّلة بالمواد الضرورية لذلك، وبالعمال المهرة ذوي الخبرة في مهارات البناء المعقدة» (٦).

ولكنَّ استقرار هؤلاء الفلاحين في القدس وعيشهم فيها بصورة دائمة اضطرهم بصورة تدريجية إلى التكيّف مع أنماط الحياة الاقتصادية فيها ليتمكنوا من كسب معيشتهم، وبدأت تظهر في المدينة بالتدريج طبقة جديدة من السكان من غير النبلاء والأشراف والفرسان أصحاب الاقطاعات، وهي الطبقة الوسطى التي صار لها دور كبير في حياة المدينة الإقتصادية وغير ذلك من الفعاليات كالمشاركة في الدفاع عنها في حال تعرضها لهجوم خارجي.

وينسب ج. برافر بدايات ظهور أو تكون هذه الطبقة في مدينة القدس إلى الامتيازات التي منحها الملك بلدوين الأول إلى(Cannons) رجال الدين في كنيسة القيامة وبموجب هذه الامتيازات سمح الملك لرعيته من النبلاء والفرسان والطبقة المتوسطة بهبة مداخيلهم أو أجزاء منها إلى كنيسة القيامة (٧)، وكان ذلك أول مرة يرد فيها ذكرهم كفئة مميزة في البنية الاجتماعية للمدينة.

---

(٦) وليم الصوري، تاريخ الاعمال. ج ١ ص ٣٥٥.

(٧) J. Prawer, *Social Classes* ......, p. 145.

وتحددت مكـانة هـذه الفئـة الاجتماعية في التنظيـم الاجتماعـي للمدينـة المقدسـة بعدد من العـوامل منها كونها تعيـش داخل أسوار المدينـة ، و عدد أفرادهـا الكبير بالنسبـة لمجموع السكان مـن اللاتين ، والحرف والمهـن التي يعملون بها [٨]. ويذكر جان ريشـار في كتابه عن تاريخ المملكـة اللاتينية ما يلي : «من المحتمـل أنه كـان . . . للبرجوازيـة في مدينـة القدس دور غير عادي تقوم به ، وأنه لم يكن يفصل أعـلاهم (في المكانة الاجتماعية في طبقته) عن فئة صغار الفرسان الاّ القليل (من حيث البنية الاجتماعية للمدينة) [٩]، فقـد شكـل هذا الـدور الـذي كـانوا يقـومـون بـه في المدينة عصـب الحيـاة الاقتصادية فيهـا ، كما كانوا يقدمون للجيـش في وقت الحرب حوالي خمسمائة سرجندي (Sergeants) [١٠]، وهـو عدد كبير بـالنسبة لعـدد سكان المدينـة ككـل . وكان يُنظـم حيـاة هـذه الطبقة في المدينـة قـوانين خـاصّة بهم تقـوم بتنفيذها محاكـم خاصة هي ما عرف بمحـاكـم البراجسة (burgesses) نسبة اليهم ، والتي كان يخضع لسلطتها الفـرنجة من السكان فقط «لأن البراجسة (الطبقـة المتوسطـة) في القـدس لم يشملـوا اطـلاقـاً السكـان النصـارى المحليين» [١١].

وشكلت الهيئات العسكرية الدينيـة فئات اجتماعية متميزة من بين سكان المدينة فقد كانت الدَّاويّة والإسبتاريـة ، اللتان جعلتا من مدينة القدس مقراً

---

(٨) المصدر ذاته ، ص ١٥٠ .

(٩) J. Richard, *The Latin Kingdom of Jerusalem*, trans Janet Shirley, Amsterdam, North-Holland publishing company, 1979,p. 122.

(١٠) المصدر ذاته ، ص ١٢٦ .

(١١) أنظر : J. Prawer, "Social Classes . . . ." ; " The origins of the court of Burgess-es" in *Crusader institutions;* p. 263-295.

رئيساً لها من أبرز فئات السكان فيها ، ولم تكونا تشكلان جزءاً عضوياً مكملاً لبقية الفئات التي ضمها المجتمع الطبقي المجاور الذي أقامه الفرنجة في مدن الشرق الاسلامي ، ككبار النبلاء والفرسان والبرجوازية ورجال الدين على الرغم من الدور العسكري الكبير الذي كان لهما في خلال القرن الثاني عشر الميلادي / القرن السادس الهجري . وكان أبرز ما يميز وضعها القانوني في المدينة أنهما لم تكونا تخضعان لسلطة الملك المباشرة أو المؤسسات المختلفة التي أقيمت لتنظيم حياة المجتمع ، وإنما كانتا تخضعان لمجموعة الأنظمة والقواعد التي وضعت لهما [١٢]، من قبل الكنيسة الكاثوليكية أو حظيت بمصادقة البابوات . وحتى بطريرك كنيسة القيامة ، الذي كان بدوره تابعاً للبابا ، لم يكن له نفوذ فعلي عليها ، إذ كان ارتباطها - كهيئات مستقلة بالبابا نفسه ، وبذلك فقد شكلت هاتان الهيئتان مجتمعات صغيرة متكاملة داخل المجتمع الفرنجي الأوروبي ، وكان يمكنهما - على هذا الأساس - التعامل مع العالم الخارجي ، مثل العلاقات مع الإمارات الإسلامية ، بصورة مستقلة تماماً عن ملك بيت المقدس أو الإمارات الفرنجية الأخرى .

أما النصارى المحليون من سكان القدس فكانوا يشكلون المجموعة الأكبر من العناصر غير الأوروبية التي كانت تقطن المدينة ، ولكن مكانتهم الاجتماعية في البنية الطبقية للسكان لم تصل حتى إلى مستوى أقل المجموعات الأوروبية وأدناها في السلم الاجتماعي في عاصمة المملكة الفرنجية اللاتينية ، بالرغم من الدور الكبير الذي كان لهم في حياة المدينة . وكان أساس تعامل الدولة معهم قائماً على عدم الثقة بهم خاصة فيما يتعلق

---

(١٢) أنظر عن الأنظمة والقواعد التي كانت للداوية Stephen Howarth, *The knights Templer*. London, Collins, 1982. Chap. 2

أما بالنسبة للاسبتارية فانظر : J. Riley - Smith, *The knight of St. John*, Part 2.

بالأعمال العسكرية ، وكانت هذه الفئة من السكان تقطن في حيّها الخاص بها ، مثلما كانت الفئات الدّينيّة العرقية الشرقيّة الأخرى كالأرمن والكرج . وكانت أمور هذه الفئات تنظمها قوانينها وشرائعها التقليدية ، كما كان لها محاكمها الخاصّة التي فيما بينها تفصل ببعض الأمور التي تخصها ، إضافة إلى «محاكم الرؤساء» (للمجتمعات الصغيرة) التي كانت تقضي كما يقول جان ريشار ، بالقضايا المتعلقة بالأمور الثانوية ، طبقاً لعادات كل مجتمع منها الخاصّة [١٣].

كانت مدينة القدس ، طوال فترة السيطرة الفرنجية الأولى ، عاصمة المملكة الفرنجية اللاتينية في فلسطين ، وكان الملك الفرنجي هو رأس دولتها وادارتها ، وكان ينوب عن الملك في ادارة شؤون المدينة ما كان يعرف بالـ Viscount (الكونت النائب) [١٤]، وكان هذا الاداري مسؤولاً عن الادارة المالية وجمع الضرائب التي تستحق للدولة على النشاطات الاقتصادية المختلفة في المدينة ورأس الادارة الامنية فيها وغيرها من الأمور. ويبدو أن من أبرز مساعدي هذا النائب في مجالات محددة هو المتحسبْ (Methessep) الذي كان يُشرف على الأسواق في المدينة وما يتم فيها من بيع وشراء . وربما كانت هذه الوظيفة الفرنجية منقولة عن وظيفة المحتسب الإسلامية التي عرفتها كل المدن الإسلامية [١٥]. ويبدو هذا التأثير الكبير واضحاً من الواجبات والأعمال التي كان يقوم بها «المتحسب» ، والتي حددها القانون الفرنجي بدقة كما يتبين لنا من النص التالي :

---

(١٣) أنظر : J. Richard, *The Latin Kingdom*, Vol. A., p. 223

وأيضاً John La Monte, Feudal Monarchy in the *Latin Kingdom of Jerusalem*. New York, 1970, (reprint of 1932 ed). p. 108.

(١٤) كان نواب الكونتات على الأغلب ، كما يقول جان ريشار ، من الفرسان ، المصدر ذاته ص ٢٢٢ ، أما بالنسبة لـ ج . برافر ، فقد كان باستطاعة حاكم المدينة أن يعين نائب الكونت دون موافقة من البراجسة ، لكن كان عليه أنْ يأخذ بنصيحتهم عند إعلانه قرارات تتعلق بالمدينة .

(١٥) أنظر : Peters, *Jerusalem*, p. 301.

«واجب المتحسب ان يذهب كل يوم إلى الأماكن العامة، وبمعنى آخر (عليه أن يذهب) إلى دكاكين اللحَّامين وإلى الأماكن التي يباع فيها الخبز والنبيذ وغيرها من الأشياء، وعليه أن يهتم ويتأكد (بأن المعاملات من بيع وشراء) لا يقع فيها أي (غش) أو خداع وأن ليس من نقص في كميات الخبز (في الأسواق) كما أمرت المحكمة، وأن الأسعار المقررة (والمُعْلَنة) يجب أن تراعى خاصَّة بالنسبة للخبز والنبيذ وأثمان الأطعمة والسمَك . . . ولذلك فعليه أن يدور (على أسواق) المدينة للإشراف على هذه الأمور . . . . .

«ولتحقيق هذه الأهداف يجب أن يكون عنده (المتحسب) عدد من المفتشين (الأعوان) (في الأسواق) يقدمون له التقارير عن المخالفات التي تقع والتي لا يستطيع اكتشافها بنفسه، وعليه بدوره أن يقدم تقريراً بما توصَّل إليه من مخالفات الى الكونت النائب. وإذا اكتشف أنَّ أحد الأفراد يتصرف بصورة غير لائقة أو اتهم بذلك، فيجب عليه أن يوقف ذلك الشخص من قبل سرْجَنْدي أو اثنين اللذين يجب أنْ يكونا معه معظم الأوقات وقدر الإمكان، وأن يحضر المتهم أمام الكونت النائب ويوضح له التهمة أو الجريمة، وإذا لم يكن بمقدور النائب، لسبب ما الاستماع للتهمة، فإن المتحسب يستطيع القيام بذلك ومعاقبة المتهم بالسجن، ثم يعرض القضية في أقرب فرصة ممكنة على الكونت النائب. وعليه فإنَّه يستطيع اعتقال أي شخص ويودعه في السجن، ولكنه لا يستطيع ويجب أنْ لا يعطى الحَقّ باطلاق أحدٍ من السجن دون أمر من الكونت النائب أو المحكمة . . . . وهو مسؤول أيضاً وبمعاونة أو مرافقة السرجندية، على مرافقة المحكوم عليهم إلى مكان عقابهم، وكذلك الذين حكم عليهم بكسرٍ أو قطع (فقدان) أحد أطرافهم أو قتلهم . . . . »[١٦].

---

(١٦) هذا النص ترجم من ترجمة بيترز الإنكليزية في 302 - *Jerusalem*, p. 301

النص في *Recuiel Lois* الجزء الثاني ص ٢٤٣ - ٢٤٤

وكانت السلطات التي أعطيت للكونت النائب أو المتحسب تشمل كل السكان في مدينة القدس الذين يعملون في الحرف والمهن، وكان مكان عملهم عادة في الأسواق، حيث كان يتجمع أصحاب كل مهنة أو حرفة معينة في سوق أو منطقة خاصة بهم كما كان الحال في المدينة قبل احتلال الفرنجة لها، مما كان يسهل عمل المتحسب وأعوانه من المشرفين والمفتشين. ولذلك نجد في المصادر المتوافرة لدينا إشارات لوجود أسواق أو أماكن خاصة في مدينة القدس للطباخين وصرافي النقود من الاوروبين والسوريين المحليين، والحَدّادين وأصحاب صناعة الجلود والدَبّاغين والقطانين وغيرهم، إضافة إلى أسواق للحبوب والماشية (١٧)، أما في الجوانب الأخرى من حياة هؤلاء الناس فقد كانوا يخضعون لمحاكمهم الخاصة بهم أو للمحاكم العليا في البلاد.

ومن مظاهر الحياة العامة البارزة في مدينة القدس، كثرة الاحتفالات الدينية والأعياد وغيرها من المناسبات والتي كانت تشارك بها أعداد كبيرة من الناس والحجاج القادمين من مختلف أنحاء العالم المعروف آنذاك. وكان عدد هذه الاحتفالات والمناسبات في المدينة المقدسة خلال القرن الثاني عشر الميلادي في ظل السيطرة الفرنجية كبيراً جداً، خاصة ما تضمنته قائمة الكنيسة من مثل هذه الاحتفالات. وكانت احتفالات عيد الفصح المجيد كل سنة أهم هذه الاحتفالات والمناسبات الدينية على الاطلاق.

وقد أضيفت إلى الاحتفالات والأعياد الدينية أعياد ومناسبات جديدة خلال الفترة الفرنجية مثل الاحتفال السنوي بيوم استيلاء الفرنجة على المدينة في الخامس عشر من تموز، والاحتفال كل سنة بذكرى انتخاب الدوق غودفري حاكماً للمدينة بعد ذلك بثلاثة أيام، والاحتفال بتتويج الملك عند

(١٧) هذه المعلومات عن الأسواق تجدها في كتب الرحلات وزيارات الحُجّاج لمدينة القدس خلال القرن الثاني عشر الميلادي.

إختيار ملك جديد. وقد أدخلت هذه الاحتفالات كجزء من أعياد واحتفالات المدينة المقدسة بعد سنة ١٠٩٩م[١٨].

كان الاحتفال بعيد الفصح المجيد بمدينة القدس أهم الاحتفالات التي تشهدها المدينة على الاطلاق، وهو احتفال قديم جداً ويرتبط بالمدينة المقدسة. وقد استمر هذا الاحتفال خلال الفترة الاسلامية خاصة زمن حكم الفاطميين لها حيث اشتهر في سجلات مصر حج الأقباط السنوي اليها. فقد ذكر المقريزي «أن النصارى الأقباط في مصر كانوا يخرجون كل سنة في موسم الحج بأعداد كبيرة وبتجمل عظيم - مثلما يعمل المسلمون في موسم الحج إلى مكة - لأداء الحج والقيام باحتفالاته بكنيسة القيامة بالقدس»[١٩]. أما يحيى بن سعيد الأنطاكي، الذي عاصر الربع الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فيذكر أنه كان من عادة نصارى القدس في كل سنة أن يحملوا في أحد الشعانين شجرة زيتون في احتفال كبير يبدأ من كنيسة اللعازارية في ضواحي القدس إلى كنيسة القيامة، حيث يمرون في شوارع المدينة رافعين الصليب عالياً ويصلون ويترنمون بالأناشيد الدينية، وكان الوالي يركب مع رجاله معهم ليمنع الناس من التعرض لهم بأذى[٢٠].

وأما خلال الفترة الفرنجية فقد اختلفت احتفالات أحد الشعانين بعض الشيء عن السابق، ويتوافر لدينا عنها تفاصيل دقيقة، حيث كان الاحتفال يجري كالتالي:

---

(١٨) لوصف مفصل لهذه الاحتفالات انظر:

J. Prawer, *The Latin Kingdom of Jerusalem*. London, Wieden field and Nicolson, 1972, p. 176 ff, and the sources in his notes.

(١٩) اتعاظ، ج ٢، ص ٧٤ - ٧٥.

(٢٠) يحيى بن سعيد، تاريخ، ص ١٩٤.

فقبل شروق الشمس يوم الأحد المذكور كان يتجمع رجال الدين من جميع كنائس القدس وما حولها من جبل صهيون وجبل الزيتون ووادي جهنم، وعلى رأسهم البطريرك، ويتوجهون إلى اللعازارية وكان صاحب خزائن كنيسة القيامة يحمل الصليب المقدس إلى نفس المكان، وفي ذات الوقت الذي يتوجه به رجال الكنيسة إلى هذا المكان، كان يتجمع سكان المدينة ومن فيها من الحجاج في ساحة قبة الصخرة، التي تحولت آنذاك إلى كنيسة لاتينية، وهم يحملون عيدان النخيل وأغصان الزيتون. وكان يقوم أحد كبار رجال الدين الذي يرافق هذه الجماهير بمباركة ما كان يحمله السكان من عيدان وأغصان، ثم يقود المحتفلين من ساحة الصخرة إلى باب أريحا (يهوشوفات) ومن ثم يخرجون عبر هذا الباب إلى وادي جَهَنّم.

وفي هذا الوادي كان يلتقي رجال الدين والبطريرك حاملين الصليب مع جماهير النَّاس المحتفلين ويتحرك الموكب الذي يقوده البطريرك ورجال الدِّين بعد ذلك باتجاه البوابة الذهبية (باب الرَّحمة في المصادر الإسلامية) الذي يُفْتَحُ خصيصاً كُلّ سنة من أجل هذه الاحتفالات، ثم يعاد سَده بعدها، حيث يدخلون إلى ساحة قبة الصخرة، وبعد إدارة الصليب المحمول في ساحة المسجد الأقصى بعض الوقت، كانت الاحتفالات تنتهي باقامة الصلوات في ساحة قبة الصخرة[٢١]، وبعدها يتفرق الناس. ومن إحتفالات عيد الفصح المجيد الهامة والقديمة التي ترد في المصادر الإسلامية والفرنجية احتفال ظهور (النار المقدسة) والتي وصفها بدقة وتفصيل الحاج والرحالة الروسي دانيال[٢٢]، والتي كان يحضرها الملك الفرنجي وكبار رجال دولته ورجال مختلف الكنائس والحجاج وغيرهم من سكان المدينة من النصارى.

---

(٢١) أنظر: J. Prawer, *The Latin Kingdom*, p. 178

(٢٢) أنظر: *The Pilgrim of the Russian abbot Daniel in the Holy Land*, 1106 - 1107, A.D. Trans. C. W. Wilson (AMS Press, New York, 1971 (reprint of 1895 ed.) in PPTS, Vol. 4, P. 74 ff.

وكان من بين الأعياد الجديدة التي استحدثها الفرنجة في القدس الإحتفال بيوم الخامس عشر من تموز كل سنة، وهو اليوم الذي تمكن فيه الفرنجة من اقتحام أسوار المدينة والإستيلاء عليها. ففي الصباح الباكر من هذا اليوم، كان البطريرك اللاتيني يقود مسيرة من كنيسة القيامة إلى معبد الرب (قبة الصخرة) داخل حدود الحرم الشريف، وهناك كانت تتوقف المسيرة بعض الوقت لإقامة الصلوات أمام المدخل الجنوبي لقبة الصخرة في الساحة الواقعة بينها وبين المسجد الأقصى. وبعد الانتهاء من الصلاة كان المجتمعون يتوجهون إلى خارج الأسوار في الجهة الشمالية حيث قبور الفرنجة الذين سقطوا أثناء دخولهم المدينة. وبعد الإنتهاء من ذلك كانت المسيرة تعود إلى المدينة وتعبر الشَّارع العام (يهوشوفات) الواقع خارج أسوار الحَرَم الشمالية، وتسير باتجاه السُّور الشمالي للمدينة حيث المنطقة التي دخل الفرنجة منها إلى المدينة والتي تقع قرب برج اللقلق[٢٣]، وفي هذا المكان كان البطريرك يلقي موعظةً بالنَّاس المجتمعين ثم تقام صلوات الشكر، وبعدها يتفرق النّاس.

وبعد هذا الاحتفال بثلاثة أيام، كان يقام الإحتفال بالذكرى السنوية للدوق غودفري أول حكام المدينة الفرنجة، وكان هذا الاحتفال، كما يذكر الحاج الألماني جون اف فورتزبرغ، احتفال يهتم سكان المدينة فيه بإعطاء الصدقات الكثيرة في الكنيسة كما كان يفعل غودفري نفسه عندما كان حيا[٢٤].

وكان تتويج ملك جديد لمملكة بيت المقدس من المناسبات التي تقام فيها احتفالات خاصة في عاصمة المملكة، وكان تتويج الملوك، منذ بلدوين الثاني، يتم في كنيسة القيامة، فبعد الإنتهاء من المراسيم الدينية للتتويج في

---

(٢٣) John of Wurzburg, *Description*, p. 39 - 40.

(٢٤) المصدر ذاته، ص ٤٠

الكنيسة تبـدأ الإحتفالات بمسيرة عبر شوارع المدينة تبـدأ من كنيسة القيـامة وتنتهي بقصر الملك حيث تقام وليمة كبيرة كان يُدعى اليها كل نبلاء المملكة وفرسـانها، وكانت العـادة المتبعة والمعروفـة في هذا الاحتفال أن أفـراد الطبقة المتوسطة في القدس هم الذين يقومون بإعداد هذه الوليمة [٢٥].

هكـذا كانـت أوضاع مـدينة القـدس خلال الفترة الفـرنجية على الأقـل بخطـوطها العـامة والتطـورات التي شهـدتها في مدة تقـارب تسـعة عقـود لم يتعرض فيهـا خلالها أهلهـا من الفرنجـة ومن النصـارى الشرقيين لأي خطر خـارجـي خطير خـاصـة بعـد استقـرار الأوضـاع في مملكـة بيـت المقـدس الفرنجية. وفي العقد التـاسع من حكم الفرنجة للمـدينة إزداد تَحَدِّي صلاح الدين لإمارات الفرنجة، وتـوج هذا التحدي بمعركة حطين (تموز ١١٨٧م) الحاسمة وما تبعها من سيطرة أيوبية على معظم فلسطين ودرتها القدس.

(٢٥) J. Richard, *The Latin Kingdom*, Vol. A., p. 129

٥ - بعد حطين : إعادة المسلمين والحياة الإسلامية إلى القدس زمن صلاح الدين

قال برنار دي بلانك فورت، (Bernard de Blanquefort)، مقُدَّم هيئة الدَّاويّة العسكرية الدينية، الذي رأس هذه الهيئة في أواخر العقد السادس وخلال العقد السّابع من القرن الثاني عشر الميلادي/ السابع من القرن السادس الهجري، في الوقت الذي كان الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي يقود عملية المواجهة العسكرية مع كُلّ الفرنجة في بلاد الشام، قال مرة في رسالة بعث بها إلى أوروبا، بأن أعظم خوف لديه بالنسبة للإمارات الفرنجية في بلاد الشام، هو أن يتمكن أمير مسلم واحد من أن يعيد توحيد مملكتي القاهرة ودمشق القويتين، (وبالتالي) سيقضي على اسم المسيحيين (في الشرق)[1]. ولم يكن مقدم الداوية هذا الوحيد من بين الفرنجة الذي كان يخشى توحيد مصر والشام تحت قيادة واحدة وتركيز الجهد فيها في مواجهة التحدي الكبير الذي واجهته المنطقة بسيطرة الفرنجة على سواحل الشام وبعض المناطق الداخلية فيها، فوليم الصوري الذي عاصر المقدم المذكور، وعاصر تحقيق توحيد مصر والشام، عبر عن آراء مماثلةٍ في أكثر من مكان في مؤلفه المشهور: **تاريخ الأعمال فيما وراء البحار**[2].

---

(١) Stephen Howarth, *The Knights Templers*, p. 125.

(٢) أنظر وليم الصوري، **تاريخ الأعمال** (بالانكليزية) ج ٢ ص ٢٢٥ (عن نور الدين) و ص ٤٠٦ - ٤٠٨، ٤٩٠ - ٤٩١. ويقول وليم بالحرف الواحد «وهكذا . . . فإنَّ كُلّ الممالك حولنا تطيع (أو تخضع) لحاكم واحد، ويعملون حسب إرادة رجل واحد، وبقيادته وحده فقط، وهم مستعدون ولو بتَرَدُّد، كوحدة واحدة، لحمل السلاح لإيذائنا (الفرنجة) . . فهذا هو صلاح الدين . . الآن يملك تحت سيطرته كل هذه الممالك». المصدر ذاته، ص ٤٠٨.

وظهر هذا القائد الكبير الذي كان الفرنجة يخشون ظهوره، في شخص صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذي تمكَّنَ في أقل من خمس عشرة سنة من سيطرته على مصر من الدولة الفاطمية (١١٦٩م - السنة التي توفي فيها مقدم الدَّاوية المذكور) من توحيد ليس فقط مصر وبلاد الشَّام التي كانت بيد آل زنكي، وإنما أيضاً القسم الأكبر من منطقة الجزيرة الفراتية، وابتدأت بذلك مرحلة جديدة من الصراع بين المسلمين والفرنجة كان لصلاح الدِّين والوحدة التي حققها الدَّوْر الأكبر في تحديد تطوراتها، إذ تغيرت موازين القوى في المنطقة وأعاد كل جانب منهما حساباته على ضوء التطورات التي وقعت.

أ - القدس والحملات الفرنجية بعد حطين :

بعد أن تمكن صلاح الدين من تحقيق هدفه بتوحيد الإمارات الإسلامية في جبهة واحدة متماسكة سياسياً وعسكرياً تحت قيادته، بدأ مباشرة بمهاجمة مملكة بيت المقدس، التي كانت أكبر الإمارات الفرنجية وأهمها التي كانت تسيطر على فلسطين أو على الجسر بين مصر وبلاد الشام. وتتوجت هذه الأعمال العسكرية المتتابعة بمعركة حطين الحاسمة التي فتحت الطريق إلى القدس وكل فلسطين[٣]. ففي الرابع من تموز سنة ١١٨٧م / ٢٦ جمادى الأول سنة ٥٨٣هـ قضت قوات صلاح الدين (المكونة من قوات من مصر وكل إمارات الشام ومنطقة الجزيرة الفراتية) على القوة العسكرية الضاربة ليس فقط في مملكة بيت المقدس وإنما أيضاً القوات التي قدمت للمشاركة من الإمارات الفرنجية الأخرى. وبعد هذه المعركة التاريخية بثلاثة أشهر فقط استولى صلاح الدين على مدينة القدس متوجاً بذلك جهوده الطويلة بهذا الفتح الكبير.

(٣) تمكن صلاح الدين بقواته والقوات التي قدمت لمساندته من السيطرة على كل فلسطين في أقل من سنة، ولم يبق بيد الفرنجة سوى بعض القلاع الحصينة في المنطقة الشمالية، الجليل الأعلى وبعض المدن الساحلية.

كان تحرير القدس من أيدي الفرنجة القضية الأساسية التي شغلت القادة والعلماء والفقهاء والشعراء في العالم الإسلامي. وعندما كان صلاح الدين لا يزال مجرد قائد في خدمة نور الدين محمود بن زنكي، كان يُذكّر من قبل الشعراء والعلماء - خاصة عماد الدين الإصفهاني القاضي ووزيره الثاني فيما بعد - بواجبه بتخليص القدس والحرم الشريف من أيديهم، كما ساعدت كتابات المؤرخين ووعظ الوعاظ - وبعضهم كان من ضمن حاشية صلاح الدين - بتذكيره بالمذابح التي ارتكبها الفرنجة في المدينة المقدسة في تموز ١٠٩٩م. ولذلك فقد توجه القائد الأيوبي المسلم بعد حطين مباشرة إلى القدس، وكانت الطريق من قرون حطين إلى القدس طريقان : أما الطريق الأقرب والأسهل فيمر عبر الهضبة الجبلية مروراً بمدنية نابلس وغيرها من المدن والقرى إلى جبال القدس والمدينة الحصينة، لكنّ المرور من هذه الطريق سيترك المدن الساحلية الحصينة الممتدة من عكا وحتى حدود مصر، حيث الكثافة البشرية للفرنجة وحيث مراكز الاتصال وخطوط التموين والتمويل الرئيسي مع أوروبا الفرنجية، مفتوحاً؛ أما الطريق الثاني فهو الذي يمر عبر الطريق الدولي الساحلي الذي يصل بين دمشق ومصر ويؤدي للسيطرة على المدن الساحلية ويفتح طريق الاتصال بين مركزي قوته مصر والشام، ويقطع الإتصال وخطوط التموين بين أوروبا والمدينة المقدسة. ولذلك كان طبيعياً أن يتوجه صلاح الدين مباشرة إلى الساحل فاستولى بسرعة على عكا وحيفا ويافا والرملة وعسقلان، ثم اتجه بعد ذلك مباشرة إلى القدس التي عُزلتْ كلياً عن بقايا الإمارات الفرنجية في بلاد الشام، حيث وصل أمام أسوارها في العشرين من أيلول سنة ١١٨٧م / رجب ٥٨٣هـ.

---

(٢١) يظهر ذلك من الاشارات التي ترد في المصادر العربية التي عالجت فتح صلاح الدين للقدس واعداد الأرمن التي سومحت من دفع الإتاوة لشفاعة أمراء الجزيرة الفراتية بهم على أساس أنهم من رعاياهم.

وصل صلاح الدين إلى القدس على الطريق الرئيسي الذي يصل بين الساحل والمدينة والذي يمر بالرملة واللطرون ومن ثم بيت نوبة المشرفة عليها . ولذلك فقد بدأ السلطان بحصارها من الجهة الغربية ، ولكنه وجد – مثل الفرنجة قبل ثمان وثمانين سنة –استحالة الاستيلاء عليها من هذه الجهة ، فانتقل هو بالقسم الأكبر من الجيش إلى الجهة الشمالية من السور، بينما قاد أخوه الملك العادل بقية القوات إلى جبل صهيون لمحاصرتها من تلك الجهة . ومن بداية الحصار والعمليات العسكرية ، كان صلاح الدين مُصَمِّماً على الاستيلاء على المدينة بقوة السلاح ، كما استولى عليها الفرنجة قبل ثمان وثمانين سنة ومن ذات الجهة من السور التي كانت تاريخياً تشكل أضعف جهات المدينة تحصيناً، بسبب طبيعة بنيتها الجغرافية وتضاريسها ، وكانت المدينة تَغُصُّ بعشرات الآلاف من سكانها ومن الناس من فرنجة ونصارى محليين الذين لجأوا اليها من كل مناطق فلسطين السّاحلية والجنوبية والوسطى طلباً لحماية أسوارها الحصينة ، بحيث صار فيها عشرة أضعاف عدد سكانها في الأحوال العاديةوملأوا البيوت والكنائس والساحات العامة والشوارع .

وضغطت قوات صلاح الدين على المدافعين عن السّور في هذه الجهة باستمرار، وحفر أصحاب النقوب (الأنفاق تحت الأرضيَّة) من الحجَّارين والنقابين في الصخر تحت السور في عدة مواضع كما كانت العادة المتبعة في عمليات الحصار الكبيرة ، وسقطت قطعة صغيرة من السور نتيجة لهذه العمليات ، وتقدمت مجموعة من جند صلاح الدِّين ونَصَبَتْ رايته الصَّفْراء على أعلى السور في هذه المنطقة ، لكن المدافعين في ذلك المكان تجمعوا من جديد وأجبروا الذين يحملون الراية على الانسحاب . ووجد البطريرك الفرنجي وباليان صاحب نابلس – الأمير الفرنجي الذي تمكن الإفلات من حطين إلى صور ثم طلب من صلاح الدين الإذن بدخول القدس لاخراج

زوجته - اللذين كانا يقودان المدافعين الفرنجة عن المدينة أنهما لا يستطيعان الاستمرار في القتال إذ لا مجال لوصول إمدادات فرنجية من أي مكان تساعد في تخفيف الحصار أو مشاغلة قوات صلاح الدين، فطلب التفاوض مع صلاح الدين لتسليم المدينة اليه مقابل شروط مناسبة للجانبين. ورفض السلطان الأيوبي في البداية عرض التفاوض، وأصرَّ على الاستمرار في الحصار والقتال حتى يدخل المدينة بالقوة ويثأر لمأساة سنة ١٠٩٩م. وأمام هذا الإصرار لجأ باليان إلى التهديد بأنه إذا لم يوافق صلاح الدين على تسليم المدينة بشروط مناسبة للفرنجة سيقتل الأسرى المسلمين في المدينة، والذي قيل أن عددهم كان خمسة آلاف، ويقتل النساء والأطفال الفرنجة في المدينة حتى لا يقع أحد منهم أسيراً في أيدي المسلمين، وأنه سيقاتل هو والرجال الذين معه حتى آخر واحد منهم، ويهدم الأماكن الإسلامية المقدسة في المدينة. ولا نستطيع أن نقدر في ضوء المعرفة المتوافرة، مدى صدق هذا التهديد، لكن الشروط التي عُرِضَتْ ألآنَ موقف أمراء السلطان، فقد مال هؤلاء الأمراء الذين أرهقهم طول البقاء في ميدان القتال الذي امتد لأكثر من سبعة شهور، إلى القبول بتسليم الفرنجة المدينة إلى السلطان دون قتال وخروج الناس منها، خاصة وأنّ الهدف الأساسي في استعادة المدينة المقدسة للمسلمين سيتحقق دون إراقة دماء. ووافق صلاح الدين على الشروط التي تضمنت من بين ما تضمنت خروج جميع الفرنجة وغيرهم من سكان المدينة من المدينة بسلام حاملين معهم ما يستطيعون حمله من أموال وممتلكات شخصية على أن يتركوا وراءهم الخيول والآلات والأدوات العسكرية والسلاح، وأن على كل من يغادر المدينة أن يدفع فدية حُدِّدَت بحيث يدفع الرجل عشرة دنانير والمرأة خمسة دنانير والأطفال من أولاد وبنات دينار واحد[٤]. وخرج الفرنجة من مدينة القدس في فترة قصيرة، حاملين معهم من

---

(٤) أنظر: العماد الاصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**. نشر محمد صبيح، القاهرة (لا . ت) ص ١٢٦؛ ابن الاثير، **الكامل**، ج ١١، ص ٥٤٩؛ **الأنس الجليل**، ج ١ ص ٣٤٨؛ تسمان، تاريخ، (E) ج ٢ ص ٤٦٦ - ٤٦٧.

المواد ما حددته اتفاقية التسليم، وزودهم صلاح الدين بحاميات عسكرية تحرس قوافلهم وتخفرها من المسلمين في الأرياف حتى وصولهم إلى مأمنهم. أما السكان من النصارى المحليين فقد قرروا البقاء في المدينة وطلبوا من السلطان السماح لهم بذلك والعيش كأهل كتاب للمسلمين يتابعون حياتهم وأعمالهم كما كانوا فوافق السلطان [٥].

وهكذا فقد شهدت القدس وللمرة الثانية خلال أقل من قرن من الزمان، تغيرات أساسية في بعض مظاهر عمرانها، وفي بنية سكانها وإدارتها، وحياتها اليومية. وقد تم بعض هذه التغيرات مباشرة بعد الفتح الصلاحي، وتم البعض الآخر بصورة تدريجية في عهد خلفائه. ونظرة سريعة إلى هذه التغيرات المختلفة ضرورية لبيان أوضاع المدينة في الفترة التي تلت عودتها إلى السيادة الإسلامية :

بقيت الملامح العامة لمدينة القدس كما كانت عليه، فالتغيرات في طبوغرافيتها وفي عمرانها لم تتغير كثيراً، كما بينا، خلال الفترة الفرنجية عما كانت عليه في السابق الاّ في المجالات المحدودة التي ذكرنا، وربما كان هذا الوضع يرجع إلى أن أساليب العمران والهدم في عالم العصور الوسطى لم تكن متطورة إلى الدرجة التي تمكن من إحداث تغيرات جذرية في التضاريس الطبيعية أو التخريب والتهديم الكبير. وكانت التغيرات التي تمت في هذا المجال في الفترة اللاتينية قد هدفت إلى خدمة أغراض السكان الجدد من مختلف النواحي خاصة الدينية والاجتماعية. وعند الفتح الصلاحي هدمت بعض الأبنية التي أقامها الفرنجة، وتغير الغرض من استخدام البعض الآخر ليخدم الجماعات الإسلامية الجديدة التي استوطنت في المدينة بعدما حُرم المسلمون من السكنى فيها طوال حكم الفرنجة. فما الأعمال التي قام بها

(٥) أنظر : الكامل، ص، ٥٥.

صلاح الدين وخلفاؤه لإعادة المدينة إلى الصورة الإسلامية، وما الإضافات العمرانية التي تمت في الفترة التالية (٢ تشرين الأول ١١٨٧م) بعد دخول صلاح الدين المدينة وإقامة الخطبة من على منبر المسجد الأقصى وقبة الصخرة للخلافة العباسية ولنفسه؛ لم يستقر فيها ولم يسمح لقواته بالبقاء فيها، وإنما أقام في معسكره الذي كان أقامه خارج أسوار المدينة على رأس جبل الزيتون، إذ كان عليه أن يتابع مهمته في تحرير بقية المناطق التي كانت لا تزال بيد الفرنجة.

كان تحرير القدس هو محور الجهد السياسي والعسكري الذي قام به صلاح الدين الأيوبي والإمارات الاسلامية التي خضعت لنفوذه أو ارتبطت به، وصار هذا المحور بعد سنة ١١٨٧م هو بقاء المدينة بيد المسلمين بصورة دائمة، ومن هنا كانت جهود صلاح الدين تجاه المدينة خاصة عمليات تحصين الأسوار التي كان يَعْرف أنها الأساس في السياسة الجديدة في المحافظة على إسلامية المدينة. لكن بعد سنة ١١٨٧م مباشرة لم تكن الظروف مناسبة للبدء بذلك، ولذلك فقد اهتم السلطان خلال الفترة القصيرة التي تلت الثاني من تشرين الأول بأمور أكثر إلحاحاً خاصة وأنه لم يكن هنالك من خطر مباشر يتهدد المدينة. كانت عمارة الأسوار ممكنة في أي وقت ولذلك اهتم باجراء التراتيب الإدارية والدينية في المدينة قبل المغادرة إلى مناطق أخرى، وكان أول اهتمام للسلطان هو إعادة منطقة الحرم الشريف إلى ما كانت عليه، ولذلك فقد أمر أمراءه بإزالة كل الإضافات العمرانية والإضافات الأخرى التي أدخلها الدّاوية ورجال كنيسة القديس أوغسطين في المسجد الأقصى وقبة الصخرة خلال الفترة الفرنجية، مثل الكنيسة وقاعة الطعام وأماكن السكن التي أقامها الدّاوية في المسجد الأقصى والرسوم والصور في داخل قبة الصخرة، ثم نظفت كل منطقة الحرم وغسلتْ بالماء، أما منطقة الصخرة المشرفة فقد غسلت بماء الورد الذي أحضره الأمير تقي

الدين عمر بن شاهنشاه إبن أيوب من بلاد حماه وغيرها خصيصاً لهذه الغاية[٦]. وجَدَّد محراب المسجد الأقصى وغطي بالرخام، وأحضر المحراب المشهور الذي كان نور الدين محمود بن زنكي قد أمر بعمله في حلب في حياته خصيصاً للمسجد الأقصى، من دمشق ونصب في مكانه، وأعيد بناء وتجديد المساجد التي كانت مهملة لفترات طويلة، وعين السلطان الأئمة والخطباء وغيرهم من الأشخاص الذين يحتاج اليهم للإشراف على هذه المساجد والقيام بالمهام المختلفة التي تحتاجها، كما عين والياً للمدينة، ووضع في البرج والقلعة حامية مناسبة لحمايتها، إضافة إلى إمام ومؤذن للمسجد الذي فيها. وحول السلطان كنيسة القديسة حنة (Saint Ann) إلى مدرسة للشَّافعية كما كانت في الفترة السابقة لاحتلال الفرنجة، وعين فيها اولاً مدرساً مؤقتاً، ثم بعد انتهاء الحملة الثالثة، القاضي بهاء الدين ابن شداد، صاحب سيرة صلاح الدين المعروفة **بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، أول شيخ كبير مسؤول عنها[٧]، كما صار والد إبن واصل مؤرخ الدولة الأيوبية، شيخها في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي لمدة طويلة[٨] وعرفت هذه المدرسة بعد بالمدرسة الصلاحية.

---

(٦) العماد الإصفهاني، الفتح القسي، ص ١٤٠ - ١٤٤.

(٧) المصدر ذاته، ص ١٤٥، ٦١١ - ٦١٢؛ الأنس الجليل، ١ ص ٣٤٠ - ٣٩١؛ ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. تحقيق محمد جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤. ص ٢٣٩.

(٨) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. تحقيق حسنين محمد ربيع، القاهرة، دار الكتب، ١٩٧٢، ج ٤ ص ١٤١ - ١٤٢، ٢٠٨، وقد تحددت أوقات هذه المدرسة في وقفية السلطان عليها، أنظر: أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين. نشر محمد إبشرلي، مركز الابحاث والتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستنبول، ١٩٨٢. ص ٣٥ والملحق الخاص في هذه الدراسة.

ومن الاجـراّءات الأخرى التـي اتخذها صـلاح الديـن خلال فترة إقـامته القصيرة في المدينة بعـد الفتح وقـف بعض عمائر ربـع «حيّ البطـريرك» على وجوه الخير والمصالح العـامة . فقد صار هذا الربع ، الذي كـان مركز الحياة الدينية والمدنية في المدينة زمن الفرنجة ، خـالياً من السكان بعد خروجهم من المدينة عنـد الفتح الصـلاحي ، وقد أوقـف ، بعد استشـارة العلماء والفقهاء والصوفية ، قصر بطريـرك الفرنجة ، رباطاً للصوفيـة ، ووقف عليه وقفا كبيراً للقيام بمصالحه كما تدل على ذلك حجـة وقفه التي وصلت الينا [٩]، ووقف أيضاً كنيسـة في مجمع الاسبتاريـة الكبير مارستانا جهـزه بكل ما يحتـاج اليه ووقف عليـه أوقافاً كثيرة تكفـي بمصاريفـه ، وجلب اليه الأدويـة والعقاقير النادرة من مختلف المناطق[١٠].

وبعـد الانتهاء مـن هذه التراتيـب الضرورية ، وتـزويد القـدس بحاميـة وخزانة سـلاح مناسبتين [١١]، توجـه صلاح الديـن إلى دمشق ، وشُغـل بعد ذلـك لمدة تزيـد على ثلاث سنوات بحروب متـواصلـة مع بقـايا الإمـارات الفرنجية في بلاد الشام ، ولم تؤد هذه العمليات العسكرية الأخيرة إلى القضاء على الفرنجة في السـاحل الممتد من أنطاكية وحتى صور جنوبا مما أبقى خطر عودة الفرنجة إلى فلسطين وقلبها القدس قـائماً . وزاد هذا الخطر شدّة وحدة بحصار فرنجة الشرق لمدينة عكا وقدوم الحملة الفرنجية الثالثة التي انضمت إلى الفـرنجة الـذين كـانوا يحاصرون عكـا ، عنـد ذلك صـار تحصين مدينـة القدس في مقدمة أولويات السلطان الأيوبي .

---

(٩) قام بنشر حجـة وقف ربـاط الصُّوفيّة (الخانقاه الصـلاحية) كـامل العسلي ضمـن كتاب وثائق مقدسية تاريخية . عمان ، ١٩٨٣ . ج ١ ص ٩١ وما بعدها ، أنظر الملحق .

(١٠) العماد الإصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٦١٢ ؛ الأنس الجليل ، ج ١ ص ٣٩١ .

(١١) قام الملك العزيز عثمان ، أحد أبناء صلاح الدين ، بتقديم كل خزانة سلاحه للمدينة .

كان خوف صلاح الدين من عودة الفرنجة إلى القدس وسيطرتهم عليها من جديد، يشكل أساساً ثابتاً في سياسته تجاه الفرنجة بعد سنة ١١٨٧م، ولذلك عندما تمكن فرنجة الشام ومن شارك في الحملة الثالثة من السيطرة على عكا والسّاحل الجنوبي لفلسطين حتى عسقلان اضطر السلطان للتضحية بعسقلان ذات الأهمية الإستراتيجية كبوابة مصر من الشمال. وعندما استولى صلاح الدين على عسقلان في ٥ أيلول سنة ١١٨٧م أبقى عليها وحصنها وشحنها بالمقاتلة للمحافظة على خطوط مواصلاته مع مصر، لكنه لم يعتبر السيطرة عليها الاّ خطوة أساسية في تحرير القدس الذي تم بعد ذلك بشهر تقريباً. ولما كان سقوط عكا بيد الفرنجة وجد السلطان صلاح الدين أنه بالامكانات التي كانت متوافرة لديه آنذاك (سنة ١١٩١م) لا يستطيع المحافظة على المدينتين الهامتين (القدس وعسقلان) في الوقت ذاته، ولذلك فقد ضحى بعسقلان من أجل تركيز جهوده كلها على القدس وتحصينها وشحنها بالرجال والسلاح. ونتيجة لهذا القرار الصعب أمر السلطان صلاح الدين بهدم مدينة عسقلان من أساساتها، وذلك بعد مشاورات بين السلطان وأمرائه، وحسابات دقيقة للموقف العسكري. وقد اتخذ السلطان هذا القرار، كما تذكر المصادر وهو يبكي. وبدأ الحجارون والنقابون عملهم بهدمها بصورة منظمة بدءاً بالأسوار ثم الاسواق والمنازل، حتى لا يتمكن الفرنجة من التحصن بها من جديد. وعندما انتهى من ذلك عاد صلاح الدين إلى القدس، فاستولى الفرنجة بعد ذلك على عسقلان وبدأوا بعمارتها من جديد[١٢].

---

(١٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان. حيدر أباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٠هـ، ١٩٥١م ج ٨ ص ٤١٠، ٤١٣؛ ابن الاثير، الكامل، ج ١٢، (بيروت ١٩٧٩) ص ٦٩ وما بعدها.

وصل صلاح الدين بقواته إلى القدس، واستقر به المقام هذه المرة داخل أسوارها واتخذ بيت الأقساء فيها المجاور لكنيسة القيامة مقراً له، وبدأت عملية تحصين المدينة وبناء الأسوار وحفر الخنادق. يذكر عبد اللطيف البغدادي الذي زار القدس في هذه الفترة بالذات وحضر مجلس صلاح الدين في قصره المذكور:

«وأول ليل حضرته وجدت مجلساً حفلاً بأهل العلم يتذاكرون بأصناف العلوم، وهو يحسن الإستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع، وكان مهتماً ببناء سُور القدس وحفر خندقه، يتولى ذلك بنفسه، وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأتى به جميع الناس، الفقراء والأغنياء والأقوياء والضعفاء حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر ويأتي داره، ويمد الطعام، ثم يستريح، ويركب العصر ويرجع في المساء، ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمل غداً» (١٣).

وأصلحت الأسوار المتهدمة، وأعيد بناء أجزاء كاملة منه وحصنت بأبراج عالية ووثيقة، وحفر خندق عميق في الصخر الصلد في الجهة الشمالية، واستخدمت الحجارة المستخرجة منه في بناء السور والأبراج. واستخدمت في عملية البناء أعداد كبيرة من الناس من بينهم ألفا أسير من الفرنجة وخمسين حجاراً متمرسين أرسلهم صاحب الموصل، وكل من كان في المدينة من الجند والأمراء وحتى العلماء والكتاب، وكذلك اخوان السلطان وأولاده (١٤)، وكل أمرائه، حتى تم العمل بأسرع ما يمكن. وقام الملك العادل، أخو السلطان، بتحصين الجزء الجنوبي الغربي من السور الذي يقع على جبل صهيون، بحيث أدخلت الكنيسة المشهورة هناك والأبنية حولها والمنطقة التي تبعد عن السور الأصلي مسافة رمية سهم مرتين في داخل السور الجديد (١٥).

---

(١٣) عبد اللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار. نشر أحمد غسان سبانو، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨٣. ص ١٥١.

(١٤) العماد الاصفهاني، الفتح القسي، ص ٥٧٨؛ ابن الاثير، الكامل، م ١٢ ص ٧٤.

(١٥) ابن الاثير، الكامل، م ١٢ ص ٨٦ - ٨٧.

ب – الحملة الفرنجية الثالثة

وما كاد صلاح الـدين ينتهي من تحصين مدينة القـدس وشحنها بكل ما توفر لديـه من سلاح ورجال آنذاك حتى توجه قسـم من المشاركين في الحملة الفـرنجية الثـالثة مـن الإنكليز والفـرنسيين بقيـادة رتشارد قلـب الأسد مـن عسقلان ومـن غيرها من الجهـات باتجاه مدينـة القدس بغية حصـارها [1]، ووصلت قوات الفرنجة إلى اللطرون (٩ حـزيران) وفي اليوم التالي عسكروا في بيت نوبة القـريبة من القدس[2]. ووصلت أخبـار تقدم الفرنجـة إلى صلاح الدين في القـدس عن طريق عيـونه، فأحضر أمراء الجنـد وضرب مشوراً فيما يفعل، وكـانت خـلاصة الـرأي أن تقسم الأسـوار على الأمراء ويخرج ببقيـة العساكـر جريدة إلى جهة العـدو، فإذا عرف كـل قوم موضعهم مـن السور واستعدوا له، خرجوا إنْ دعت الحاجـة اليهم، وان دعت الحاجة الى ملازمة مواضعهم لازموها، فكتبت الرقاع وسيرت إلى الأمراء [3].

وكانـت حالـة ترقـب وخوف شـديد في القـدس من تمكـن الفرنجـة من السيطـرة على المدينـة مـن جـديـد بـالـرغـم مـن كـل الحشـد العسكـري والاستعـدادات للقتال. وامتـدت هـذه الحال مدة تـزيـد على شهر وقعـت خلالها مناوشـات مستمرة بين الجانبين كان أهمها استيلاء الفرنجـة على قافلة كبيرة محملة بالميرة قادمة من مصر باتجاه القدس وبلاد الشام [4]، وترتب على

---

(١) أنظر : *The Third Crusade*, an eye witness account at the campaigns of Richard Coeur de - lion in *Cyprus and the Holy Land*, ed. with an introduction by Keneth Fenwich, London, 1958, p. 128.

(٢) المصدر ذاته، ص ١٢٩ ؛ النوادر السلطانية ص ٢١٢ .

(٣) النوادر السلطانية، ص ٢١٢ .

(٤) المصدر ذاته، ص ٢١٣ – ٢١٥ .

هذه العمليـة أن تشجع الجيش الفرنجـي على مهاجمة القـدس. يذكـر ابن شداد: «وصَحَّ عزمهـم على القدس، وقويت نفوسهم بما حصلـوا عليه من الأموال والجمال التي تقل الميرة والأزواد . . . واوفـدوا . . . إلى صور وعكا وطرابلس يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس».

ولما عـرف صلاح الـدين بهذه التطـورات عمـد إلى الأسوار فقسمهـا على الأمراء وتقدم اليهم بتهيئة أسباب الحصار وأخذ بإفساد المياه ظاهر القدس، فأخرب الصَّهَاريج والجباب، بحيث لم يبق حول القدس ما يشرب أصلا [٥] . . . وسير إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد[٦].

أما الوضع في المعسكـر الفرنجي في بيت نوبة فقـد تمثل في اتجاهين: فقد أبدى عامـة الجند (خاصة الفرنسيون) تـذمراً شديداً من تأخـر الملك رتشارد في الهجوم على القدس وتخليصها من أيدي المسلمين ليتمكن الحاج المسيحي مـن زيارتها ومشـاهدة الأمـاكن المقـدسة. أمـا الملك رتشـارد الذي شغلتـه الأخبار بالتطورات السيئة في بلاده والتي دفعته إلى الدخول في مفاوضات مع السلطـان صلاح الـديـن عـن طريـق أخيـه الملـك العادل وإبـن الهَنْفِـري الفرنجي[٧]، فقد كـان يميل إلى التريـث، ولذلـك فقد دعـى رتشارد أمـراء الجيش إلى عقد اجتماع لمنـاقشة إمكانية الهجوم على القـدس أو عدمها. وفي المناقشات ألح الفرنسيون على القيام بـالهجوم فوراً، لكن الملك هَدَّد بالتخلي عن قيادة القـوات لإعتقاده بعدم جدوى الهجـوم نظراً لقلة القوات المتـوافرة لديه وقال:

---

(٥) يؤيد ذلك ما ورد في المصدر الفرنجي المعاصر المذكور.

(٦) النوادر السلطانية، ص ٢١٥.

(٧) النوادر السلطانية، ص ١٩٠ وما بعدها.

«ألا تظنون أن صلاح الـدين يعرف بكل ما يجري في معسكـرنا؟ وهل تعتقدون أن وضعنا الضعيف قد خفي عليه؟ (وأجاب) : (السلطان) على وعي بقوتنا بدقة . . . واضـافة إلى ذلك فإن أسوار القدس - كما نسمع - عظيمـة الدور، وعلينـا أن نقوم بمحاصرتها بـإحكام بقـواتنا القليلة الآن والتي لن تكون كافية للقيام بالحصار أو حتى حماية أولئك الذين يحضرون الإمدادات من هجمات الاتراك . . .

ويضاف إلى ذلك أننا جميعا (القادة وعامة الشعب) نجهل هذه المنطقة وطرقهـا وأوديتها . . . ورأيـي هو أن نطلـب النصيحة مـن مواطنـي البلاد (من الفرنجة) الذين يتشوقون إلى إستعادة أراضيهم وممتلكاتهم، ونطلب منهـم أن يقترحوا علينا أفضل مـا يمكن عمله أو القيام به. وكذلك فإنني أعتقد أنه يجب استشارة الداوية والإسبتارية، وأن نأخذ برأيهم وحكمهم بـالنسبة للإقدام على حصار القـدس أولاً أو القاهرة (الأصل : بابل) أو بيروت أو دمشق»[٨].

واتفق أخيراً في الإجتماع على اختيار هيئة مكونـة من عشرين عضواً من الداويـة (٥ أعضاء) والاسبتاريـة (٥ أعضاء) والنبـلاء الفرنسيين (٥ أعضـاء) وفرنجـة الشرق (٥ أعضـاء) لـدراسة اقتراح الملـك رتشـارد وتقديم توصيتهم بأسرع ما يمكن، فاجتمع هؤلاء الاشخاص، وبعد المداولة لبعض الـوقت اتفقوا على القول «بـأن **أكثر الخطـط قبولاً** هو التقدم مباشرة (نحو مصر) وحصار القاهرة»[٩].

ونتيجة لهذة التطورات قرر الفرنسيون مغـادرة المعسكر إلى يافا والساحل، وتلكأ رتشارد وقواته بعـض الوقت في بيت نوبة حيث كانـوا يتعرضون خلالها

---

(٨) *The Third Crusade*, p. 133 - 134.

(٩) المصدر ذاته، ص ١٣٤.

لغارات قوات صغيرة من جيش صلاح الدين، ثم تراجعوا أخيراً إلى المدن الساحلية [١٠].

وهكذا زال خوف السلطان صلاح الدين وأمرائه وقلقهم على المدينة المقدسة خاصة بعد توقيع صلح الرملة [١١]، مع ملك الإنكليز وعود هذا إلى بلاده.

وترتب على هذا الصلح أمران بالنسبة للمدينة : الأول السماح للحجاج الفرنجة بزيارة كنيسة القيامة والأماكن المقدسة الأخرى داخل المدينة [١٢]، والثاني موافقة السلطان على طلب أسقف سالزبوري الذي استضافه عند زيارته المدينة، بالسماح «لراهبين لاتينيين واثنين من الأعوان (Deacons) الأقل مرتبة منهما باقامة الخدمة الربانية (عند قبر السيد المسيح)، إضافة للنصارى السوريين، كما طلب أيضاً السماح لأعداد مماثلة في كل من كنيسة (المهد) في بيت لحم وكنيسة الناصرة [١٣]. ووافق السلطان على هذه المطالب فعين الأسقف من القساوسة اللاتين المرافقين له في كل من الأماكن المذكورة، وعاد إلى عكا. وهكذا انتهت الحملة الفرنجية الثالثة وزال خطرها المباشر على مدينة القدس التي نعمت بعد ذلك بفترة استقرار وازدهار قصيرة امتدت حتى أواسط العقد الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. لكن هذه التطورات لم تكن نهاية طمع الفرنجة في الغرب والشرق وعملهم لاستعادة نفوذهم وسيطرتهم على المدينة المقدسة بصورة أو بأخرى كما يتضح من الصفحات التالية.

---

(١٠) *The Third Crusade*, p. 141 - 142

النوادر السلطانية، ص ٢١١ وما بعدها.

(١١) عن صلح الرملة أنظر : النوادر السلطانية ص ٢٣٤ – ٢٣٥؛ *The Third Crusade* p. 157

(١٢) النوادر السلطانية، ص ٢٣٦ *The Third Crusade* p. 160ff.

(١٣) *The Third Crusade* p. 161 - 162.

٦ - القدس والفرنجة في فترة خلفاء صلاح الدين

بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي (جمادي الأول سنة ٥٨٩هـ / آذار سنة ١١٩٣م) اهتـم خلفاؤه بعمـران مدينـة القدس وتـوطين المسلمين فيها وإعادة صورتها كمدينـة اسلامية لها مكانتها الخاصة. ففـي بداية هذه الفترة تبعت المناطق الفلسطينية التي كانت بيـد الأيوبيين ومركزها القدس، إدارياً لمملكة دمشق الأيوبية، وكانت هـذه المملكة قد صارت، عندما وزع صلاح الدين البلاد الخاضعـة له بين أبنائه وأقاربه، من نصيـب ابنه الملك الأفضل نور الديـن علي الذي حكمها مدة عشر سنوات تقـريباً (٥٨٢ - ٥٩٢هـ / ١١٨٦ - ١١٩٦م). وقام هـذا الملك الأيوبي بمتـابعة أعمال والـده في اعادة الطابع الاسلامي إلى مدينـة القدس، فكان أن اتخذ الاجراءات التي أدت إلى اقامة حارة كاملة جديدة داخـل أسوار المدينة بالقرب من المسجد الأقصى، ووقف منطقة كـاملة للمغاربة الذيـن كانوا يعيشون في المدينة آنـذاك والذين سيفدون اليها للاقامة أو الزيارة، وبنى فيها فيما بعد مدرسة للمالكية إذ كان معظم سكـانها من أتباع هـذا المذهب[١]، وقد عـرفت هـذه الحارة فيما بعد بحارة المغاربة. ويـذكر مجير الدين العليمي أن وثيقة الوقـف الأصلية كانت مفقودة وأن المسـؤولين قاموا بتثبيت نـص الوقف فيما بعد وسجـل وحفظ في سجلات المحكمة الشرعية في القدس[٢]، وتم ذلك، كما يشير النص الملحق بهذه الـدراسة، في شهـر رجب سنـة ٦٦٠هـ / ايـار١٢٦٢م، أي في بدايـة الدولة المملوكية، ومن هذه الوثيقـة نستطيع تحديد المنطقة التي ضمتها حارة المغاربة تحديداً دقيقاً، كالتالي :

---

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ١٢، ص ٨٦ - ٨٧.

(٢) الانس الجليل، ج ٢، ص ٤٩.

الحد القبلي وينتهي إلى سور مدينة القـدس وإلى الطريق المسلوكة إلى عين سلـوان، والحد الشرقـي وينتهـي إلى حـائط الحرم الشريـف، والحد الشمالي وينتهي إلى القنطرة المعروفة بقنطـرة أم البنات، والحد الغربي وينتهي إلى دار الامام شمس الديـن قاضي القدس الشريـف ثم إلى دار الأمير عماد الـدين موسكي ثم إلى دار الأمير حسام الدين قايماز [٣].

وتـم في الفترة بين سنة ٥٨٩ - ٦١٦هـ / سنة ١١٩٣م - ١٢١٩م مـن تـاريخ مـدينة القـدس اعادة تـوطين المسلمين بـالتدريـج فعمرت حـاراتها وأسواقهـا، وكثرت المدارس فيهـا وانتشرت زوايا الصـوفية ووقفـت الأوقاف الكثيرة على هذه المؤسـسـات، وازدهرت الحيـاة في المدينة خـلال هذه الفترة التي لم تتعرض فيهـا لخطر الفرنجة، لكن التطورات التـي شهدتها المنطقة في السنوات الأخيرة مـن هذه الفترة، وقـدوم الحملة الفـرنجية الخامسـة اليها، غيرت حالة الأمن والاستقرار والازدهار.

بقيت أحوال مدينة القدس مستقرة على الرغم من الصراعات المستمرة بين ملوك البيت الأيوبي ومؤامراتهم ضد بعضهـم من أجل السيطرة والنفوذ، حتى قدوم الحملة الفرنجية الخامسة وحصارهـا لمدينة دمياط ومن ثم احتلالها لهذه المدينـة في ربيع سنـة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م. وقد أدى هذا الحادث إلى انتشـار الذعـر في ممالـك الأيوبيين في بلاد الشـام، وانتشرت الاشاعـات، التي ربما كانت صحيحـة، بنية الفرنجة بالتقدم مـن مصر إلى فلسطين للاستيلاء على القدس، وربما كان لغياب القوة العسكريـة لمملكة دمشق عن البلاد دور في زيادة هـذا الخوف، ذلك أن الملـك المعظم عيسى كـان قد تـوجه على رأس قواته إلى مصر لمساعدة أخيه الملك الكـامل بن العادل سلطان مصر آنذاك. تذكر المصادر أن المعظم عيسـى جمع أمراءه في مصر للتشاور فيما يجب عمله بالنسبـة لهذه الاشاعـات، فكان رأيهم أن الشام قـد خلى من الجنـد وأنه إذا

---

(٣) A Tibawi, *The Islamic pious foundations in Jerusalem*. London - the Islamic cultural centre, 1978, Append. II.

تمكن الفرنجة من الاستيلاء على القدس فإنهم سيسيطرون على كل ممالك الأيوبيين في بلاد الشام[٤]. لذلك كان لا بد من اتخاذ ما يمكن من اجراءات لمنع الفرنجة من الاستيلاء على القدس والتحصن بها، فكان قرار الملك المعظم الذي كان له أكبر الآثار على تاريخ المدينة المقدسة فيما بعد. فعندما وجد ملك دمشق أنه لا يستطيع التخلي عن مساندة أخيه في الظروف الصعبة التي كان يمر بها حكم الأيوبيين بمصر، والتوجه إلى مملكته لحمايتها وحماية القدس درة الفتوح الأيوبية الصلاحية، أصدر أوامره إلى أخيه العزيز عثمان وأستاذ داره عز الدين، اللذين كانا كما يبدو في مدينة القدس، بهدم أسوارها من الأساس حتى لا يتمكن الفرنجة في حال احتلالها من البقاء فيها والاستقرار داخل تحصيناتها المتينه، ولكن عثمان وأيبك حاولا التأني في تنفيذ قرار الملك، وأرسلا إليه رسولا أخبره أنهما لن يقوما بهدم السور، وأنهما قادران بما لديهما من قوات الحامية وغيرهم من الدفاع عنها وحمايتها، لكن المعظم الذي يبدو أنه كان يخشى أن يقع في القدس من المذابح وسفك الدماء ما حدث في تموز ١٠٩٩م اذا تمكن الفرنجة من احتلالها من جديد، كتب اليهما مرة أخرى مشدداً على وجوب تعفية الأسوار من أساساتها بسرعة، ويذكر على لسانه قوله : إنه إذا تمكن الفرنجه من الاستيلاء على القدس فإنهم سيقتلون كل من فيها ويسيطرون بعدها على الشام وبلاد الاسلام جميعها[٥].

وحتى يضمن الملك المعظم تنفيذ ما أمر به، أرسل مع كتابة مجموعة من المختصين بعمليات الهدم من المهندسين والحجارين والنقابين، وفي شهر محرم سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م بدأت عملية هدم أسوار مدينة القدس بصورة

---

(٤) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٦ ص ٢٤٤.

(٥) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

منظمـة ولم ينج مـن ذلـك الا برج داود حيـث كان يتمـركـز الوالي والحاميـة العسكرية [٦]. وكان هـذا الاجراء فاجعـة حقيقية لسكان المدينـة كما شكل ضربة قوية للسمعة الطيبة التي حققها صلاح الدين للأسرة الأيوبية في العالم الاسلامي آنذاك.

وكانـت ردة الفعل المباشرة لسكـان المدينة على تخريب السـور أن تجمعت أعداد كبيرة من الرجال والنساء والبنـات والشيوخ في ساحة المسجد الأقصى احتجاجـاً على هذا العمـل، ومزقـت النساء ثيـابهن وشعورهـن، ثم قـرروا بصورة عفوية وفي حالة من الذهول ترك المدينة والتوجه إلى مناطق أكثر أمناً، وساروا دون أن يأخذوا شيئاً من ممتلكاتهم وأموالهم وحتى دون رؤية أقاربهم، متوجهين في مختلـف الاتجاهات، فذهـب بعضهم إلى دمشـق وبعضهم إلى الكـرك وبعضهـم إلى مصر، ومـات الكثير منهـم مـن الجوع والعطـش في الطريق، ونهبـت الأموال التي كانـت لهم بالقدس، وبيعت للنـاس بحيث «بلغ ثمن القنطار الزيت عشرة دراهم والرطل النحاس نصف درهم» [٧].

وهجر معظـم سكان القدس مدينتهـم، نظراً لفقدان الاحساس بـالأمن والاطمئنان والحمايـة، ونقص عـدد سكان المد ينـة إلى درجة كبيرة، ولم يبـق فيها إلا الحاميـات العسكرية ورجـال الدولـة الآخرون، وبعض النـاس من المتعبدة والمجاورين وغيرهـم، وصارت المدينـة بالنسبة لعامة المسلمين وكأنها مكان يـزار، لكن ليس مكانـاً للقرار. وأصبحت القدس بعـد سنة ١٢١٩م ولمدة تزيد على قرن من الزمان لا أكثر مـن قرية صغيرة، وحتى هذا الوصف لم يكن، في نظر إبـن فضل الله العمري، صحيحا اذ يذكـر أنها لم تكن حتى أواخر العقد الثاني من القـرن الرابع عشر الميلادي تعتبر في المصطلح الاداري

---

(٦) يبدو أن برج داود كان مقر الوالي والحامية منذ زمن الفاطميين على الأقل.

(٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦ ص ٢٤٥.

المملوكي قرية، وأن وجودها أو عدمه سيان، لأنه لم يكن لها تحصينات [٨]، أما القلعة التي أبقي عليها في سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م فقد هدمت سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م، وبقيت خراباً حتى سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م عندما أعاد بناءها بكتمر الجوكندار كافل المالك المملوكية آنذاك [٩].

تغير سكان مدينة القدس بعد صيف سنة ١١٨٧م مرة أخرى، لكن هذا التغير لم يكن جذرياً وتاماً كما كان الأمر بعد صيف سنة ١٠٩٩م، خاصة وقد آثر سكان المدينة النصارى المحليين في التاريخ المذكور البقاء في المدينة كأهل الكتاب للاسلام والمسلمين كما بينا. وكان عدد سكان القدس في الوقت الذي بدأ فيه صلاح الدين حصارها، قد ازداد أضعافاً نتيجة للعمليات العسكرية بين المسلمين والفرنجة، ففي الفترة بين ٤ تموز وحتى أواخر أيلول سنة ١١٨٧م، صارت المدينة مركز التجمع للفرنجة الذين اضطروا نتيجة الحرب وسيطرة صلاح الدين على الساحل الجنوبي لفلسطين إلى اللجوء اليها طلباً لحماية أسوارها وتحصيناتها، ويؤكد هذه الحقيقة القاضي الفاضل في إحدى رسائله إذ يذكر أنه لم يبق على السلطان صلاح الدين إلا مدينة القدس التي تجمع فيها الفرنجة الهاربون من كافة البلاد [١٠]. وعندما

---

(٨) ابن فضل الله العمري؛ **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، جزء نشره ايمن السيّد، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ج ١ ص ١٣٨. ولا تزودنا المصادر بمعلومات عن مصير سكان المدينة من النصارى المحليين، لكن يبدو أنهم غادروا المدينة أيضاً. ويذكر ابن واصل، الذي رافق والده عندما عين مدرساً في الصلاحية ومسؤولاً عنها (كان ذلك بعد ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م مباشرة)، بأن اكثر السكان غادروها ولم يبق الاّ القليل. مفرج الكروب، ج ٤ ص ٣٢.

(٩) ابن فضل الله العمري، المصدر ذاته، ص ١٣٨ - ١٣٩.

(١٠) الأنس الجليل، ج ١ ص ٣٤٥.

سلمت مدينة عسقلان لصلاح الدين (آب - أيلول ١١٨٧م) وخرج أهلها الفرنجة منها، توجه قسم كبير منهم إلى القدس، وزودهم السلطان بالخفراء لايصالهم إلى مأمنهم[١١]. ووصلت إلى المدينة أيضاً أعداد كبيرة من الفرنجة الذين هربوا من مدن وحصون الفرنجة في جنوب فلسطين مثل عسقلان وغزة والرملة والقرى الكثيرة حولها. ووصل الازدحام في القدس إلى الحد الذي امتلأت فيه الكنائس والشوارع بحيث كان الحال فيها أن الانسان كان لا يستطيع المشي في شوارعها إلا بصعوبة من كثرة الناس[١٢].

ولكن هذا التجمع البشري الكبير في المساحة المحدودة التي ضمتها أسوار المدينة المقدسة، والذي وصل الى أكثر من سبعة أو ثمانية أضعاف سكانها في الأحوال العادية تبدد في أيام قليلة بعد الاتفاق على تسليم المدينة لصلاح الدين، فقد رحل كل الفرنجة الذين تجمعوا فيها، وخلا «حي البطريرك» من السكان، كما رحل معظم الفرنجة أصحاب الأسواق والتجار والمؤسسات الدينية والعسكرية، ولم يبق فيها من الفرنجة إلا أولئك الذين لم يتمكنوا من دفع الفدية المقررة عليهم، والذين أسروا وسبوا[١٣].

---

(١١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٥٤٦.

(١٢) المصدر ذاته، ص ٥٤٩ - ٥٥٠. ويرد في المصادر تقديرات مختلفة حول عدد الناس الذين كانوا في المدينة اثناء حصار صلاح الدين لها. يذكر العماد الكاتب انّ عددهم كان أكثر من مائة الف نسمة (اي عشرة أضعاف عددهم في الاحوال العادية) كان منهم ستون الفاً من المقاتلة. الفتح، ص ١٢٨. ويبدو ابن الأثير أكثر تأكداً من العدد حيث يذكر أنه كان فيها ستون الفاً من الفرسان والرجالة إضافة إلى الرجال والنساء. ولا يستغرب ابن الأثير هذا الرقم لأن المدينة كانت، في رأيه، كبيرة. ويمكن حساب العدد التقريبي من عدد اولئك الذين دفعوا القطيعة للخروج: ٢٠,٠٠٠ دفعوا (من اللاتين)، ١٨,٠٠٠ من الفقراء الذين اطلقهم باليان، ١٥,٠٠٠ أسروا (٧ آلاف رجال، ٨ آلاف نساء)، ١٥٠٠ من الأرمن الذين اعفوا من دفع القطيعة، ٥٠٠٠ أسير مسلم. والرقم الكلي ٦٠,٠٠٠. يضاف إلى ذلك النصارى المحليين الذين سمح لهم بالبقاء كأهل كتاب للمسلمين.

(١٣) الكامل في التاريخ، ج١١ ص ٢٥١ - ٢٥٢. وقد قام النصارى المحليون والتجار في جيش صلاح الدين بشراء معظم ما باعه الفرنجة وبأسعار رخيصة جداً.

وبقي أيضاً في المدينة فئات السكان من غير الفرنجة، من النصارى الشرقيين المحليين الذين كانوا يقيمون في حيهم الخاص بهم في الجهة الشمالية من المدينة، وبعض رجال الدين من اليونانيين وغيرهم من أتباع مذاهب الكنيسة الارثوذكسية الشرقية مثل الأرمن والكرج. أما نصارى القدس المحليين فقد أدخلوا بداية في شروط تسليم المدينة، ولكنهم آثروا البقاء، كما ينسب اليهم تعاونهم مع صلاح الدين أثناء الحصار، وقد دفعوا كما يبدو ما قرر عليهم من مال الفدية، ووافقوا على دفع الجزية عن رؤوسهم للدولة الجديدة، وطلبو من صلاح الدين البقاء في منازلهم، يتابعون حياتهم في المدينة كالمعتاد [١٤].

وتوافد المسلمون بعد الرابع من تشرين الأول سنة ١١٨٧ بالآلاف على القدس الشريف لزيارة الأماكن المقدسة التي حرموا من زيارتها مدة سيطرة الفرنجة عليها، ولكن القسم الأكبر من هؤلاء غادرها بعد اقامة قصيرة إلى مكة لتأدية فريضة الحج أو عائدين إلى أوطانهم [١٥]، اما السلطان صلاح الدين فقد أقام في معسكره على جبل الزيتون شرقي المدينة، لمدَّة كافية حتى يتمكن من ترتيب شؤون المدينة، ثم رحل في آخر شهر تشرين الأول إلى دمشق لمتابعة العمليات العسكرية ضد جيوب الفرنجة المتبقية في بلاد الشام.

---

(١٤) الفتح، ص ١٣٦؛ الكامل في التاريخ، ج ١١ ص ٥٥٢ - ٥٥٣.

(١٥) الفتح، ص ١٣٤.

وكان من أبرز التراتيب الادارية التي اتخذها السلطان أن عين ضياء الدين عيسى الهكاري، أحد رجاله الأكراد الموثوقين، والياً على المدينة، والذي أناب بدوره أخاه الظهير مكانه، وعين سياروخ التركي ناظراً للحرم الشريف الذي انتقل بعد ذلك إلى ولاية المدينة والمناطق التابعة لها [١٦]، كما رتب السلطان حامية مناسبة في القلعة.

مما تقدم نرى أن المجموعات الأولى من المسلمين الذين توطنوا في القدس بعد سنة ١١٨٧م كانوا من الجند ورجال الدولة الذين تولوا المراكز الادارية فيها وأفراد عائلاتهم إضافة إلى العلماء والفقهاء والصوفية الذين رُتبوا للتدريس في المدارس التي أنشئت والأربطة التي وقفت لرجال الصوفية ونظار الأوقاف والمساجد والوعاظ والمؤذنين في المسجد الأقصى وغيره من المساجد، وسكنت هذه الفئات جميعاً حول المسجد الأقصى وفي مختلف أجزاء «حي البطريرك» الكبيرة.

وعندما عاد السلطان الأيوبي إلى مدينة القدس في ذي القعدة سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م للإشراف على تحصينها، كانت الحياة العادية قد بدأت تعود اليها بالتدريج، واهتم صلاح الدين في هذه الزيارة، كما ذكرنا، ببناء الأسوار واقامة البيمارستان وتجهيزه، وزيادة الأوقاف على المؤسسات الخيرية التي أقامها في السابق.

واستمر عمران المدينة بعد وفاة صلاح الدين، وأقيمت فيها أحياء جديدة في عهد خلفائه من ملوك البيت الأيوبي في بلاد الشام، ومن هذه الحارات

---

(١٦) المصدر ذاته، ص ٥٧٩. ويورد مرسوم تعين سياروخ ص ٥٨٠ – ٥٨١. وقد مات الظهير سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م وتوفي عيسى في نهاية السنة ذاتها. ولم يعين صلاح الدين والياً بعد عيسى مباشرة حتى عينّ سياروخ. وعين عز الدين جُرديك والياً سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م. النوادر السلطانية، ص ٢٤٠.

الجديدة التي أقيمت واستمرت بعد ذلك، حارة المغاربة وحارة اليهود، أما حارة المغاربة فقد تحدثنا عنها في السابق[١٧] وأقيمت حارة اليهود إلى الغرب من الحارة السابقة، وكان يفصل بينهما حارة الشرف التي سكنها، كما يبدو، وجهاء المدينة في ذلك الوقت.

في بداية احتلال الفرنجة للقدس لم يسمح لليهود بالسكنى فيها، أما في أواخر هذه الفترة فيرد ذكر لعدد قليل من الأفراد الذين سُمح لهم بالاقامة فيها[١٨]، وكانوا يسكنون قرب القلعة وقصر الملك الفرنجي. واتخذ صلاح الدين من التسامح سياسة تجاه اليهود الذين أذن لهم بالسكنى فيها، فبدأوا بالتوافد اليها بأعداد كبيرة بحيث صار لهم حارة خاصة بهم، وكان من أوائل الجماعات اليهودية التي سكنت القدس في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين، حسب ما ذكر برافر، ثلاث فئات: يهود عسقلان في الفترة الفرنجية الذين انتقلوا اليها بعد تهديم عسقلان سنة ١١٩١م، ويهود من المغرب الذين هربوا من هناك إلى الشرق حوالي سنة ١١٩٨ - ١١٩٩م، ويهود من فرنسا الذين هاجروا إلى فلسطين على دفعتين سنة ١٢١٠م والذين قدر عددهم بثلاثمائة عائلة[١٩]. ثم هاجر يهود القدس من المدينة إلى الساحل الفلسطيني نتيجة للتطورات التي وقعت في القدس في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي. فهدم المعظم عيسى لأسوار المدينة أدى إلى ترك معظم سكانها لها، إذ لم تعد مكاناً آمناً يشعر أهله بالاطمئنان على حياتهم وأعمالهم، ثم كان التطور الكبير الثاني الذي أثر على اليهود بصورة خاصة، عندما سلمت القدس إلى الامبراطور فردريك الألماني

---

(١٧) أنظر ص٨٧ أعلاه.

(١٨) أنظر رحلة بنيامين التطيلي.

(١٩) J. Prawer, "Minorities in the Crusader States", in *A History of the Crusades*, Vol. V, p. 97.

في سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م أصدر تشريعات جديدة ضد اليهود، وتمثلت بمنعهم من السكن في المدينة مرة أخرى كما كان الوضع في الفترة اللاتينية الأولى، لكن بعد مفاوضات بين اليهود والسلطات الفرنجية سمح لعائلة يهودية واحدة بالعيش في المدينة لتكون دارها محطة للحجاج اليهود الذين يسمح لهم بزيارة القدس[٢٠].

يمكن تقسيم فترة الستين سنة من تاريخ المدينة المقدسة بعد سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م إلى فترتين متميزتين، كما يمكن اعتبار السنة التي هدمت فيها أسوار المدينة وتحصيناتها الجيدة التي أقامها صلاح الدين كحدٍ فاصلٍ بين هاتين المرحلتين.

كان من أبرز متطلبات الحياة في المدن والبلدان في العصور الوسطى في بلاد الشام، هو توفير الأمن والإستقرار اللذين يمكنا الناس من متابعة حياتهم العادية وممارسة أعمالهم دون خوف أو قلق. وكان يمكن توفير الحد الأدنى من هذه المتطلبات عن طريق التحصينات بأنواعها المختلفة من أسوار منيعة وأبراج وخنادق وفصائل، وشحن هذه المدن بالحاميات العسكرية المناسبة التي تستطيع الدفاع عن المدينة ودفع هجوم القوى التي تهاجمها وتزويدها بآلات الحرب والأسلحة التي يحتاج اليها في مثل هذه العمليات إضافة إلى المؤن والاقوات.

في سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م حرمت مدينة القدس فجأة من معظم، إن لم يكن كل، هذه الاساسيات الدفاعية: فقد سويت أسوارها بالأرض، ونقلت حاميتها إلى أماكن أخرى، ونقلت خزائن السلاح التي كانت فيها إلى مدينة دمشق[٢١].

---

(٢٠) برافر، المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٢١) كانت خزائن السلاح في مدينة القدس تتكون من الأسلحة التي تركها الفرنجة عند مغادرتهم المدينة، كما قام العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين، عند دخول والده المدينة، بترك كل خزائن سلاحه من مختلف الأنواع فيها. الفتح، ص ١٤٤.

ورغم ذلك فقد كان من الممكن أن يتحمل سكان المدينة هذا الوضع لو كانت الظروف السياسية للمنطقة تساعد على ذلك عن طريق توفر الأمن والاستقرار ووحدة البيت الأيوبي بصورة خاصة.

فصلاح الدين يوسف، الذي بنى وحدة العالم الإسلامي في مواجهة الفرنجة وحقق ما حقق من نجاح، كان قد توفي في بداية الفترة المذكورة (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) أما رفيق دربه الطويل وساعده الأيمن، وأكبر سياسي البيت الأيوبي، الملك العادل، فقد توفي قبل تهديم أسوار القدس بسنة (٦١٥هـ/ ١٢١٨م). من ناحية أخرى تمكن فرنجة الحملة الخامسة من الاستيلاء على دمياط، وصاروا يهددون ليس فقط مركز السلطنة الأيوبية وإنما بلاد الشام جميعها، وأدى ذلك كله إلى القرار الخطير الذي اتخذه الملك المعظم عيسى والذي كان له أبعد الأثر على تاريخ المدينة المقدسة لمدة تالية تزيد على قرن من الزمان، وكان مما ساعد على نجاح هذا القرار في التأثير على تاريخ المدينة، استمرار النزاعات والخلافات بين أبناء البيت الأيوبي على السلطة والنفوذ. ويضاف إلى ذلك كله أن مملكة القدس الفرنجية كانت لا تزال، من مركزها في مدينة عكا، تسيطر على الساحل الفلسطيني حتى حدود مصر جنوباً، وعلى عدد من القلاع والحصون المنيعة التابعة للداوية والاسبتارية.

في مثل هذا الوضع المضطرب في المنطقة، والحالة التي وصلت اليها أوضاع القدس فقد هجر معظم السكان المسلمين الجدد المدينة، كما هجرها معظم النصارى المحليين إلى أماكن جديدة حيث يمكنهم العيش بأمان واطمئنان.

وانتهى تهديد الحملة الفرنجية الخامسة، وانسحبوا من دمياط، ولم تتحقق الإشاعات التي انتشرت في المنطقة، ولم يشكل فرنجة الساحل تهديداً

لمدينة القدس آنذاك. وربما أدى هذا الاستقرار النسبي، الذي استمر عشر سنوات، إلى عودة بعض سكان المدينة اليها، إذ كان النفوذ الأيوبي في المدينة لا يزال قائماً، كما أن المؤسسات التي أقامها صلاح الدين وبعض خلفائه كانت لا تزال تؤدي مهامها بصورة أو بأخرى حتى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م.

وفي سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) وقع تطور جديد في تاريخ القدس وشكل تكملة للتطور الذي وقع قبل ذلك بعشر سنين، فنتيجة للصراع بين ملوك الأيوبيين المستمر، خاصة ما كان بين السلطان في مصر وصاحب دمشق، اتخذ السلطان الملك الكامل قراراً حقق للفرنجة ما لم تحققه العمليات العسكرية الفرنجية التي تمت بعد صلاح الدين، والذي أثار ضجة كبيرة في كل العالم آنذاك، فبعد مفاوضات بين هذا السلطان والامبراطور فريدريك الثاني، وافق السلطان الأيوبي على تسليم القدس – ما عدا منطقة الحرم التي أبقيت بيد المسلمين – للفرنجة، وكانت حُجَّة الملك الكامل في عمل ذلك أنه لم يكن بامكانه في تلك الظروف أن يحمي المدينة ويدافع عنها أمام قوات الحملة التي قادها الامبراطور الالماني. واضطربت الحياة في المدينة المقدَّسة من جديد.

وامتدت سيطرة الفرنجة هذه المرة عشرة سنوات (٦٢٦هـ – ٦٣٦هـ ١٢٢٩م – ١٢٣٩م) لكنهم لم يتمكنوا من تثبيت سلطتهم فيها نظراً لعلاقة الأمبراطور فريدريك الثاني السيئة مع الكنيسة الكاثوليكية ومملكة القدس الفرنجية التابعة لها، وهيئات الفرسان العسكرية. وفي سنة ١٢٣٩م، أي بعد انتهاء مدة الاتفاق بين الأمبراطور والسلطان الكامل (ت ١٢٣٥م)، تمكن ملك الكرك الأيوبي من الاستيلاء على القدس بسهولة وضمَّها إلى المناطق التي كانت تخضع لنفوذه، ثم قام بهدم آخر الأماكن المحصّنة فيها وهو برج داود الذي كان الفرنجة قد زادوا في تحصيناته أثناء اقامتهم هذه

المدة، مما قضى على آخر ملجأ أمين لسكان المدينة [٢٢].

وعاد الفرنجة إلى القدس مرة أخرى بعد سيطرة صاحب الكرك بأربع سنوات (١٢٤٣م) وقبل أن يتمكنوا من تثبيت نفوذهم فيها (١٢٤٤م) استولى الخوارزمية الذين هربوا من الشرق أمام الزحف المغولي عليها، ونتج عن هذه التطورات المتلاحقة التي أصابت القدس والتهديد المستمر لها من قبل بقايا الفرنجة في فلسطين أن صارت خرابا. يذكر ابن فضل الله العمري أن حالة الخراب هذه امتدت حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي[٢٣].

وليس أدل على وصف مقدرات القدس خلال الفترة التي عالج خطوطها العامة هذا البحث من النتيجة التي توصل اليها مؤرخ الفرنجة في الثمانينات من القرن الثاني عشر الميلادي، عندما ذكر في مؤلفه المشهور :

«وهكذا فإن المدينة المقدسة . . . . بأحداثها المتغيرة باستمرار التي كانت تؤدي إلى تغير أصحابها، وقد مرت المدينة بفترات مزدهرة وأخرى صعبة طبقاً لشخصيات الأمراء الذين حكموها، وكانت أحوالها كأحوال الرجل المريض تتحسن أو تسوء حسب تصرفات الزمان، لكن العافية التامة كانت مستحيلة»[٢٤].

---

(٢٢) أنظر الملحق الخاص بوصف هذا البرج وكيفية الاستيلاء عليه من قبل الناصر داود الأيوبي، في الرسالة التي بعث بها إلى الخليفة العبّاسي. ابن شدّاد، **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين. تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية. دمشق، ١٩٦٢. ص ٢٢٦ – ٢٣٣.

(٢٣) أنظر ما تقدّم ص ٨٩ – ٩٠.

(٢٤) وليم الصوري، **تاريخ الأعمال** (بالانكليزية)، ص ٦٣ – ٦٤.

الملاحق

القدس في أواسط القرن العاشر الميلادي

(أبو عبد الله محمد المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. ط ٢. تحقيق دي خوية. ليدن، ١٩٠٦. ص ١١٥ - ١١٨).

«ليس في مدائن الكور أكبر منها . . . . لا شديدة البرد، وليس بها حَرّ، وقل ما يقع فيها ثلج . . . بنيانهم حَجَر لا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولا أعف من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها ولا أكثر من مشاهدها، عنبها خطير . . . وفيها كل حاذق وطبيب، وإليها قلب كل لبيب ولا تخلو كل يوم من غريب . . . . . . ثم لا ترى أقذر من حمّاماتها، ولا أثقل مؤونة، قليلة العلماء، كثيرة النَّصارى، وفيهم جفاء، على الرحبة والفنادق ضرائب ثقال على ما يباع، فيها رجالة على الأبواب فلا يمكن أحد أن يبيع شيئاً مما يرتفق به الناس الاّ بها، مع قلة يسار وليس للمظلوم أنصار، والمستور مهموم والغني محسود، والفقيه مهجور، والأديب غير مشهور، لا مجلس نظر ولا تدريس، قد غلب عليها النصارى واليهود، وخلا المسجد من الجماعات والمجالس.

وهي أصغر من مكة وأكبر من المدينة، عليها حِصْن بعضه على جبل وبقيته على خندق ولها ثمانية أبواب حديد :

باب صَهْيُون، باب التيه، باب البلاط، باب جُبّ إرميا، باب سِلوان، باب أريحا، باب العَمُود، باب مِحْراب داود.

والماء بها واسع، ويقال ليس ببيت المقدس أمكن من الماء والأذان، وقل دار ليس بها صهريج وأكثر، وبها ثلاث برك عظيمة : بركة بني إسرائيل، بركة سليمان، بركة عياض، عليها حمّاماتهم لها دواع من الأزقة».

«. . . وحد القدس (الولاية) ما حول ايلياء* إلى أربعين ميلاً يدخل في ذلك القصبه ومدنها واثنا عشر ميلاً في البحر وصغر ومآب وخمسة أميال من البادية، ومن قبل القبلة إلى ما وراء الكسيفة وما يحاذيها ومن قبل الشمال تخوم نابلس . . .» ص ١٧٣ .

من وصف ناصر خسرو للقدس

(سفرنامة . ترجمة يحيى الخشاب . ط ٣ . بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٨٣ . ص ٥٦ – ٥٧ .

«في الخامس من رمضان سنة ٤٣٨(هـ/ ٥ آذار ١٠٤٧م) بلغنا بيت المقدس . وكان قد مضى على خروجنا من بلدنا سنة شمسية، وطوال رحلتنا لم نقر في مكان قط ولا وجدنا راحة كاملة . وأهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس (القدس) . ويذهب إلى القدس في موسم الحج من لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات، فيتوجه إلى الموقف ويضحّي ضحية العيد كما هي العادة . ويحضر هناك لتأدية السُّنَة، في بعض السنين، أكثر من عشرين ألف شخص في أوائل ذي الحجة، ومعهم أبناؤهم . كذلك يأتي لزيارة بيت المقدس، من ديار الروم، كثير من النصارى واليهود، وذلك لزيارة الكنيسة والكنيش هناك . وهناك كنيسة عظيمة سيأتي وصفها في مكانه . وسَواد وَرساتيق بيت المقدس جبلية كلها، والزِّراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء، والخيرات بها كثيرة ورخيصة، وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين الف مَنٍ من زيت الزيتون، يحفظونها في الآبار والأحواض، ويصدرونها إلى أطراف العالم . ويقال إنّه لا يحدث قحط في بلاد الشام . وسمعت من ثقات أن ولياً رأى النبي عليه السلام في المنام فقال له : «ساعدنا في معاشنا يا رسول الله»،

---

* الاسم الروماني للمدينة المقدسة .

فأجابه النبي عليه السلام : «عليّ خبز الشام وزيته» . (ص ٥٥ - ٥٦) .

وصف بيت المقدس :

«هي مدينة مشيدة على قمة الجبل ، ليس لها ماء غير الأمطار، ورساتيقها ذات عيون . والمدينة محاطة بسور حصين ، من الحجر والجص ، وعليها بوابات حديدية . وليس بقربها أشجار قط ، فإنها على رأس صخر . وهي مدينة كبيرة كان بها ، في ذلك الوقت ، عشرون ألف رجل ، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية ، وكل أرضها مبلطة بالحجارة ، وقد سّووا الجهات الجبليّة والمرتفعات ، وجعلوها مُسَطَّحَة . بحيث تُغْسَل الأرض كلها وتنظف حين تنزل الأمطار . وفي المدينة صنَّاع كثيرون ، لكل جماعة منهم سوق خاصة ، والجامع شرقي المدينة وسوره هو سورها الشرقي . وبعد الجامع سهل كبير مستوٍ يسمى «الساهرة» يقال إنه سيكون ساحة القيامة والحشر . . . وبين الجامع وسهل السَّاهرة واد عظيم الإنخفاض كأنه خندق ، وبه أبنية كثيرة على نسق أبنية الأقدمين . ورأيت قبة من الحجر المنحوت مقامة على بيت لم أر أعجب منها ، حتى أن الناظر اليها ليسأل نفسه كيف رفعت في مكانها؟ ويقول العامة إنها بيت فرعون . وإسم هذا الوادي «وادي جهنم» . وقد سألت عمن أطلق هذا اللقب عليه فقيل إنَّ عمر رضي الله عنه أنزل جيشه أيام خلافته في سَهْل السَّاهِرة هذا ، فلما رأى الوادي قال : هذا وادي جهنم . ويقول العوام إنّ من يذهب إلى نهايته يسمع صياح أهل جهنم ، فإنّ الصدى يرتفع من هناك ، وقد ذهبت فلم أسمع شيئاً . . . وحين يسير السائر من المدينة ، جنوباً ، مسافة نصف فرسخ ، وينزل المنحدر ، يجد عين ماء تنبع من الصَّخْر ، تسمى عين سلوان . وقد اقيمت عندها عمارات كثيرة . ويمر ماء هذه العين بقرية شيدوا فيها عمارات كثيرة وغرسوا بها البساتين . إن من يستحم من ماء هذه العين يشفى مما ألمّ به من الأوصاب والأمراض المزمنة . وقد وقفوا عليها مالاً كثيراً . وفي بيت المقدس مستشفى

عظيم عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء، وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف المقرر لهذه المستشفى. ومسجد الجمعة على حافة المدينة من الناحية الشرقية، وإحدى حوائط المسجد على حافة وادي جهنم. وحين ينظر السائر من خارج المسجد يرى الحائط المطل على هذا الوادي يرتفع مائة ذراع من الحجر الكبير الذي لا يفصله عن بعضه جص». (ص ٥٦ – ٥٧).

كنيسة بيعة القيامة :

«وللنصارى في بيت المقدس كنيسة يسمونها «بيعة القيامة» لها عندهم مكانة عظيمة. ويحج اليها كل سنة كثير من بلاد الروم، ويزورها ملك الروم متخفياً، حتى لا يعرفه الناس. وقد زارها أيام عزيز مصر الحاكم بأمر الله فبلغ ذلك الحاكم، فأرسل اليه أحد حراسه – بعد أن عرفه أن رجلاً بهذه الحلية والصورة يجلس في كنيسة بيت المقدس – وقال له : «اذهب عنده وقل له : ان الحاكم ارسلني اليك ويقول : لا تحسبني أجهل أمرك، ولكن كن آمناً فلن اقصدك بسوء»، وقد أمر الحاكم هذا بالإغارة على الكنيسة فهدمها وخربها. وظلت خربة مدة من الزمان. وبعد ذلك بعث القيصر اليه رسلا، وقدم كثيراً من الهدايا والخدمات وطلب الصلح والشفاعة ليؤذن له بإصلاح الكنيسة فقبل الحاكم وأعيد تعميرها.

وهذه الكنيسة فسيحة تسع ثمانية آلاف رجل، وهي عظيمة الزخرف، من الرخام الملون والنقوش والصور، وهي مزدانة من الداخل بالديباج الرومي والصور، وزينت بطلاء من الذهب. وفي أماكن كثيرة منها صورة عيسى عليه السلام راكباً حماراً، وصور الأنبياء الآخرين مثل : ابراهيم وإسحق ويعقوب وأبنائهم عليهم السلام. وهذه الصور مطلية بزيت السندروس. وقد غطي سطح كل صورة بلوح من الزجاج الشفاف على قدها، بحيث لا يحجب منها شيء وذلك حتى لا يصل الغبار اليها وينظف الخدم هذا الزجاج كل يوم. وهناك عدا ذلك عدة مواضع أخرى كلها مزينة، ولو وصفتها لطالت كتابتي».

وصف ابن العربي للقدس (٤٨٦هـ / ١٠٩٣م)
ذكر دخول بيت المقدس

(«رحلة ابن العربي» . **الأبحاث**، ١٩٦٨ ص ٧٩ - ٨٢)

« . . . فدخلنا الأرض المقدسة، وبلغنا المسجد الأقصى، فلاح لي بدر المعرفة فاستنرت به أزيد من ثلاثة أعوام. وحين صلّيت بالمسجد الأقصى فاتحة دخولي بها، عمدت إلى المدرسة الشّافعيّة بباب الأسباط فألفيت بها جماعة من علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم القاضي الرشيد يحيى الذي كان استخلفه عليهم شيخنا الإمام الزاهد نصر بن ابراهيم النابلسي المقدسي وهم يتناظرون على عاداتهم . . . واقمت حتى انتهى المجلس، فكررت راجعاً إلى منزلي وقد تأوبني حرصي القديم، وغلبني على جدي في التحصيل والتعليم . . . (وقراره البقاء في القدس للدرس) ومشيت إلى شيخنا أبي بكر الفهري (الطرطوشي) . . . وكان ملتزما في المسجد الأقصى - طهّره الله - بموضع يقال له الغُوير، بين باب أسباط ومحراب زكريا . . . . . . فاتخذت بيت المقدس مباءة، والتزمت فيه القراءة. . . وخصوصاً بقبة السلسلة، منه تطلع لي الشمس على الطور وتغرب على محراب داود . . . وأدخل الى مدارس الحنفية والشافعية في كل يوم لحضور التناظر بين الطوائف، لا تلهينا تجارة، ولا تشغلنا صلة رحم، ولا تقطعنا مواصلة ولي وتقاة عدو» .

« . . . وكنا نفاوض الكرامية والمعتزلة والمشبهة واليهود، وكان لليهود بها حبر منهم يقال له التستري لقناً فيهم ذكياً بطريقتهم. وخاصمنا النصارى بها، وكانت البلاد لهم يأكرون (يؤجرون الارض مُزارعة) ضياعها ويلتزمون أديارها ويعمرون كنائسها . . . .

وقد حضرنا يوما مجلسا عظيما فيه الطوائف . . . »

محراب داود – قلعة القدس

من قانون التأويل، لأبي بكر بن العربي

(أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي . احكام القرآن، تحقيق محمد علي البجاوي .
ط ١ . القاهرة، دار احياء الكتب العربية، ١٩٥٨، ق٤، ص ١٥٨٦).

« . . . شاهدت محراب داود عليه السلام في بيت المقدس، بناءً عظيماً من حجارة صلدة لا تؤثر فيه المعاول، طول الحجر خمسون ذراعاً وعرضه ثلاثة عشر ذراعاً وكلما قام بناؤه صغرت حجارته، ويرى له ثلاثة أسوار، لأنه في السحاب أيام الشتاء كلها، لا يظهر لإرتفاع موضعه وإرتفاعه في نفسه، له باب صغير ومَدْرَجَة عريضة، وفيه الدُّور والمساكنْ، وفي أعلاه المسجد، وفيه كُوَّة شرقيَّة إلى المسجد الأقصى في قدر الباب ويقول الناس : إنّه تطلع منها على المرأة حين دخلت عليه الحمامة، وليس لأحد في هدمه حيلة، وفيه نجا من نجا من المسلمين حين دخلها الرُّوم (الفرنج) حتى صالحوا على أنفسهم بأن سَلَّموه اليهم، على أن يَسْلَمُوا في رقابهم وأموالهم، فكان ذلك وتخلوا لهم عنه .

ورأيت فيه (المحراب)، غريبة الدَّهْر، وذلك أن ثائراً ثار به على واليه وإمتنع فيه بالقوة، فحَاصَره، وحاول قتاله بالنشَّاب مدة، والبلد على صغره مستمرة على حاله، ما أغلقت لهذه الفتنة سُوق، ولا سار اليها من العامة بشر، ولا برز للحال من المسجد الأقصى معتكف، ولا انقطعت مناظرة، ولا بطل التدريس، وإنما كانت العسكرية قد تفرقت فرقتين يقتتلون، وليس عند سائر الناس لذلك حركة، ولو كان بعض هذا في بلادنا (الأندلس) لاضطرمت نار الحرب في البعيد والقريب، ولانقطعت المعايش، وغلقت الدكاكين وبطل التعامل، لكثرة فُضُولنا وقلَّة فضولهم» .

حالة مدينة القدس – لمؤلف مجهول

(٥٨٣ – ٥٨٤هـ / ١١٨٧ – ١١٨٨م)

(*Anonymous Pilgrims* in PPTS. New York, AMS Press, 1971, pp. 8,11,15, 24, 25)

«في مدينة القدس أربعة أبواب رئيسية تقع متقابلة في كل جهة من الأسوار وبين الرتوق (Posterns) وسأسميها كالتالي :

يقع باب داوود في الجهة الغربية (من السّور) ومقابل تماماً للباب الذّهبي (في سُور الحرم الشرقي) الذي يقع في الجهة الشرقية خلف قبة المعبد (الصخرة) ، وهذا الباب جزء من برج داوود ولذلك سمي بذلك الإسم. وتعبر داخل هذا الباب إلى جهة اليمين إلى شارع . وقرب برج داوود يمكن أن تذهب إلى جبل صَهْيُون عن طريق الرتق هناك ، وعندما تسير باتجاه هذا الرتق في هذا الشارع تجد إلى يسارك كنيسة القديس جيمس شقيق القديس يوحنا المعمدان . . .

والشارع الأعظم الذي يتجه من برج داوود ، باستقامةٍ إلى الباب الذهبي يسمى (من بدايته إلى موقع منصات الصرافين) بشارع داوود . ويوجد إلى اليسار من برج داوود مكان كبير (وواسع) كانوا يبيعون فيه القمح . وبعد السير قليلاً في شارع داوود تجد إلى الشمال شارعاً يدعى بشارع البطريرك لأن البطريرك كان يسكن عند رأسه . وهنالك باب في الجهة اليمنى (للصاعد) من شارع البطريرك ، يدخل منه إلى داخل بيت الإسبتارية ، وبعد هذا الباب هنالك باب آخر هو الذي يدخل منه إلى كنيسة القيامة لكنه ليس ا لباب الرئيسي لها .

وعندما تصل إلى موقع منصات الصرافين حيث ينتهي شارع داوود يوجد شارع جبل صهيون لأنه يذهب باستقامةٍ إلى جبل صهيون . ويقع إلى اليسار من موقع منصات الصرافين شارع مسقوف (مغطى) بقناطر يدعى سُوق العَطارين حيث يباع جميع أنواع الأعشاب والفواكة والتوابل في المدينة . وعلى رأس هذا الشارع مكان يباع فيه السمك ، وإلى اليسار خلف هذا المكان الأخير مكان يباع فيه الجبنة والبيض والدَّجاج والطيور الأخرى . أما إلى اليمين من هذا فتقع دكاكين صاغة الذهب من النصارى السوريين (النصارى المحليون) وهنا أيضا تباع(Palms) العطور التي يحضرها الحجاج من وراء البحار. وإلى اليسار من هذا السوق تقع دكاكين صاغة الذهب اللاتين ، وفي نهاية هذه الدكاكين يقع دير للراهبات يسمى دير القديسة مريم العظيمة ، وبعده دير للرهبان السود يسمى باسم القديسة مريم اللاتينية ، ثم بعد ذلك يأتي بيت الإسبتارية حيث يقع هنا الباب الرئيسي (لبيت) الإسبتار.

وإلى اليمين من بيت الإسبتار يقع الباب الرئيسي لكنيسة القيامة حيث يوجد أمامه ساحة مكشوفة جيلة مرصوفة (مبلطة) بالرخام . . . . (ص ٨) .

(ص ١١) . . . . . . وأعود إلى موقع الصرافين ، فقبل هذا الموقع يقع شارع قرب شارع العطارين يسمى شارع اللحَّامين(Nal-quisinat) حيث يطبخ فيه الطعام للحُجّاج ويباع ، كما يغسلون رؤوسهم ويذهبون منه إلى كنيسة القيامة . وأمام هذا السوق سوق آخر يدعى السُّوق المغطى (المسقوف) لأنه مسقوف كلياً ويبيعون فيه مواد مختلفة . ومن هذا الشارع يذهب الإنسان إلى كنيسة القيامة .

نترك الآن موضع الصرافين ونتجه إلى الباب الذّهبي (باب الرّحمة) ، والشارع الذي يقع بين هذين ا لموضعين (الأصح إلى باب الحرم [السِّلْسِلة]

يسمى شارع المَعْبَد الذي سمي بهذا الإسم لأنه يوصل إلى المعْبَد (قبة الصخرة) والباب الذهبي.

وعندما تسير في هذا الشارع (باتجاه الباب الذهبي) تصل إلى موضع اللحّامين الذي يقع إلى اليسار وحيث يباع كل لحم المدينة. وهنالك شارع إلى الجهة اليمنى يوصل إلى المستشفى الألماني ويسمى شارع الألمان؛ وفي هذا الشارع إلى جهة اليسار وعلى الجسر تقع كنيسة القديس غيلز (الصنجلي). وعلى رأس هذا الشارع يقع باب يسمى بالجميل الذي يقع في السور بين المدينة (والحرم) حيث الباب الذهبي. . .

(ص ١٥) . . . سأذكر الآن البابين الباقيين الذي يقع الواحد منهما مقابل الآخر فالباب الذي يقع في الجهة الشمالية يدعى باب القديس اسطفان، ومن هذا الباب دخل الحُجّاج إلى المدينة (سنة ١٠٩٩م)، وكل من يصل إليها عن طريق عكا أو عن طريق البرّ من النهر أو من البحر جهة عسقلان.

وعندما يقترب المرء من هذا الباب للدخول يجد إلى اليمين كنيسة تسمى باسم القديس اسطفان . . . وأمام هذه الكنيسة إلى اليسار تقع بناية كبيرة كانت اسطبلا لخيول وحمير الإسبتارية وقد هدمت هذه الكنيسة من قبل اللاتين قبل حصار المدينة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) نظراً لقربها من الأسوار، أما الإسطبل فلم يهدم، وكان له فائدة فيما بعد لخدمة الحُجاج من المسيحيين الذين وفدوا إلى القدس خلال الهُدْنة، عندما صارت المدينة بأيدي المسلمين، إذ لم يسمح للحجاج بالبقاء في داخل المدينة، وإنما في هذه البناية . . . فقد كان بقرب المستشفى رَتْق يسمى باسم القديس لادر، فمن هنا كان المسلمون يقودون (الحجاج) المسيحيين إلى داخل المدينة ثم إلى كنيسة القيامة، لأنهم لم يرغبوا بأن يرى المسيحيون ما يجري في المدينة . . .

عند دخول المدينة من باب القديس اسطفان تصل إلى (مفرق) شارعين

أحدهما إلى اليمين ويتجـه إلى باب جبـل صهيون في الجنـوب الذي يقـع في مقابل باب القديس اسطفان أما الشارع إلى اليسار فيتجه باستقامة إلى الرتق الذي يدعـى بالقطانين (Tannery) ويمر تحت الجسر. هـذا الشارع الـذي يتجه إلى باب جبـل صهيون يدعى شارع القديـس اسطفان إلى أن تصل إلى (موضع) الصرافين السوريين.

وعندما يصـل (السائر في هذا الشارع) إلى (مـوضع) الصرافين السوريين يجد إلى اليمين شـارع (كنيسـة) القيـامــة . . . وأمـا م مـوضـع الصرافين السوريين (النصارى)وعنـد الإتجاه إلى اليمين يوجد سوق مغطى على شكل قناطر يصل (الماشي) عن طريقه إلى كنيسة القيامة. ويبيع السوريون في هذا الشارع أشياءهم (أغراضهم) ويصنعون الشموع.

وأمام موضع الصرافين أيضا يبيعون السَّمك. وعند (طرف) هذه الشوارع الثلاثة يقـع موضع الصرافين السوريين كما يقـع عند (طرفها) الآخـر موضع الصرافين اللاتين. وأحـد هذه الشوارع يسمى بـالشارع المغطى، وفيـه يبيع اللاتين بضائعهم، ويـدعى الثاني شارع العَطارين والثـالـث شارع الطعام. وتسير في شارع العطـارين فتصل إلى شارع جبـل صهيون وبذلـك تصل إلى بوابة جبل صهيون بعد قطع شارع داوود.

ومن الشارع المغطى تمر بموضع الصرافين الـلاتين إلى شارع يدعى بشارع قنطرة يهودا ثـم تقطع شـارع المعبـد. ويتجه هذا الشـارع باستقامـة إلى جبل صهيون ويسمى هـذا الشارع بشارع قنطرة يهودا، ويقع إلى اليسـار من هذا الطريق كنيسة القديس مارتن وكنيسة القديس بطرس التي تقع بقربها. . .

(ص ٢٤) . . . وأعود الآن إلى كنيسـة القديـس اسطفان وإلى الشـارع الـذي يتجه إلى اليسـار (بعد مفترق الطـرق المذكـور سابقـاً). ويصل هـذا الطريـق إلى رتق القطانين فبعـد المسير بعض المسـافة في هذا الشـارع (شارع الإسبان) تجد شارعاً إلى اليسار منك يسمى شارع الأسباط (Jehoshaphat) وبعد مسـافة قليلة تجد تقاطعـاً للطرق، فالطـريق إلى اليسار منك تـأتي من

جهـة المعبـد وتتجـه إلى كنيسـة القيامـة. . . أمـا إلى اليمين وبعـدمـا تعبر الطريق. . . فتقع كنيسة يوحنـا المعمدان والتي يتبعها بيت كبير للسكن، وهي (الكنيسة والسكن) تـابعة لراهبات اللعازارية اللواتي أقمـن فيه عندما نشبت الحرب مع المسلمين.

وأعود إلى شارع (الأسباط) ويقع بين هذا الشارع وأسوار المدينة إلى اليسار (المتجة إلى البـاب) شوارع (كثيرة) حتـى تصل إلى البـاب. (وهذه المنطقـة) تشبه المدينة وفيهـا يقطن معظم النصارى السُّوريين، وكانـت هذه الشوارع تسمى بحـارة اليهود في السـابق (Jewry). وفي هذه المنطقـة كنيسة مـريم المجدلية، ويـوجد قربها الرتـق (المسمى بذات الإسم) ولا يمكـن من هناك الذهاب إلى الحقول في الخارج، وإنما الى منطقة محصورة بين سورين.

أما إلى اليمين من شارع (الأسباط) فتقع كنيسة الراحة (Rest). . .

(ص ٢٥) . . . وإلى اليسـار مـن شـارع (الأسبـاط) تقـع كنيسـة (للراهبـات) تدعى صنـد حنة، وأمام الديـر هنالك نـافورة تدعـى البركة، فوقها كنيسة . . . .

سكان المدينة

سكـان مـدينـة القدس بعضهـم مـن المسيحيين وبعضهـم غير ذلـك، والمسيحيـون فيها مـن أجناس مختلفـة وينقسمون إلى مـذاهب كثيرة، ومـن بينهـم يأتي الفـرنجـة (أو بصورة أدق) الـلاتين أولاً، وهـؤلاء رجال محاربـون ومتمرسون في استعمال السـلاح ولا يلبسون شيئاً على رؤوسهم، والـوحيدون من بين هـذه الاجناس الـذين يحلقـون رؤوسهم ويقـال لهم (اللاتين) لانهم يستعملون هذه اللغة.

وصف برج داود واحتلاله سنة ٥٣٣ - ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م

(ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة في امراء الشام والجزيرة**: قسم لبنان وفلسطين والأردن. تحقيق سامي الدهان. دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٦٢. ص ٢٢٦ - ٢٣٣).

وكتب كتابا بيده (اي الملك الناصر داود) الى
الخليفة المستنصر من انشائه:

أدام الله ظلَّ الدّيوان العزيز النبوي ما دامت الأيام والسّنون، وفتح بعزمه مُسْتَغلق الحُصُون، وأذاعَ ببركته سرّ النّصرْ المَصُون، وأطلع البشائر ببابه يانعة الثمار، ناضرةِ الغُصُون، وقضى لأوليائه بنَيْل المُنى، ولأعدائه بنيل المنون.

العَبْدُ يقبل القبة الشريفة التي تُسر بتقبيلها القُلوب، وتقر بتقريبها العُيُون وتودّ لو اكتحلَت باثمد تُرابها الجُفُون، ويصف شوقَه إلى الخدمة التي تحقّق في نعمها الآمال وتصدُق في كرمها الظنون، ومواظبته على الطاعة التي هو وأسلافه عليها يحيون، وعليها يموتون.

وينهي أنه طالع المقام الشريف بأمر الهدنة وانقضاء مدتها، انفساخ عقدتها وعند ذلك أخلى الفرنجة — خذلهم الله — القدس الشريف من سكانه، وانتقل كل منهم عن وطنه إلى ما صيره من أوطانه، وأقام به كند من كنودهم، ومقدّم من جنودهم وهو فارس مشهور من فرسانهم، وطاغية يذكر من شجعانهم، كان قد عمر قلعة القدس في مدة الهدنة وحصنها، وملأها بالعدد والآلات وشحنها، ووصلها ببرج يقال له «برج داوود» النبي – عليه الصَّلاة والسَّلام – ابتناهُ لنفسه مسجداً، واتخذه لخلوته معبداً.

وهو برج عظيم المقدار والحجم، مبارٍ في المنعة الجبل وفي الرفعة النجم ينقلب البصر عن نظره خاسئاً وهو حسير، ويتهم الراوي في خبره ولو أنه به خبير، قد بني بالصُّفاح والعَمَدِ، وتأنق بانوه في احكامه فيما طال عليهم الأمد.

وهو من أسفله إلى ثلثه قد صُبَّ فيه الحجر والكلس صبا ، وردم بقوة بحيثُ لو حضره يأجوج ومأجوج ما استطاعوا أن يظهروه ولا استطاعوا له نقبا ، فكأن الله قد الان لداود الصّخر كما الان له الحديد في بنيانه ، أو كأنه إستعان في اتقانِه بجن سليمانه ، واستغرى اللعين معه طائفة من شجعان الأبطال وأبطال الشجعان ، ومن المشهورين بالشدة والبأس اذا التقى الجمعان ، قد ركبوا في الغيّ رؤوسهم ، ووطنوا على القتل نفوسهم ، يتهافتون على نار الحرب تهافت الفراش ، ويردون حياض المنون ورود الإبل العطاش ، لا يلتقون سهام القسيّ إلاَّ بنُحُورهم ، ولا حجارةَ المنجنيق الاّ بصدورهم ، وبايعوه على الموت وحالفوا ، وطاوعوه على الضَّلال فما عصوا ولا خالفوا .

ثم عمدوا إلى القلعة والبرج فستروهما بالسّتَائر المخلدة ، والخشب المسنّدة ، والعمد الممددة ، وأوقدوا للحرب نارَ الشيطان الموصدة ، لا بل نارَ الله الموقدة ، فنزل العبد عليهم بطائفة من عسكره ، وراوحَهم وغاداهم بالمناوشة في أصائل الحصار وبكره ورجا بالمطاولة أن يسلموها من غير إراقَة دمّ ، أو قتل موحدٍ يُفتدى من المشركين بأمم .

فتجمَّعُوا على الضَّلال وتألبوا ، وحادوا عن طريق الرَّشاد وتنكَّبُوا ، وتوثبوا لنَصرْ الصليب وتصلبوا .

فقاتل العبد صليبهم بصليب من الرأي لا يعجم عوده ، وقابل جأشهم بجيْش من المُصَابرة لا يفَلّ جنوده ، وجَرَّد لهم جماعة من عبيد الدّيوان تُرسل اليهم البوائقَ من نبالها ، وتشهر عليهم الصواعق من نصَالها .

ونصَب عليها المجانيقَ التي تزاحم الحُصونَ بمناكبها ، وتحرقُ شياطينَها برُجُوم حجارتها بدلاً من نُجوم كواكبها ، ومن شأنها أنها إذا قابلت بلدة اخذتْ بكظمها وقضت برغمها ، وأنزلتْها على حُكمها ، فرمتهم بثالثة الأثافي من جبالها ، وسحرت أعينَهم إلا أن الله ما أبطل سحرَ عصيّها ولا سحْرَ حبالها .

وأخذ النقابون في الأسوار نقوباً سفرت نقابها ، ورمى الزراقون في السَّتائر

نيراناً هتكتْ حجابها .

وكان المَلاعين قد طمحتْ إلى المُمانَعة عيونهُم ، وغلقت بالمصابرة زهونهم ، وظنّوا أنهم مانعتهم حُصونهم ، فأتاهسم الله من حيث لم يحتسبوا ، وجزاهم بما كَسَبوا ، ومكّن أيدي المؤمنين من نواصيهم ، وأنزل الـذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم .

وطلعتْ على الأسوار المنيعة ، من الأعلام الشريفة ، الراية التي أعادت بسناها آية الليل لكن من آياته النهار إبصاراً ، وأعظم من النيّرين الشمس والقمر ضياء وابداراً .

وأخذ العبد القلعة وتسلّمها ، وافترع ذروتها العُلْيا وتسنَّمها ، وتبرّجتْ له أبراجها المصونه وتجَلت ، ومدت له أرضها فألقت ما فيها وتخلّت .

ولجأت من الملاعين طائفة إلى «برج داوود» ترجو حقن دمائها ، وتقنع بسلامة ذمائها ، وما علموا أنهم دخلوا منه سجناً لا حصناً ، ونزلوا به قبراً جعل لهم وهم في قيد الحياة دفناً .

وسيرَّوا رسولاً يطلب لهم الأمان على نُفوسهم وأموالهم ، والخروج بما يقدرون عليه من أسلحتهم وأثقالهم ، فما سمع العبد لرسولهم كلاماً ، ولا شفا لغلته أواما ، ولا عرج على مخاطبته حتى يقول لجهالته سلاماً ، بل أمر الحجارين أن يجدوا في نقب جداره من جميع أقطاره ، ويجتهدوا في قطع حدّماره بقلع أحجاره ، ويوقد على عدوّ الله ناراً تحرقه في الدنيا قبل أن يحرقه الله في الآخرة بناره ، فعادوا بعد ذلك سألوا الأمان على نفوسهم ، والخروج بمجرد نفوسهم ، فأجابهم العبد إلى هذه المسئلة الهيّنة الممكنة ، وخرجوا وقد ضربت عليهم الذلَّة والمسكنة .

وصارتْ إلى العبد القلعة إرثاً عن أبيه ، والبرج إرثاً من سميّه ، وهَطل عليهم سحابُ بركة الديوان العزيز بوسميه ووليّه ، واجتمع شملُ المساجد الثلاثة بما منح الله من التأييد ، فافترق شمل تثليث الشرْك باجتماع ثلاثة

التوحيد، وعطفَ الله على حزب الايهان بـالنَّصر، وعادَ على حـزب الطغيان بالكسر، وأضحى الباطل وقد عاوده ذلّه، ورد الله الحقَّ إلى نصابه واليه يرجع الأمر كلّه.

والعبد يظـن أن الله تعالى ما أعـاد هذا البيـت إلى العدوّ بعد فتـوحه، ولا نقله عن الهداة من أمة محمد إلى الغواة من عبدة مسيحه، إلاّ ليسطر فتحه في سيرة مولانا أمير المؤمنين، كما سطـره في سيرة أمير المؤمنين جده، ويجري على يد العبد وذويه فيكون قد جرى على يد عبد الديوان ويد جنده.

وكلما يجدد الله للعبد من قصر عزيز، وظفر وجيز، فهو بعناية إمامه الذي يستخرج له التوفيـق من وعائه، ويمد في القرب بجيوش عسـاكره وفي البعد بجيوش دعائه.

وقد سير العبـد عبد الديـوان «سرخاب» رسولـه ليتلوَ «سورة الفتـح» من حفظه، ويشرح صـورة الأمر من لفظه، فـإنه كان للفتوح حـاضراً، ولقتال العـدو مباشراً. والعبـد متردد بين أن يجعـل عين هـذه القلعة بـالهدم أثـراً، وعيانها بالردم خبراً، ليخمد سرر شرّها، ويؤمن غائلة أمرها، وينقطع رجاء الكافر من نزالها وحصرها وبين أن يبقيها معقلاً لهذا البيت الشريف، وموئلاً للمجاورين فيه من طائفة الدين الحنيف.

وأما برج داود (فقد) تقدم عزم العبد على أن يخضّ من طرفه، ويجدع من أنفه، ويقلـل من ارتفاعـه، ويسهل من امتناعـه، ويجعله مسجداً للـرّكوع والسجـود، لا معقلاً للجمـوع والحشود، ومعبـداً يلتـزم بمزاره، لا حصنـاً يعتصم بأسواره.

وهو يسترشـدُ في ذلك هدى الـديوان العزيـز الذي عليه معتمـده، واليه مرجعه فيما يصدره ويورده، والله تعالى يجعل حزب الديوان وعبيده حزب الله الغالب، وحـزب عدوه وعدو دينه حـزب الشيطان الهارب، ويقضي لهُ ولمن اعتلق به ببلوغ المطالب والمآرب.

الأوقاف في القدس

(محمد ابشرلي (ناشر) . أوقاف المسلمين واملاكهم في فلسطين . استنبول ، ١٩٨٢ . ٣١ ، ٣٥) .

وقف سلطان الملك الناصر يوسف بن ايوب على مدرسته بالقدس الشريف .

- قطعة أرض جسمانية وتوابعها وقف تماما حاصل ٦٠٠٠ .
- قرية عين سلوان تابع قدس تماماً حاصل ٦٠٠٠ .
- حمام في باب الأسباط قدس شريف في سنة [حاصل] ١٤٠٠٠ .
- فرون (فرن) في محلة باب الحطة (باب حُطّه) تماماً .
- دكاكين في سوق العطارين ٨١ باب .
- دكان المعروف بخط داود ١٢ ط .
- سويق (سوق) باب حُطّه ١٢ باب .
- الدور المتفرقة في قدس شريف ١٢ باب .
- القاعات في نفس قدس شريف ١٥ باب .
- خان في باب الحُطَّه (ك) تماماً .
- بستان بير أيوب تماماً .
- بستان صغير في باب الحُطَّه تماماً .
- مزرعة قسطال تابع قدس تماما ٥٠٠ .

(ص ٣١) وقف الملك الناصر صلاح الدين على الخانقاه (سنة

٥٨٥هـ/ ١١٨٩م).

- الصهريج المجاور للخانقاه المذكور.

- قبو ودور ملاصق للفرن (٣٤٢).

- قبو كبير يعرف باسطبل البطريق.

- بيت شمالي هذا الاسطبل.

- حمام يعرف بالبطريق (يعرف بحمام البطرك).

- القبو والحوانيت المجاورة للحمام المذكور.

- البركة المعروفة ببركة البطريق (تعرف ببركة البطرق).

- الصهريج الملاصق لبركة البطريق.

- البركه المعروفة بماملاً.

- قطعة الجورة العليا وهي الشمالية تماماً.

- قطعة أرض تعرف بجورة السفلى وهي قبلية تماماً.

- قطعة أرض البقعة تابع قدس شريف تماماً.

- قطعتا أرض ظاهر القدس الشريف تعرف براس الجيوس وبرج اشكر (ك) تماماً.

(ص ٣٥) - وقف الصلاحية.

- بستان جوره في باب المغاربة في قدس شريف تماماً.

- من قرية نعليا (١٢٣ نعليه) تابع خليل الرّحمن ٨ قيراط.

وقفية صلاح الدين للخانقاه الصلاحية

(**وثائق مقدسية تاريخية** . نشر كامل جميل العسلي . عمان ، ١٩٨٣ . ص ٩١ - ٩٦) .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تصدق به ووقفه وحبسه السيد الاجل ، الملك النَّاصرِ ، جامع كلمة الإيمان ، قامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي دولة أمير المؤمنين ، أبي المظفر يوسف ، والد السيّد الملك العادل ، شيخ الملوك والسَّلاطين أبي سعيد أيوب بن شادي ، سلطان الديار المصرية والشامية ، خلد الله تعالى ملكه ومد على الخليقة ظله ، وعلا فوق السماكين محله ، وأعز أنصاره وجنده وجعل النعم الجزيلة عنده ، وأمضى أحْكَامه في جميع الأمم وأنفذ فيهم اوامر من مقته السيف والقلم في صحَّة جثمانه ، وثبات جنانه ، وتمكن سلطانه ، ومضي أحكامه في نقضه وإبرامه ، وأصالة رأية ، ونفاذ كلمته ، وانبساط قدرته ، وخلوص نيته ، وقوة رغبته إلى الله سبحانه وتعالى في قبول ذلك منه ، وحسن مجازاته عليه ، وإبتغاء الوسيلة عنده ، والفوز لديه ، يوم يجزي الله المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين .

تصدق بجميع الدار المعروفة بدار البطرك التي بالقدس الشريف ، وما يليها فمن ذلك : الربع المجاور لها ، وهو : طاحُون يعرف بعصفور ، وفرن ، ودير ملاصق للفرن يعرف بالجديد ، وقبو كبير يعرف باسطبل البطرك ، ودار شمالي هذا الاسطبل تشتمل على أقباء تحتانيه ، ويحيط بذلك ويجمعه حدود أربعة : الحد الأول وهو القبلي ينتهي إلى قبة القمامة ويتم إلى دار تعرف بيوسف السحاف ؛ وتمام الحد إلى الشارع المسلوك منه مغرباً إلى سور المدينة يعرف . . . ومنه يفتح باب الدار والإسطبل المذكورين . والحد الثاني ، وهو الشرقي ، ينتهي من السّفل إلى الشَّارع المسلوك منه إلى دار البلاط و غير ذلك ، ومنه يفتح باب الدار المذكورة ، وباب الطاحونة المعروفة بعصفور ،

ومن العلو إلى دار تعرف بفويلة ، ويتم إلى دير كرج المعروف بتفاحة ، وتمام الحد إلى ربع الخراجي ، والحد الرابع ، وهو الغربي ، ينتهي إلى دير . . . ويتم إلى دير الكرج المعروف بالسنكل ، وتمام الحد إلى دار تعرف بالجاموس .

ومن ذلك الحمام المعروف بالبطرك ، والقبو ، والحوانيت المجاورة لها ، يحيط بذلك حدود أربعة : الحد الأول وهو القبلي ، ينتهي إلى زقاق يسلك منه إلى الزردخانه وفيه يفتح باب الأقمين ، والحد الثاني وهو الشرقي ، ينتهي إلى دار تعرف قديما بالإسبتار وحديثا بالزردخانة ، والحد الثالث.وهو الشمالي ، ينتهي إلى الزردخانة ، والحد الرابع وهو الغربي ينتهي إلى الشارع المسلوك المعروف بسوق الزيت ، وفيه يفتح باب الحمام والقبو والحوانيت .

ومن ذلك البركة المعروفة بالبطرك ، والربع الملاصق لها ، العلو والسفل من ذلك بظاهر القدس الشريف ، البركة المعروفة بها ملاّه ، والقناة التي يجرى فيها الماء من هذه البركة إلى البركة الجوانية المعروفة بالبطرك ؛ ومن ذلك أرض الجورة العليا ، وهي الشمالية ، يحيط بها حدود أربعة : الحد القبلي ينتهي إلى الطريق السالكة إلى صرنطة وبين الجورة القبلية ، ويتم إلى الصَّخْر الممتد الفاصل بينها وبين الذي كان مقطع الحجارة ، والحد الشرقي ينتهي إلى الطريق الفاصل بينها وبين خندق المدينة ، والحد الشمالي ينتهي إلى الطريق السالكة ماملاّ وغيرها ، والحد الغربي ينتهي إلى السلسلة الفاصلة السفلى ، وهي القبلية ، تعرف بالاسبتار يحيط بها حدود أربعة : الحد القبلي ينتهي إلى حائط قديم داخله قناة قديمة ، والحد الشرقي ينتهي إلى الطريق السالكة إلى باب الخليل وغير ذلك ، والحد الشمالي ينتهي إلى الطريق السَّالكة إلى صرنطة الفاصل بينها وبين الجورة العليا ، والحد الغربي ينتهي إلى الطريق إلى بركة حرمين والقلعة وغير ذلك .

ومن ذلك الأرض المعروفة بالبقعة ، يحيط بذلك أربعة حدود : الحد القبلي ينتهي إلى حائط ممتد شرقاً بغرب فاصلاً بينها وبين أراضي كرماً ، منها بقيع

زيتون ويعرف بسلامة أبي صرُيصير، وبقيع ابن سفلات، وبقيع يعرف بابن رقية، وداخل هذا الحَدّ بقيع يعرف بمـرج اسبكر ، وهو من حقوق البقعة، وتمام الحد إلى أرض طبليّـة، وهو حـائط قـديـم فاصـلاً بين العنـق وأراضي طبليّة، والحائط المذكور ينتهي إلى الشـارع المسلوك منه إلى طبليه، وتمام الحد حائط قديم محاد له شجرة بطم، وفي ذلك الحائط شجرة أجاص وهو فاصل بين أراضي البقعة وبين أراضي بيت صفَافـا، والحد الشرقي ينتهي إلى السِّكة السالكة إلى سور باهر وغيرهـا، والحد الشمالي ينتهي إلى مربعة النساء، ويتم إلى شارع قـديم، والحد الغـربي ينتهي إلى السِّكـة السالكـة إلى بيت صفـافا وغيرها، ومـن ذلك قطعتين تعرف احـداهما بعضها بمرج اسبكـر وبعضها رأس الخنوص وباقيها . . . . . الحد الشرقي للبقعة وهي الطريق السالكة إلى سـور بـاهـر وغيرهـا ومن الشمال بقيـع في البقعـة يقـال لـه دق معـاش والحمادِيّة، ومـن الغرب الطـريق والقنـاة القديمـة، والقطعة الثـانية يعـرف بعضها نجلـة أبي الوقية وبعضها بكـرم الركار وبـاقيها بقيعان تعرف بـالعنق والأرض المعروفـة التي يقـال لها ضريبة الأرجـام، يحيط بهذه القطعـة حدود أربعة : الحد القبلي حـد البقعة مـن القبلة وهـو الحائط الفاصـل بينها وبين أراضي طبليـة، والحد الشرقي ينتهـي إلى القنـاة المذكـورة الفاصلـة بين هـذه القطعة والقطعة الأولى، الحد الشمالي به يعرف بالركار والأرض الملاصقة لها، ومن الغرب رصيف فاصل بين هذه الأرض وأرض بيت صفافا .

بحدود ذلك جميعـه وحقوقه، وقليله وكثيره، وجبله وسهلـه، وسرابه وما يعرف به وينسـب اليه من حقوق ذلك الـداخلة فيه والخارجة عنـه، صدقة موقوفة محبّسـة محرمة مؤبدة بنية مثله، جـايزة نافذة ماضية لـوجه الله تعالى، وطلب وجوه ثـوابه وابتغاء مرضاته وجـزيل عطائه والمراقي لديـه، لا يدخل عليه وجـه من وجوه التمليكـات ولا يزيلها عـن تحبيسها سبب مـن أسباب الإنتقالات، قائمة على أصولها، لا يغيرها ممر الأيام والشهور، ولا يقدح فيها تقادم الأعوام والدُّهور، محفوظة على شروطها، مسبّلة على سبلها لا . . . .

. . تغير ولا تبديل، ولا يلحقها فسخ ولا تحويـل أبداً، ما دامت السموات والأرض، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، على الوضع الذي يأتي ذكره فيه، وهو السيد الأجـل الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان، قامع عبدة الصلبان، صلاح الدنيا والدين، هذا المحبَّس وقف وحبس وأبد جميع هذه الأماكن المحددة فيه على :

السادة المشايخ الصوفية الشيوخ والكهول والشبان البالغين المتأهلين والمجردين من العرب والعجم، وجعل الـدار المعروفة بالبطرك المذكورة أعلاه رباطاً لهم وسكناً، للمجرد منهـم المقيمين بها والـواردين مـن سائر البلاد الشاسعة، من الصوفية المعروفين مـن الخوانق بطريقهم وآدابهم، ولا يدخل أحد عليهـم من غير جنسهم بشفـاعة شافع ولا لـولي أمر، ومن فعـل ذلك فوزره على الشافع والمشفوع له، على أن ليـس لواحد منهـم أن يسكن في هذه الدار الا بمقـدار حاجته منها، بغير زيـادة عليه، من غير ضرر يتـوجه على الآخر، وعلى أن من سبقه منهم إلى مكان في هذه الدار وسكن فيه قبل الآخر فليس لأحد اخراجه ولا أن يبدل به غيره، ومن سافر منهم إلى حيث شاء من البلاد وعاد من سفـره إلى هذه الدار فله السكن فيها، فإن كان مكـانه خالياً من غيره فهو أولى به، وإن كان مشغولا يسكـن غيره فيه فله السكن في هذه الدار بمقدار حاجته وكفايته أسوة أمثـاله ممن سكن فيها. وعلى أن من سقط منهم بالوفاة بطل حقه مـن السكن وغيره لموته، وإن كان لغيره ممن لم يكن له موضعـاً في هذه الدار للسكـن ودعت حـاجته للسكن بـه فليسكن. وشرط الملك النـاصر جامـع كلمة الايمان، قـامع عبـدة الصلبان، صـلاح الدنيـا والدين، المحبس المذكور : أن يجتمع الجماعة المذكورون بهذا المكان المذكور، بعد صلاة العصر بأسرهـم في كل يـوم يقرأون ما تيسر من القرآن العظيم، في ربعات شريفة، ويذكرون مما حسن من الذكر ويدعون عقيب ذلك للواقف

المحبس المذكور وللمسلمين آجمعين .

وشرط أيضا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، المحبس المذكور، أن يصرف من ريع الجهات المذكورة عليهم ما يراه الناظر الشرعي به، بحسب ما يؤدي اليه اجتهاده ورأيه، وأن تكون الأمور جميعها في هذا الموقف راجعة إلى شيخهم الناظر الشرعي عليهم لا يتكلم فيه أحد غيره، وأن يكون شيخهم منهم ناظراً عليهم، على أن الشيخ الناظر على هذا الوقف يفوض النظر لمن يكون أهل له مع المشيخة إن لم يكن له ولد يصلح، فإن كان له أولاد ذكور فيسنده هو والمشيخة للأكبر والأمثل منهم من غير مشاركة أحد له في ذلك، يجرى الأمر في ذلك كذلك ما دامت ذريته موجودة، فإذا انقرضوا ولم يبق أحد منهم، فينظر في الأمثل من صوفية المكان فيكون شيخهم منهم لا من غيرهم، ناظراً عليهم، ويكون الحاكم فيه كمن تقدمه، فإن تعذر وجدان هذه الطائفة والعياذ بالله تعالى، صرف ريع الأمكنة المذكورة على الفقراء والمساكين .

فان بدا من هؤلاء الجماعة المذكورين من شيء يوجب تأديبه وخروجه، أدب واخرج من هذا المكان، ولا يعود اليه الا بعد سفره إلى الحجاز الشريف أو غيره، وتهذيبه والتوبة إلى الله تعالى والندم والاقلاع .

وشرط أيضاً الملك الناصر، المحبس المذكور، أن يجتمع الجماعة المذكورون مع شيخهم بعد طلوع الشمس من يوم الجمعة، بهذا المكان أو بالمسجد الأقصى الشريف يقرأون في ربعات شريفة، ويدعون عقيب ذلك للواقف وللمسلمين، ويقرأون بحضور شيخهم ما تيسر من كلام الائمة المشايخ الصوفية نفع الله بهم، في كل جمعة، فان تعذر ففي بعض الجمع، يجرى الحال في ذلك كذلك ما استمرت الدنيا .

فقد تمت هذه الصدقة الموقوفة، وتقدمت شروطها وأحكامها، وصارت صدقة محرمة تحريما مؤبداً، بتحريم الله سبحانه لها، وذلك أجمع التحريم

الذي حرم به حرماته وانتهاك محارمه والاتحاد في إسمه، وحرمات أنبيائه ورسله وملائكته صلى الله عليهم وحرمة بيته الذي جعل الله مثابة للناس وأمنا، وحرمة للايمان وأهله، فلا يحل لأحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر، من راع ولا رعية لقوة سلطانه أو لطيف حياته ودقة فطنته واتساع تأويله، أن يبطلها ولا شيئاً من شروطها وأحكامها، ولا يغيرها من أصل ولا رسم ولا يبدلها، ولا يقدح فيها، بما لا ينبغي اتهامها، ولا يسعى في شيء من ذلك بأمر ولا بإيحاء ولا بتعطيل ولا بشيء يعلمه الله الذي يعلم خاينة الاعين وما تخفي الصدور. فمن فعل ذلك وأعان عليه فقد اذى نفسه، وحرم أمانته وعند أمر ربه، واستخف بحرمته، وتمرد عليه، واستهان وعيده، واستحق لعنته ولعنة أنبيائه ورسله، لعنة يلحقه في الدنيا عارها، ويوم القيامة جهنم وسعيرها، والله تعالى طليبه وحسيبه، ومؤاخذه بعمله ومجازيه على فعله، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد، فهو معاقب المسيئين ومجازي المحسنين، وبالمرصاد للظالمين لقوله تعالى «فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إنّ الله سميع عليم».

وقد أذن السيد الأجل، الملك الناصر، جامع كلمة الايمان، قامع عبدة الصلبان صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي دولة أمير المؤمنين، قاتل الكفرة والملحدين، أبو المظفر يوسف، الواقف المشار اليه، أتم الله نعمه عليه وخلد ملكه وابد سلطانه وأعلا شأنه، وأمد على الخليقة ظله، وأعز انصاره وضاعف اقتداره، لمن وضع خطة آخر هذا الكتاب من الشهود العدول والسادة الاعيان بالاشهاد بما نسب اليه فيه، فشهدوا عليه وذلك في الخامس من شهر رمضان المعظم قدره سنة خمس وثمانين وخمسايه، والحمد لله رب العالمين، وصلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وحسبنا الله وكفى.

القدس الشريف – وقفية حي المغاربة

(*The Islamic Pious Foundations in Jerusalem.* London,

Islamic cultural centre, 1978)

كما نشرها عبد اللطيف الطيباوي

شرط واقف محلة المغاربة قيد بإذن مولانا . . . شجاع الدين أفندي قاضي القدس الشريف . . . وهذا الكتاب متصل الثبوت والتنفيذ بحكم الشريعة إلى يومنا هذا، وقيد في اليوم السادس والعشرين من شهر شعبان سنة ألف وأربعمائة .

بسم الله الرحمن الرحيم، يشهد من أثبت إسمه وشهادته آخر هذا المحضر، وهم يومئذ من الشهود الأمناء الأحرار العقلاء المسلمين المذكور الأخيار من أهل علم وخبرة بما يشهدون به شهادة عرفوا صحتها وتحققوا معرفتها . . . لا يشكون فيها ولا يرتابون . . ويلقون الله بأدائها أنهم يعرفون جميع الحارة المعروفة المسماة بحارة المغاربة الكائنة بمدينة القدس الشريف .
. . الحد الأول وهو القبلي ينتهي إلى سور مدينة القدس الشريف وإلى الطريق المسلوكة إلى عين سلوان، والحد الثاني وهو الشرقي ينتهي إلى حائط الحرم الشريف، والحد الثالث وهو الشمالي ينتهي الى القنطرة المعروفة بقنطرة أم البنات، والحد الرابع وهو الغربي وينتهي إلى دار الإمام شمس الدين قاضي القدس الشريف، ثم إلى دار الأمير عماد الدين بن موسكي، ثم إلى دار الأمير حسام الدين قايماز.

ويشهد شهوده أن هذه الحارة المعينة أوقفها السلطان الملك الأفضل نور الدين علي بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، رحمهما الله تعالى، على جميع المغاربة على اختلاف أوصافهم وتباين

حرفهم ذكورهم واناثهم كبيرهم وصغيرهم فاضلهم ومفضولهم، ليسكنوا فيها في مساكنها وينتفعوا بمرافقهاعلى قدر طبقاتهم وما يراه الناظر عليهم وعلى وقفهم من ترتيب ذلك وتفضيل من يفضله وتقديم من يقدمه، بحيث لا يتخذ شيء من المساكن ملكاً ولا احتجازاً ولا بيعاً، وقفاً مؤبداً شرعياً، ماضياً جارياً على هذه الطائفة المغاربة . . . . .

ويشهد شهوده أن النظر في ذلك، وفي كل جزء منه، وفي ترتيب أحواله ووظائفه وأموره، راجع إلى من يكون شيخاً قدوة من المغاربة المقيمين في كل عصر وأوان بالقدس الشريف، يتولى ذلك بنفسه، وله أن يولي من اختار وآثر، ويستنيب عنه من يقوم مقامه، وله عزله إذا أراد . . . .

ويشهدون به وبذلك كتبوا شهاداتهم في اليوم الرابع والعشرين من شهر الله رجب الفرد سنة ست وستين وستمائة [١٤/ ٦/ ١٢٦٢م].

مآثر أيوبية في القدس

(ابو شامة . الذيل على الروضتين . بيروت، دار الجيل، ١٩٧٤ .

ص ١٠٨ : ١١٥ - ١١٦)

في ترجمة الامير بدر الدين محمد بن أبي القاسم بن محمد الهكاري :

«استشهد . . . بالطور . . . . بعد أن أبلى بلاء حسنا، وكان من المجاهدين وله المواقف المشهورة في قتال الفرنج، وكان من أكابر أمراء المعظم يستشيره ويصدر عن رأيه ويثق به لصلاحه ودينه . . . . بنى بالقدس مدرسة للشافعية وقف عليها الاوقاف وبنى مسجداً قريباً من الخليل عليه السلام عند قبر يونس عليه السلام على قارعة الطريق، وكان يتمنى الشهادة دائما، ويقول : ما أحسن وقع سيوف الكفار على وجهي وأنفي، فاستجاب

الله دعاءه ورزقه الشهادة، ونقل من الطور إلى القـدس فدفن في تربة ماملاّ، وهي المقبرة التي تزار بالقدس الشريف.

هدم سور القدس ٦١٦هـ / ١٢١٩م

(الذيل على الروضتين، ص ١١٥ - ١١٦)

«ففي أول المحـرم، وقيل في سـابع المحرم، أخـرب المعظم أبـراج القدس وسوره، خـوفاً مـن استيلاء الفـرنج عليها، فـاضطرب النـاس وخرجـوا منه متفرقين في البلاد، وهان عليهـم مفارقة ديارهم وضياع أمـوالهم، وقد كانت القدس يومئذ على أتم الاحوال من العمارة وكثرة السكان.

قال أبو المظفر : كان المعظم قد توجه إلى أخيه الكامل إلى دمياط، وبلغه أن طائفة من الفرنج على عزم القدس، فاتفق الأمراء على خرابه، وقالوا : قد خلا الشام من العساكر فلو أخذه الفرنج حكموا على الشام، وكان بالقدس أخـوه العزيـز عثمان وعـز الديـن أيبك أستـاذ الـدار، فكتب المعظـم اليهما بخرابـه، فتوقفا، وقـالا : نحن نحفظـه، فكتب اليهما المعظم : لـو أخذوه لقتلوا كل مـن فيه، وحكموا على دمشق وبـلاد الشام، فألجأت الضرورة إلى خرابـه، فشرعوا في السور في أول يوم مـن المحرم، ووقع في البلد ضجـة مثل يوم القيامـة، وخرج النسـاء المخدرات والبنات والشيـوخ والعجائز والشباب والصبيـان إلى الصخرة، فقطعـوا شعورهـم ومـزقوا ثيـابهم بحيث امتـلأت الصخـرة ومحراب الاقصى مـن الشعـور، وخرجـوا هـاربين وتـركوا أمـوالهم وأثقالهم وما شكوا أن الفرنج تصبحهم (الأصل : تصحبهم)، وامتلأت بهم الطـرقات، فبعضهـم إلى مصر وبعضهم إلى الكـرك وبعضهم إلى دمشـق، وكانـت البنات المخدرات يمـزقن ثيابهن ويـربطن على أرجلهن مـن الحفا،

ومات خلق كثير من الجوع والعطش، وكانت نوبة لم يكن في الاسلام مثلها، ونهبت الاموال التـي كانت لهم في القدس، وبلغ قنطار الـزيت عشرة دراهم ورطل النحاس نصف درهم . . . »

لوح

(٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م)

«بسم الله الـرحمن الرحيم هذا مـا وقف وحبس الامير السيـد الاجل نصر الدولة وعمادهـا ذو الصرامتين ابا نصر احمد بن مروان أدام الله ثـوبه واحسن مـآبه هـاتين الـدارين المتـلاصقتين بجميـع حـدودهما وحقوقهما على جميـع الواردين مـن ديار بكر على ما امـر في كتاب وقفهما فمن غيره أو بدّلـه فعليه لعنة الله وذاك في شهر رمضان من سنة خمس وأربعين وأربعمائة [كانون الأول سنة ١٠٥٣م] أثابه الله .

(مسجد بالقدس سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م)

(Burgoyne, M.H. "A Recently Discovered Marwanid inscription in Jerusalem". *Levant,* Vol. XIV, 1982).

بسم الله الرحمن الرحيم

تولى عمارة هذا (١) المسجد المبارك . . . قف وعليه

مر (؟) الله مامه (؟) رما

مامه (؟) الله وسعه (؟) لله (؟)

وذلك في سنة اثنين

(و) ثمانين واربعمائة (١٠٨٩م) .

استيلاء الفرنجة على بيت المقدس

(ابن خلكان . وفيات الاعيان وانباءابناء الزمان . تحقيق احسان عباس . بيروت ، دار صادر، ١٩٧١ ، ص ١٧٩ .)

« . . . وأخـذوا البيت المقـدس في شعبان سنـة اثنين وتسعين (حزيـران ١٠٩٩م) أيضا ، وكان الفرنـج قد أقاموا عليه نيفاً وأربعين يـوماً قبل أخذه ، وكان أخـذهم له ضحى يـوم الجمعة ، وقتل فيه مـن المسلمين خلق كثير في مدة أسبـوع ، وقتل في الأقصى مـا يزيـد على سبعين ألفاً ، وأخذوا مـن عند الصخرة من أواني الذهب والفضة ما لا يضبطـه الوصف ، وانزعج المسلمون في جميع بلاد الإسـلام بسبب أخذه غايـة الإنزعاج – وسيأتي ذكـر طرف من هذه الـوقعة في تـرجمة الأفضل بـن أمير الجيوش في حـرف الشين إن شاء الله تعالى .

وكان الأفضل شاهنشاه المنعوت بـأمير الجيوش قد تسلمه من سليمان بن أرتق في يوم الجمعة لخمس بقين من شهر رمضان سنة إحدى وتسعين ، وقيل في شعبان سنة تسع وثمانين ، والله أعلم بالصـواب ، وولي فيه من قبله ، فلم يكن لمن فيه طاقة بالفرنج فتسلمـوه منه ، ولو كان في يد الأرتقية لكان أصلح للمسلمين . . . . » .

نفسه ج[٢] ص ٤٥١ (عن كتاب الدول المنقطعة)

(ابن خلكان ، وفيات، ص ١٧٩)

أرتق بن أكسب ، جد الملوك الأرتقية :

« هو رجـل من التركمان ، تغلب على حلـوان والجبل ، ثم سـار إلى الشام مفارقاً لفخـر الدولة أبي نصر محمد بـن جهير خائفاً من السلطـان ملكشاه ،

وذلك في سنة ثمان أو تسع وأربعين وأربعمائة [١٠٥٦/ أو ١٠٥٧م]، وملك القدس من جهة تاج الدولـة تتش . . . ولما توفي أرتق (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) . . . تولاه (القدس) بعده ولداه سلمان وايلغازي ابنا أرتق، ولم يزالا به حتى قصدهما الأفضل . . . وأخذه منهما . . . وتوجهـا إلى بلاد الجزيرة الفراتية وملكا ديار بكر . . .».

(ابن خلكان، وفيات، ١ ص ١٩١، (عنه) الصفدي
الوافي بالوفيات، ٨ ص ٣٣٦ (ترجمة رقم ٣٧٦٢)

في ترجمة العادل علي بن السلار :

«وكـان والـده في صحبة سقمان بـن أرتـق صـاحب القـدس، فلما أخـذ الأفضل أمير الجيوش القدس من سقمان . . . وجد فيـه طائفة من عسكر سقمان، فضمهـم الأفضـل اليـه، وكـان في جملتهـم السـلار والـد العـادل المذكور، فـأخذه الأفضل اليـه، وتقدم عنـده، وسماه ضيف الدولـة، وأكرم ولده هـذا، وجعل في صبيـان الحجر، ومعنـى صبيان الحجـر عندهـم : أن يكون لكـل واحد منهـم فرس وعدة، فـاذا قيل لهم عـن شغل مـا يحتاج أن يتوقف فيه، وذلك على مثال الداوية والاسبتـارية، فاذا تميز صبي من هؤلاء بعقل وشجاعة قدم للإمرة، فترجح العادل بهذه الصفات . . .».

ابن خلكان، وفيات، ٣ ص ٤١٨

(رايت في بعض تـواريخ المصريين : أنه كان كـردياً زرزاريا، وكان تـربية القصر في القاهرة . . قتل ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م). ص ٤١٦.

احتلال الفرنج للقدس

(ابن ميسر. المنتقى من اخبار مصر. القاهرة، المعهد الفرنسي للاثار الشرقية، ١٩٨١ .
ص ٦٥ - ٦٦ : ١٥٥ - ١٥٦)

٤٩١هـ/ ١٠٩٨م : «في شعبان (تموز)، خرج الأفضل بعساكر جمة وسار إلى بيت المقدس، وكان به الأمير سلمان وايلغازي إبنا أرتق في جماعة من أقاربهما ورجالهما، وعساكر كثيرة من الأتراك، فراسلهما الأفضل يلتمس منهما تسليم بيت المقدس اليه بغير حرب، فلم يجيباه لذلك، فقاتل البلد ونصب عليها المجانيق وهدم منها جانباً، فلم يجدا بداً من الإذعان اليه، فسلماه اليه، وخلع عليهما وأطلقهما، وعاد في عساكره وقد ملك بيت المقدس . . . » .

ابن ميسر، ص ٦٥ - ٦٦

٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م : «في رجب (حزيران) حاصر الفرنج البيت المقدس، وكانوا قد ملكوا الرملة في ربيع الآخرة فخرج اليهم الأفضل بعساكره، فلما بلغ الفرنج خروجه جدوا في حصاره حتى ملكوه يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان . . . وقتلوا أهل البلد جميعهم الا اليسير، وانحازت طائفة إلى محراب داود عليه السلام، فسلموا المحراب في الثالث والعشرين بالأمان، وأحرقوا المصاحف، وأخذوا من الصخرة من قناديل الذهب والفضة والآلات ما لا ينحصر» .

ابن ميسر، ص ٦٦

٥٥٣هـ/ ٩ جمادى ١/ ٨/ ٦/ ١١٥٨م : الفاطميون – مملكة القدس

«سار عسكر إلى بيت المقدس، فعاث وخرب وعاد بغنائم، وورد الخبر بوقعة كانت على طبرية انكسر فيها الفرنج . . . ».

ابن ميسر، ص ١٥٦

٥٥٣ربيع الاخر/ ايار ١١٥٨م

«سار عسكر إلى وادي موسى، فحاصر حصن الوعيرة ثمانية أيام، وعاد بعدما توجه إلى الشوبك وغار عليها، وترك هناك أميرين على الحصار».

ابن ميسر، ص ١٥٦

٥٥٢هـ/ ١١٥٧م «ثم سير (الصالح – الوزير الفاطمي) عسكراً آخر، فمضى إلى الشريعة فأبلى بلاء حسناً وعاد مؤيداً.

. . . . وسير عسكراً إلى بلاد الشوبك والطفيل، فعاثوا في تلك البلاد وغاروا ورجعوا بالغنائم في رجب (آب) ومعهم عدة أسرى (أسراء) . . . ».

ابن ميسر، ص١٥٥

سقوط القدس – أول الحصار

(من كتاب : *The First Crusade,* ed. by Edward Peters, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, Third Paperback Printing, 1983, pp. 202, 250- 259).

حاصر الدوق غود فري وكند فلاند رز وكند النورماندي المدينة (القدس)

من جهة الشمال، أي من عند كنيسة القديس اسطفان، التي تقع في وسط (مركز) المدينة (ربما السور) جنوباً إلى برج الزاوية الذي يقع بجانب برج داوود. أما الكند ريموند وجيشه فقد إستقروا في الجهة الغربية وحاصروا القدس من مخيم الدوق إلى سفح جبل صهيون. لكن لأجل (هذا الموقع) الذي لم يمكن رجاله من الإقتراب لحصار السور بسبب الوادي (الخندق) الواقع بينهما، رغب الكند في نقل مخيمه (معسكره) وتغيير موقعه. وبينما كان يستكشف (المنطقة) في أحد الأيام وصل إلى جبل صهيون وشاهد الكنيسة التي تقع على الجبل. . . (فقرر)، ضد رغبة قادة قواته نقل خيم معسكره إلى هذه البقعة (من الجبل). ونتيجة لذلك فقد أثار كره رجاله الشديد بحيث أنهم لم يرغبوا بنقل خيمهم إلى معسكره أو القيام بأعمال الحراسة (على الموقع الجديد) بالليل، وأقاموا حيث نصبوا معسكرهم في البداية ما عدا عدد قليل رافقوا الكند. (ثم تمكن) الكند، بواسطة العطايا والهبات (التي كان يمنحها) يومياً، من إغراء الفرسان والرجالة بحراسة معسكره . . . . . . (ص ٢٠١ - ٢٠٢ نقلاً عن كسري ص ٢٥٠ - ٢٥١).

(قصة الراهب الذي طلب منهم الهجوم)

أول هجوم

وهكذا وبمثل هذه الآلات (التي بنوها مما توافر لديهم من مواد قليلة). . . . . جرى هجوم على المدينة في الصباح الباكر، واستمر حتى الساعة الثالثة، (وأدى هذا الهجوم) إلى تراجع المسلمين خلف الأسوار الداخلية لأن رجالنا هدموا الأسوار (التحصينات) الخارجية، وتمكن البعض منهم حتى من التسلق/ إلى أعلى الأسوار الداخلية. وبينما كنا على وشك

الإستيلاء على المدينة . . . . توقف الهجوم، وفقدنا الكثير من رجالنا، ولم نقم في اليوم التالي بأي هجوم.

وبعد ذلك (الهجوم) تفرق كل الجيش (الفرنجي) في الريف المجاور للمدينة لجمع المؤن، ولم يذكر شيء بعذ ذلك عن ضرورة تجهيز الآلات التي يحتاج اليها لاحتلال المدينة، وقام كل انسان بخدمة فمه ومعدته . . . (ص ٢٠٢ - ٢٠٣).

قبل وصولنا إلى القدس، كان المسلمون قد غوروا الينابيع (طمروها) وهدموا المصانع(والآبار) وحجزوا الجداول التي تأتي من الينابيع . . . ولذلك (كنا) نحصل على الماء بصعوبة كبيرة، وكان يوجد عين في سفح جبل صهيون تدعى عين سلوان، (وهذه العين) في الحقيقة نبع كبير يجري فيه ماء مرة واحدة كل ثلاثة أيام . . . وبسبب (قلة الماء) كان من الضروري البحث عنه على مسافة تمتد إلى فرسخين أو ثلاثة، وأخذ قطعان المواشي إلى موارد ماء بعيدة. (ص ٢٠٣).

اشارة ص ٢٠٤ :

يبدو أن الفاطميين هدموا مدينة يافا (وأخربوها) كما أخربوا الحصن أيضاً الذي لم يتبق منه الا الأنقاض، وذلك بعد توجه الفرنجة من الساحل إلى القدس.

حصار القدس من فولشر ص ٧٥ - ٧٧

(Peters, *The First Crusade*. Fulcher,

Expedition, pp. 119 - 122.

١ - وعندما شاهد الفرنج مدينة القدس، ووجدوا أنه من الصعب الاستيلاء

عليها، أمر أمراؤه ببناء سلالم من الخشب (لتسلق الاسوار)، وفكروا أنهم بنصبهم لهذه السلالم سيتمكنون من تسلقها، وبهجوم شديد[يستطيعون] الوصول إلى سطح الاسوار ويدخلون المدينة . . .

٢ - وبعد أن عملوا (السلالم) أعطى الأمراء الإشارة بضرب الأبواق، وذلك في ضوء صباح المشرق لليوم السابع من وصولنا، واندفعوا نحو المدينة من كل جانب في هجوم مدهش. وبعد اندفاعهم هذا وحتى الساعة السادسة من النهار، وعدم تمكنهم من دخول المدينة بواسطة سلالم التسلق وبسبب قلة عددها، قرروا التخلي عن الهجوم.

٣ - وبعد المشاورة (في ٢١ رجب ٤٩٢هـ / ١٣ حزيران ١٠٩٩م) طلب من الحرفيين عمل آلات (الحصار) حتى يتمكنوا من تحقيق هدفهم عن طريق تقريبها من الأسوار، وقد تم عمل ذلك.

٤ - ولم يعان (الامراء والناس في الجيش الفرنجي) من قلة الخبز والطعام، وانما عانوا من قلة ماء الشرب لهم ولحيواناتهم لان المنطقة كانت جافة وغير مروية وبدون أنهار. ودفعتهم هذه الضرورة للبحث عن الماء على مسافة بعيدة، وكانوا كل يوم يجهدون بإحضاره في القرب من مسافة أربعة أو خمسة أميال إلى مكان الحصار.

٥ - وبعد عمل الآلات مثل الدبابات (Battering ram) والستائر المعدنية (Sows)، تجهزوا لمهاجمة المدينة. وبالاضافة إلى أنواع آلات الحصار الأخرى التي صنعت، بنى الحرفيون برجاً من قطع صغيرة من الخشب، لأنه لم يكن من المتيسر الحصول على قطع كبيرة وطويلة في المنطقة. وعندما صدر الأمر (بالهجوم) أسرعوا بحمل قطع البرج إلى زاوية من سور المدينة. وفي نفس صباح ذلك (اليوم) وبعدما جمعوا الآلات والأسلحة الأخرى قاموا بنصب البرج بسرعة وبصورة محكمة قريباً من

السور. وأقيم البرج وغطي من الخارج ثم بدأوا بـدفعه ببطء لتقريبه من السور.

٦ - وباشارة (محددة) مـن البوق (الذي يتم عن طريـق نفخه للنفير) تسلق عدد قليل من الرجال الشجعـان إلى البرج. ودافع المسلمون أمام هجوم هؤلاء الرجال بـالمقاليع (Slings) والنيران (Firebrands) (المصنوعةمن قماش) مغموس بـالزيت والشحم التـي وجهوها إلى البرج ومن فيـه من الرجال، فكانت النتيجة(لكل ذلك) الموت المحقق للكثير (من الرجال) من الجانبين.

٧ - أما الكنْـد ريموند ورجالـه فقد قامـوا من موقعهم على جبـل صهيون، بهجوم كبير بالآتهم كما تم هجوم (ثالـث) على الاسوار في مكان آخر من قبـل (رجال) الـدوق غـود فـري والكند روبـرت صـاحـب النورمـان، وروبرت صاحب فلاندرز. وكان هذا هو كل ما عمل في ذلك اليوم.

٨ - وفي اليـوم التالي، وعنـد سماع صوت أبـواق النفير، قام الفـرنج بهجـوم شديـد، ووجهوا ضربـاتهم بآلات الكبش في مكـان واحد حتـى عملوا فجوة في السـور. وكان المسلمون قـد علقوا قطعتين كبيرتين مـن الخشب بـالحبال المتينـة أمـام المهاجمين كحمايـة للسور مـن الحجـارة التي كـان المهـاجمون يرمـونها، فكـان مـا عملوه لفـائدتهم أن تحول إلى ضرر لهم، وذلك بعنـاية الله، اذ إنه عندمـا قرب البرج من السـور قطعـت السيوف العريضة (Falchions) الحبال التـي كانـت الأخشاب معلقـة بها وبنى الافرنج منها جسراً مدوه بذكاء (ومهارة) من البرج إلى السور.

٩ - وكانـت النار قد اشتعلت في أحـد أبراج السور نتيجة القـذائف الملتهبة التي كانت تطلقها آلاتنا، ثم ازدادت النار تدريجيا بسبب المواد الخشبية التي كانت موجودة فيه، وأنتج هذا الاحتراق الكثير من الدخان واللهب

إلى درجة لم يستطع أحد من السكان الذين يحرسون المكان من البقاء قربه .

١٠ - عندها دخل الفرنجة المدينة بأبهة (Magnificently) وذلك ساعة الظهيرة من يوم الجمعة (٢٣ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٥تموز ١٠٩٩م) . . . على اصوات الأبواق وكل الناس في صراخ وهياج ، واندفعوا بحماس إلى داخل المدينة ، كما رفعوا بسرعة الراية فوق السور. أما المسلمون الذين أصابهم الرعب فقد انقلبت شجاعتهم بسرعة إلى عكسها أي إلى هرب عبر الشوارع الضيقة لأرباع المدينة واحيائها .

١١ - أما كوند ريموند ورجاله ، الذين كانوا يقاتلون معه بشجاعة في جزء آخر من المدينة فلم يلاحظوا هذا (دخول الفرنج المدينة) الا عندما رأوا المسلمين يقفزون من أعلى الأسوار. فلما رأوا ذلك ركضوا إلى المدينة بأقصى سرعة ممكنة ، وساعدوا الفرنج الآخرين في ملاحقة العدو وقتلهم .

١٢ - ثم هرب بعض المسلمين العرب والسودان إلى برج داوود ، وأغلق البعض الأبواب على أنفسهم في المعبد (المسجد الأقصى) حيث هجم الفرنج عليهم ، ولم يستطع المسلمون الهرب من سيوفهم .

١٣ - وتسلق بعض المسلمين في هربهم إلى سقف المسجد الأقصى ، فقتل الكثير منهم بالنشاب ووقعوا من الأعلى إلى الأرض . ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكعب بدماء المقتولين . ماذا أكثر من ذلك يمكن أن أذكر؟ لم يسمح لاحد منهم بالبقاء حيا ولم يوفر الفرنج النساء والاطفال .

استيلاء الفرنجة على القدس

رواية ريموند دي اجيل

(Raymond D'Aguiliers, pp. 201 - 215)

« . . . . عين دوق وكنود نورماندي وفلاندر غاستون (صاحب) Beart مسؤولاً عن الرجال الذين يعملون ببناء آلات (الحصار)، وقد بنى هؤلاء الرجال الستائر (Montlets) والأبراج التي ستستعمل في الهجوم على الاسوار. وعين غاستون مسؤولاً عن هذا العمل من قبل الامراء لأنه كان من السادة الأشراف، ويحترمه الجميع لمهارته وسمعته الطيبة، وقد سارع عملية بناء (هذه الآلات) بتقسيم العمل بين العمال، أما الامراء فقد شغلوا أنفسهم بالحصول على المواد (الضرورية للبناء) واحضارها إلى موقع البناء، بينما كان غاستون يشرف على عملية البناء. وكذلك عمل الكوند ريمون (الصنجيلي) الذين عين وليم (صاحب ريكو) مشرفاً على العمل (في بناء آلات الحصار) على جبل صهيون، كما عين مطران البارة مسؤولاً عن المسلمين الأسرى وغيرهم (من الأسرى لدى الفرنج) الذين كانوا يحضرون الأخشاب، وذلك أن رجال الكند (ريمون) كانوا قد استولوا على كثير من حصون المسلمين وقراهم وأجبروا المسلمين (الذين أسرهم) على العمل كما لو كانوا عبيدهم. وهكذا فمن أجل بناء الآلات عند (أسوار) القدس، كان خمسون أو ستون رجلاً يحملون على أكتافهم قطعة كبيرة (وطويلة) من الخشب والتي لا يستطيع جرها أربعة أزواج من الثيران.

وماذا يمكن أن أضيف إلى ذلك؟ لقد كان الجميع يعمل لهدف واحد، ولم يكن من أحد (من الناس) أو يد خالية من عمل ما. وعمل الجميع دون أجر، ما عدا الحرفيين، الذين كان يدفع لهم أجرهم من مال يجمع من

الناس، وعدا عمال ريموند (الصنجيلي) الذين كان يدفع لهم (أجورهم) من خزانته . . .

وعندما انتهت أعمال البناء واكتملت الآلات، عقد الأمراء مجلساً (للمشورة)، وأعلنوا (بعد ذلك) : «ليجهز الجميع أنفسهم للمعركة يوم الخميس. في نفس الوقت دعنا نصلي ونصوم ونتصدق. أعطوا (قدموا) الحيوانات لديكم ولدى أبنائكم إلى الحرفيين والنجارين لكي يحضروا قطع الخشب والأعمدة والأوتاد (Stakes) والأغصان لعمل الستائر، وعلى كل فارسين عمل واحدة من هذه الآلات وعمل سلم واحد، ولا تترددوا في العمل من أجل الرب، لان تعبكم هذا سينتهي قريباً. وانصاع الجميع برغبة (ودون تردد) للعمل. ثم تقرر بعد ذلك تحديد الجهة من المدينة التي سيقوم كل أمير بنصب آلاته لمهاجمتها.

وفي ذات الوقت، فإن المسلمين في داخل المدينة، الذين لاحظوا كثرة عدد الآلات التي بنيت، قاموا بتحصين وتقوية المناطق الضعيفة من الأسوار، بحيث بدا (لنا) أنه لا يمكن التغلب عليهم (وأخذها) الا بجهود كبيرة ويائسة.

ولأن المسلمين عملوا الكثير من التحصينات لمواجهة آلاتنا فقد قام كل من الدوق وكند فلاندرز، وكند نورماندي في ليلة اليوم الذي تقرر فيه الهجوم بنقل الآلات والستائر والمنصات (Platforms) إلى جهة المدينة الواقعة بين كنيسة القديس اسطفان (خارج باب العمود - أنظر الخارطة) ووادي جهنم (Jehoshaphat) . ولا تفكر، أيها القارىء، بأن ذلك كان مهمة سهلة، لأنها نقلت كقطع (أجزاء) متفرقة مسافة تقرب من ميل إلى المكان الذي تقرر نصبها فيه، وعندما لاح الصباح، ورأى المسلمون بأن المخيم (المعسكر) وكل الآلات قد نقلت خلال الليل، أثار ذلك دهشتهم. ولم تصب الدهشة

المسلمين فقط، وإنما أيضاً جماعتنا، لأنهم عرفوا أن الرب كان معنا، وتم هذا التغيير (في الموقع المحدد للآلات) لأن الموقع الجديد كان أكثر استواء وبالتالي أكثر مناسبة لتحريك الآلات صوب الأسوار، وهو شيء لا يستطاع عمله الا إذا كانت الأرض مستوية، وكذلك بدأ أن هذا الجانب من المدينة هو الأضعف إذ ترك دون تحصين (أو تعزيز للتحصينات) نظراً لبعده عن معسكرنا. ويقع هذا الجانب من المدينة في الجهة الشمالية منها.

أما كونت ريموند ورجاله (كانوا يخيمون) على جبل صهيون فقد عملوا بجدٍ مساوٍ أيضاً، ولكنهم تلقوا مساعدة كثيرة من وليم إمبرياكو والملاحين الجنويين، الذين تمكنوا بالرغم من فقدانهم لسفنهم عند يافا كما ذكرنا، من تخليص الحبال والمدقات الخشبية والمسامير الحديدية الكبيرة والفؤوس والقطاعات (Hachets) (من السفن)، والتي كانت ضرورية لنا.

ولكن لماذا نؤخر (سرد) القصة؟ فقد قدم اليوم المحدد (للقتال) وبدأ الهجوم. ومع ذلك فإنني أود أن أذكر ما يلي أولا، وهو: أنه طبقاً لتقديراتنا، وتقديرات كثير غيرنا أنه كان في داخل أسوار المدينة (حوالي) ستين ألف مقاتل غير النساء والقلة من الرجال الذين لا يستطيعون حمل السلاح، أما من جانبنا فلم يكن لدينا على الأكثر (من التقديرات) ما يزيد على اثني عشر ألف رجل قادر على حمل السلاح، إذ كان (في معسكرنا) الكثير من الناس الفقراء والكثير - من المرضى. وكان في جيشنا بين اثني عشر ألف وثلاثة عشر ألف فارس، كما قدرت ذلك، لا أكثر . . .

وبدأ (الفرنج) بحفر النقوب تحت الأبراج والأسوار، وانهمرت الحجارة من كل جانب من (آلات المدافعين) مثل Petrariae, Tormenti، وزخات كبيرة من النشاب التي سقطت مثل البرد الثلجي. وتحمل (المهاجمون) خدام الرب كل هذا بصبر . . . . سواء أكان مصيرهم القتل أو تمكنوا من التغلب على أعدائهم.

ولم تؤد (مجريات) المعركة (ذلك اليوم) إلى النصر. وعندما جرت الآلات وقربت إلى الأسوار بدأ الرمي (منها) ليس فقط الحجارة والنشاب ولكن أيضاً الأخشاب والقش الملتهب بالنار وكان الخشب يغمس بالقطران (Pitch) والشمع والكبريت، ثم يلف القش (بعد ذلك) حول الخشب برباط حديدي، وعندما تشعل هذه كانت تطلق (أو ترمى) من الآلات. اقول إن جميع هذه المواد كانت تربط كذلك برباط من الحديد حتى تبقى الكتلة متماسكة مع بعضها وتستمر في الإشتعال (إلى حيث تقع)، ومثل هذه المقذوفات، التي تطلق إلى أعلى لا يمكن مقاومتها بالسيوف أو الأسوار أو حتى من قبل المدافعين خلف أسوار المدينة الذين لم يجدوا أمانا منها.

واستمر القتال (يوم الخميس) من طلوع الشمس إلى مغيبها بصورة مدهشة بحيث يصعب تصديق أنه يمكن القيام بشيء أكثر عظمة من ذلك...

وجلب الليل الخوف للجانبين المتحاربين، وكان خوف المسلمين أنّ نتمكن من الإستيلاء على المدينة بالليل أو في اليوم التالي، فقد تهدمت التحصينات الخارجية، وملىء الخندق (سوي) بحيث صار من الممكن عمل (فجوة) في السور والدخول منها بسرعة. أما من جانبنا فقد خفنا فقط أن يتمكن المسلمون من إشعال النار بالآلات التي قربت كثيراً من السور، وبذلك يتمكنون من تحسين موقفهم (العسكري). وكانت تلك الليلة، للجانبين، ليلة ترقب وتعب وحذر وقلة نوم من ناحية، وأمل أكيد من ناحية أخرى، وخوف وشك ..... ويصعب التصديق كم كانت الجهود كبيرة من الجانبين خلال الليل.

وعندما جاء صباح اليوم التالي (الجمعة) اندفع رجالنا (من الفرنجة) بحماس باتجاه الأسوار، وبدأوا بجرّ الآلات إلى الأمام (نحو السور)، لكن

المسلمين (بنوا بدورهم) آلات كثيرة بحيث صار لديهم تسعة أو عشرة آلات مقابل كل آلة من آلاتنا ، ولذلك فقد أثروا كثيراً في (إضعاف) جهودنا . وكان هذا اليوم هو اليوم التاسع الذي قال الكاهن إنه اليوم الذي سنحتل فيه المدينة ، ولكن لماذا أتباطىء طويلاً (في ذكر القصة)؟ إن آلاتنا قد تضعضعت وتفككت بسبب ضربات الحجارة الكثيرة ، وتراجع رجالنا لأنهم كانوا مرهقين جداً ، ومع كل ذلك فقد بقيت رحمة الله . . . . .

وعند ظهر ذلك اليوم (الجمعة) كان رجالنا قد وصلوا إلى درجة اليأس . كانوا مرهقين جداً واستنفذوا كل قواهم ، إذ كان لا يزال الكثير من الأعداء مقابل كل رجل من رجالنا ، كما أن الأسوار كانت عالية ومنيعة وقوية ، كما أبدى العدو قدرات كبيرة ومهارات فائقة في ترميم دفاعاتهم التي تضررت بحيث بدا أنها صارت أعظم من أن نتغلب عليها . وفي مثل (هذه الحالة) من التردد وفقدان التوصل إلى قرار ، ونشوة العدو من حالنا ، جاءتنا رحمة الله الشافية : بينما كان مجلس (الشورى) مجتمعا لتقرير سحب آلات (الحصار) أو ابقائها ، لأن بعضاً منها أحرق وبعض آخر قد تفكك ، ظهر فارس على جبل الزيتون وبدأ يلوح لنا بالتقدم (للهجوم) . . . فابتدأ رجالنا بتوجيه ضرباتهم نحو السور (من جديد) بينما قام آخرون بنصب السلالم (على الأسوار) وتسلقها إضافة إلى التسلق بالحبال . من ناحية أخرى بدأ رجالنا برمي النار المشتعلة بالنشاب وبذلك أوقفوا الهجوم الذي قام المسلمون به على الأبراج الخشبية (التي بناها) الدوق والكندين (المذكورين سابقا) . وكانت هذه المقذوفات النارية ملفوفة بالقطن ، وتمكن (رجالنا) باستخدامها من إبعاد المدافعين عن السور ، عند ذلك قام الكند بانزال أرض الجسر المتحرك الطويل الذي يحمي جانب البرج الخشبي المواجه للأسوار ، فاستقر فوقها (الأسوار) لأنه كان مثبتاً إلى وسط البرج ، مشكلا بذلك جسراً عبر الرجال فوقه ودخلوا مدينة القدس بشجاعة ودون خوف . وكان من بين

أوائل من دخـل المدينة تنكرد ودوق لـورين اللذين أهـرقا في هذا اليـوم دماء كثيرة لا تصدق. ولحقهم الباقون جميعا، وبدأت عندها معاناة المسلمين.

ومن غريب ما يسجل (هنا) أنه في ذات الـوقت الذي دخل (الفرنج) فيه إلى المدينة واحتلوها تقريباً، كان المسلمون لا يزالون يقاتلون في الجانب الآخر منها حيث كانت (قوات) الكند (ريمون) تقاتل كما لو أن المدينة لا يستطاع احتلالها. وبعدمـا تمكن رجالنا مـن احتلال الأسوار كان المشهـد مدهشا، فبعض رجالنـا قطعوا رؤوس أعدائهم (وكان ذلـك أكثر رحمة لهم) والبعض الآخر تم قنصهم بـالنشاب بحيث صاروا يتساقطون مـن الأبراج، والبعض الآخر عـذبهم لمدة أطول بالقـائهم في النار الملتهبة، وكنـت ترى أكوامـاً من الـرؤوس والأيدي والأقـدام في شـوارع المدينـة، بحيث صـار (على المار) أن يلتقط طـريقه فوق جثـث الرجال والخيول، ولكـن كانت هـذه أمور صغيرة بالمقارنة بما وقع في معبـد سليمان (المسجد الاقصى) . . . . . فماذا حدث هناك؟

اذا أخبرتك بالحقيقـة فإنها ستزيد مـن مقدرتك على التصديـق، ولذلك يكفي أن اقول القدر التالي عن ما وقع في معبد سليمان وأروقته : فان الرجال كـانوا يسيرون في الـدمـاء إلى ركبهم وأرسنـة خيـولهم . . . . وقد امتـلأت المدينة بـالجثث والدماء، وكـان بعض أفراد العدو قـد لجأوا إلى برج داوود، وطلبوا من الكند ريموند الرحمة والحماية، وسلموا البرج اليه.

حصار القدس

(وليم الصوري، تاريخ الأعمال في ما وراء البحار

[بالانكليزية] ج١ ص ٣٤٨ - ٤٠٨)

الفصل الخامس

في (يوم) [١٥ رجب ٤٩٢هـ] ٧حزيران من سنة ١٠٩٩م، خيمت فرق الجيش المسيحي أمام القدس، وكان عدد الحجاج من الرجال والنساء من مختلف الأعمار والأحوال كما قيل حوالي أربعين ألف (إنسان). ومن بين هذا الجمع الكبير لم يكن هنالك أكثر من عشرين ألف راجل وألف وخمسماية فارس، أما الباقي فقد كانوا من المرضى وغيرهم ممن لا فائدة ترجى منهم.

وذكرت الروايات أنه كان داخل مدينة القدس (حوالي) أربعين ألفا من المقاتلين الشجعان المجهزين (بالسلاح) بصورة ممتازة. فقد تجمع في المدينة المقدسة من جاء من القلاع المحيطة بها ومن الأرياف القريبة منها. قد هرب (أولئك) الرجال أمام الجيش الفرنجي (المتقدم من الساحل) ليس فقط طلباً لحماية أنفسهم، ولكن للمساعدة في الدفاع عن المدينة الملكية ضد الخطر الذي هددها، وقد أحضروا معهم تعزيزات (للمدينة تمثلت) بالرجال المسلحين وإمدادات الميرة والغذاء.

وعندما اقترب الفرنج من المدينة، عقدوا مجلس مشورة عاجلٍ مع الناس الذين يعرفون المنطقة (حولها) وذلك لتحديد الجهة المناسبة التي يمكن مهاجمة المدينة منها بسهولة (وراحة أكثر). ولما كانت الأودية التي ذكرنا (فصل ٤) لا تسمح بأي هجوم من جهة الشرق أو جهة الجنوب فقد قرر قادة (الجيش) مهاجمة المدينة من الشمال، وطبقاً لهذا (القرار) فقد رتب المعسكر بحيث امتد من الباب الذي يعرف الآن [في زمنه] باب القديس

اسطفان والذي يواجه جهة الشمال وحتى الباب الـذي يقع تحت برج داوود في الجهـة الغربيـة في المدينة والـذي كان يـدعى كـالبرج نفسه بـاسم الملـك (داوود).

وتم تـرتيب المعسكر كـالتالي : جـاء أولاً معسكر (قوات) غـودفري دوق اللوريـن، وبعده معسكـر روبرت كنـد فلانـدرز، واحتل الموضـع الثالـث روبرت كند نورمانـدي، والرابع قوات تانكرد وبعض النبلاء الآخـرين الذين تـركزوا حـول البرج الذي يقـع في الزاويـة (الغـربية) الـذي سمي بعـد ببرج تانكرد، أما كند طولوز والذيـن معه فقد استمروا في حصار (المدينة) من حد هذا البرج المذكـور وحتى البـاب الغـربي، ووجد ريمـوند فيما بعد بـأن وضـع (معسكره) لا يعطي أي ميـزة للنجاح في مهاجمة المدينة مـن هذا الجـانب لأن برج داوود كان يسيطـر سيطرة تامة (على الموقـع) ويشكل حماية قويـة للباب (المذكور) الذي يقع عند قاعدتـه، كما أن منطقة الوادي القريبة التي تقع بين معسكـره والمدينـة كـانـت تعيـق جهـوده. ونظـراً لهذه الظـروف الطبيعيـة والإستراتيجية فقد نقل (ريموند)، بناءً على نصيحة بعض النصحاء الأذكياء الذين يعـرفون المنطقة جيداً، جـزءاً من عسكره إلى التلة — التـي تقوم عليها مدينـة القدس وكان هذا الموضـع (الجديد) يقع بين المدينة وكنيسـة صهيون التي تبعـد مقدار رمية سهـم عن القـدس إلى جهة الشمال، وترك (بـذلك) جزءا مـن (جيشه) في معسكـره الأول، وكان هـدفه مـن هذه العمليـة، كما قيل، مزدوجاً :

إنه رغب ان يكون لرجاله مجال (حـركه) أسهل لغرض الهجوم، كما هدف إلى حماية كنيسة صهيون من أي ضررٍ (قد يلحقها) من العدو. . .

الفصل السادس

كان ترتيب المعسكر كما وصفنا (ومنه يظهر) بأن أقل من نصف المدينة قد أحيط بخطوط الحصار. (فالأسوار الممتدة) من الباب الشمالي الذي يعرف عادة بباب القديس اسطفان وحتى البرج الذي يشرف على وادي جهنم، ثم من هذا البرج إلى الزاوية المقابلة في الجنوب فوق منحدرات ذات الوادي. ومن (هذا البرج الاخير) إلى الباب الجنوبي الذي يسمى الآن باب جبل صهيون، بقيت المدينة دون حصار.

وفي اليوم الخامس من اتخاذ جيشنا (الفرنجي) مواقعة أمام الأسوار أعلن المنادون نداءً عاماً بأن على الجميع من الصغار والعظماء بالتسلح جيداً والتدرع بالدروع والتجهز لبداية الهجوم. وهكذا كان إذ نهض الجميع نهضة رجلٍ واحدٍ لمباشرة مهامهم وهاجموا المدينة بحماس واندفاع من مختلف مواضع الحصار . . . (وكان الهجوم من الشدة) بحيث هدم المهاجمون التحصينات الخارجية وأجبروا العدو على التراجع بذهول لحماية الأسوار الداخلية. وفي الحقيقة فقد بدأ شك سكان المدينة بإمكانية الاستمرار في المقاومة، ولو كان لدى الفرنجة (Christians) سلالم التسلق أو الآلات التي يسيطر بها على التحصينات الخارجية لتمكنوا دون جدال أو سؤال من الاستيلاء على المدينة في هذا اليوم الذي هاجموا فيه بمثل هذا الحماس. لكن بعد بذل الجهود الكبيرة من بزوغ الفجر وحتى حوالي الساعة السابعة تأكد لهم أنه بدون الآلات لا يمكن أن يأملوا / بإنجاز شيء سوى القليل. ولذلك فقد أجلت العمليات العسكرية حتى يتم بناء الآلات التي أملوا بواسطتها، وبمساعدة من الله (الرب) تجديد الهجوم بنجاح أكبر.

واهتم الزعماء الآن بحماس بمشكلة الحصول على المواد المناسبة لبناء آلات الحصار، وتبين أن المنطقة القريبة (من المدينة والمعسكر) لا يمكن أن تزودهم بما يحتاجون اليه، لكن لحسن الحظ فقد صادف أن كان في المعسكر نصراني سوري من أهل البلاد أرشد بعض قادة (الجيش) إلى وادي (Retired) منعزل تنمو فيه الأشجار الطويلة ويبعد حوالي ستة أو سبعة أميال عن مدينة القدس. وعلى الرغم من أن الاشجار (في هذا الوادي) لم تكن مناسبة تماماً للغرض، فإنه وجد فيه عدداً كافياً منها يمكن الاستفادة منه في حالة طارئة، واستدعي عدد مناسب من النجارين والعمال، وقطعت الأشجار وحملت على الجمال والعربات إلى المدينة (المعسكر الفرنجي)، ثم جمعوا الحرفيين وغيرهم ممن يتقن مثل هذا النوع من العمل، وعملوا بحماس لا ينقطع بالمعاول والأدوات الأخرى التي تستعمل في اعمال البناء وتمكنوا – من هذه المواد المتوافرة – من بناء أبراج ومنجنيقات (Mangons or Petraries) واكباش وستائر (وغيرها من الآلات) التي تستعمل في حرب الأسوار . . . .

وبينما كان كبار الزعماء مشغولين بالقضايا الهامة، كان الأشراف (الصغار) والرجال البارزين (من الفرنج) يحملون الرايات المنشورة ويقودون الناس إلى حيث يمكن أن يعثروا على الأشجار الصغيرة، وكانوا يقطعون من هذه الاماكن الأغصان والعيدان ويحملونها راجعين إلى المعسكر على الخيول والحمير وغيرها من حيوانات حمل الأثقال حيث يصنع منها اغطية أو سلال (Wickerwork) لاستكمال أعمال البنائين الأكثر اهمية. كان النشاط (في العمل في الآلات) في كل مكان بجد وحماسٍ لا يعرف الكلل . . . . . .

الفصل السابع

وبدأ الجيش (الفرنجي) يعاني من شدة العطش، وسبب ذلك، كما بينا سابقا، أن مدينة القدس تقع في منطقة جافة تخلو كلياً من الماء، فليس هنالك من جداول أو ينابيع أو حتى آبار للماء العذب (خارج أسوار المدينة) إلا على مسافة بعيدة منها، ويضاف إلى ذلك أن المسلمين عندما عرفوا باقتراب الفرنجة غوروا مصادر المياه هذه أيضاً، إذ رموا فيها الأوساخ وكل أنواع الفضلات، بحيث لا تمكن الظروف حول المدينة من بقاء المحاصرين لها مدة طويلة باستمرار، أما أحواض المياه والآبار التي يجمع فيها ماء الامطار فقد أخربت إلى الدرجة التي لا تسمح بالحفاظ على أي ماء فيها أو أخفيت بحيث لا يتزود الحجاج الفرنج العطشى بما يحتاجون اليه. ومع ذلك فان أهل بيت لحم. . . (وغيرهم من النصارى) كانوا يردون إلى الجيش باستمرار، وكانوا يرشدون الحجاج إلى الينابيع والعيون التي تبعد مسافة أربعة أو خمسة أميال من مكان الحصار. . . .

وأصاب الناس خلال هذا الحصار شدة لا ترحم من العطش لا تقل عن الشدة التي لحقتهم من قلة الطعام أمام (أسوار) انطاكية، وتفرقوا في الأرياف المجاورة دون حيطة وحذر بحثا عن الطعام لأنفسهم والعلف لخيولهم. أما العدو، الذي كان يعرف عادة انتشار (المقاتلة) هذه، فقد كان يخرج سراً من المدينة ويهاجم جماعات العلافه. ونتيجة لذلك فقد قتل الكثير منهم (إي الفرنج) وأخذت خيولهم، كما كان يهرب البعض مثخنين بالجراح.

في ذلك الوقت كانت أعداد العدو [المسلمين] في المدينة تزداد باستمرار بحيث تضاعف من فيها ذلك أن حلفاءهم كان بامكانهم الوصول إلى المدينة من الجهات التي لم يتمكن (الفرنج) من حصارها، وينضمون اليهم بهدف القضاء علينا.

الفصل الثامن

في هذا الوقت كانت قواتنـا تبذل أقصى جهدها في العمل، فبنوا الآلات وحاكوا الستائر وجمعوا السلالم بعنايـة فائقة . أما المحاصرون (داخل الأسور) فقـد كـانـوا أيضـاً يقظين لمواجهـة (الخدع العسكـريـة بخـدع ممـاثلـة لها) واستخدموا كل شيء لمقاومتنا . فقد كان في المدينة كميات مناسبة من جذوع الأخشاب المقطوعة من الأشجار الطويلة التي احضرت بتفكير مسبق سليم قبل وصول الفرنج من أجل الدفاع عن القدس. وحذا (أهل المدينة) حذونا فبنوا من هذه الأخشاب - داخل الأسوار - آلات مساوية لآلاتنا في الإرتفاع ومن مـواد أفضل من المواد المتـوافرة لدينـا ، ووضع حراس بصفـة دائمة على الأسوار وفي الأبـراج الذين كـانوا يراقبـون بكل دقـة ما كان يعمـل في جيشنا خاصـة ما يتعلـق بالنماذج والأساليـب العائدة إلى أسلحـة الحرب وآلاتها ثم يخبرون رؤساء أهل المدينة بكل دقائق ما يشاهدون. وحاول هؤلاء (بدورهـم) بمهارة فائقة تقليد ما يعمله الفرنجة بحيث يتمكنون من مواجهة كل جهودنا بجهود مساويـة . وكان هذا امراً سهـلاً إذ كان لدى أهل المدينـة من العمال المهرة وأدوات البنـاء أكثر مما كـان لدينا إضـافة إلى كميات أكبر مـن الحديد والنحاس والحبال وكل ما هـو ضروري (لمثل هذه الاعمال) . وقد اجبر جميع سكان المدينـة بمرسـوم عام بالمسـاعدة في العمـل . اما النصـارى في المدينة الذين كـانوا ذمة فقد فرضـت عليهم ضرائب اضافية ثقيلـة . . . وقد فرض عليهـم أن يستقبلوا في بيـوتهم لاجئين من القـرى والحصون المحيطـة الذيـن هربوا إلى القدس، وتزويدهم بضروريات الحياة . . .

الفصل التاسع

[وبينما كـان وضع الحصـار كما ذكـرنـا] . . . وصل رسـل إلى المعسكـر وأخبروا بأن سفناً وصلـت (٢٥ رجب ٤٩٢هـ/ ١٧ حزيـران ١٠٩٩م) من جنوة إلى يافـا ، وقد طلب القادمـون (في السفن) من قادة (الفـرنجة) إرسال حامية من الجيـش (الفرنجي) تخفرهم وترشدهم للتقـدم بأمان إلى القدس . واستجابة لذلك وافق كند طولوز، الذي كان لديه إمكانات (مالية) أكثر من غيره، وبتأييد مـن الجميع على إرسال أحد النبلاء المرافقين له هـو جلد امار (Geldemar) المكنى بكاربنال (Carpinel) على رأس فرقة مكونة من ثلاثين فارساً وخمسين راجلاً (إلى يافا). وبعـد تحرك هذه القوة أدرك القادة بأنها غير كافية للمهمة الصعبـة التي أوكلت اليها، ولذلك سـألـوا الكند إرسال جند آخرين للحـاق بهم . . . ووافق (ريموند) فـأرسل خمسين فارساً آخـر لدعم المجمـوعـة الأولى بقيادة رجلين قـديـريـن ومتميـزيـن هما ريمونـد بيليـت (Raymond Pilet) ووليم دي سـابران (William de Sabran) . . . وتحرك القادمـون الجدد بكل ما يملكـون باتجاه القـدس بحراسة القـوة التي أرسلت لارشـادهم (حمايتهـم)، (وعندمـا وصلوا) استقبلوا بفرح عظيـم من الفـرق (الفرنجيّـة) التـي كانـت معسكره أمـام (أسـوار القدس)، وانعـش قدومهـم الأمل بالمساعدة الكبيرة منهم، لأنهم كانوا اصحاب خبرة طويلة في فن البناء كما هي عادة البحارة اذ كـانوا خبراء في قطع الأشجار وتمليسها وفي تثبيت الأخشاب الطويلة، ونصب الآلات في أقـل وقت ممكن. واضافة إلى ذلك فقد أحضروا معهم أشياء كثيرة ومتنوعة والتي كان لها أهمية كبيرة لقوات الحملة فيما بعد. وبمساعدة هؤلاء الـرجال تمكن الحجاج من إنجاز الأعمال بسهولة والتي كانت قبل وصولهم صعبة وربما مستحيلة.

الفصل الثاني عشر
نقل المعسكر في الليل ونصب الآلات في مواضعها حول المدينة

اقترب اليوم المحدد للهجوم، وفي الليلة السابقة لهذا اليوم قام الدوق (غودفري) والكندين بنقل المعسكر(إلى موقع جديد) إذ لاحظا بأن الجزء من السور الذي أحكموا حوله الحصار (من البداية) كان عليه دفاعات قوية من الآلات والأسلحة والمحاربين الأشداء، إضافة إلى أن معرفة المسلمين أن الخطر عليهم سيأتي من هذه الجهة قاموا بتقويتة وتحصينه . ونظراً لقوة هذه التحصينات، فقد رأى القادة أنه لا يمكنهم أن يأملوا بتحقيق الكثير في اليوم التالي، ووجدوا - وكان هذا رأى صائب - أن الجانب الآخر من القدس الذي لم يحاصر كان قليل الحراسة ودفاعاته (ضعيفة). وتبعاً (لهذا النظر الجديد والبعيد) فقد نقلوا آلاتهم وبرج الحصار قطعة قطعة قبل جمعه إلى الجزء الشمالي من المدينة (خارج الأسوار) الذي يقع بين باب القديس اسطفان (العمود) والبرج الذي يقع على الزاوية الشمالية (الشرقية) (من السور) المطلة على وادي جهنم (برج اللقلق). كما نقل كل المعسكر إلى الموقع الجديد. وتمكن (الفرنجة) بالجهود الكبيرة والعمل الدؤوب الذي استمر طوال الليل من نقل الآلات ونصبها ووضعها في مواقعها المناسبة قبل طلوع الشمس، ونصب البرج المتحرك في موقع قرب تحصينات كان السور عندها أقل ارتفاعاً من غيره (إضافة) إلى أن المكان (خارجه) كان مستويا ويمكن الوصول منه إلى السور. ووضع البرج بحيث كان المدافعون في أبراجهم والمهاجمون في آلة حصارهم يبدون وكأنهم يقاتلون قتال يد بيد. ولم يكن هذا العمل الذي أنجز قليلا إذ سحبت الآلات مسافة نصف ميل عن موقعها في المعسكر السابق قبل طلوع الشمس، وأعيد تركيبها ووضعها في أماكنها الجديدة.

وعند الفجر أسرع سكان المدينة إلى الأسوار ليشاهدوا ماذا كان الفرنج يفعلون في الخارج ، ووجدوا لشدة دهشتهم أن جزءاً من المعسكر الذي كان قائماً في مواجهة (الأسوار) مدة اليومين الاخيرين قد اختفى من كل الأثقال والآلات التي كانت فيه . وقام أهل القدس باستكشاف المنطقة وما يدور حول السور كله بعناية واكتشفوا أن معسكر الدوق قد انتقل وكذلك الآلات وأنها قد نصبت في الموقع الذي ذكرنا قبل قليل .

وخلال الليلة ذاتها ، وفي أماكن أخرى خارج المدينة وبنفس الطريقة التي وضعوا معسكراتهم في الترتيب الذي ذكرنا ، تابع الزعماء الآخرون أيضاً أعمالهم ، فقد تابعوا مراقبتهم اليقظة ونصبوا آلاتهم (استعداداً للقتال) . وفي الآن ذاته تقريباً قرب كند طولوز البرج الذي كان قد عمله (رجاله) إلى الفصيل (Ramparts) او التحصينات الخارجية بعناية في المنطقة بين كنيسة صهيون والمدينة . أما الزعماء الذين احتلوا موقعاً حول البرج عند الزاوية (الغربية) والذي عرف بعد ببرج تنكرد (Tankred) ، فقد تحركوا باتجاه السور بعناية وجهد مماثل لجهد غيرهم ودفعوا (نحوه) برجاً خشبياً يقارب الأبراج الأخرى في ارتفاعه وبنائه المحكم .

كان شكل الابراج الثلاثة وصناعتها متشابه كثيراً : كانت تتكون من هياكل مربعة وكانت واجهتها المقابلة للسور محمية بغطاء مزدوج ، وكان الغطاء الخارجي يمكن انزاله بواسطة أداة مناسبة ليكون جسرا بين البرج والسور. وهذه المناورة (البنائية) لا تدع تلك الواجهة من البرج معرضة (للخطر) إذ عند تنزيل الغطاء الخارجي فان طبقة الغطاء الداخلي تقدم حماية (لمن في داخل) البرج مثل حماية الجوانب الأخرى .

الفصل الثالث عشر

(الحرب يوم ٢١ شعبان ٤٩٢هـ/ الخميس ١٣ تموز ١٠٩٩م)

وعند طلوع النهار، وقف الجيش الفرنجي أمام المدينة، حسب الترتيب المتفق عليه، بكامل أسلحته ومستعداً لبدء الهجوم . . . . . . وهكذا تقدم الفرنجة بسياق واحد الى المعركة، وجرب الجميع تقديم الآلات التي بنيت حديثا إلى السور بحيث يتمكنوا بسهولة من مهاجمة المدافعين من على الأبراج والتحصينات الأخرى الذين كانوا يبدون مقاومة شديدة. اما الفرنجة [المواطنون] فقد كانوا من جانبهم مصممين على مواجهة أعدائهم حتى النهاية ولذلك أمطروهم بزخات [متتالية] من النشاب وغيره من المقذوفات [المتوافرة لديهم]. وتساقطت الحجارة بقوة من الأيدي والآلات عندما حاول المسلمون بكل وسيلة ممكنة منع جماعتنا من الإقتراب من السور، لكن الفرنجة، الذين كانوا يحتمون بالدروع والستائر التي رفعوها أمامهم، آبدوا نشاطاً [قتالياً] لا يقل عن نشاط أهل المدينة. وقد واجه الحجاج [الفرنجة] زخات من النشاب وغيرها من آلات الرماية بينما كان الحجاج يجاهدون للإقتراب من التحصينات إذ كان هدفهم إضعاف بسالة عدوهم [ومعنوياته] بمنعه الحصول على لحظة من الراحة والاستقرار، فاستمر البعض منهم، وهم المرتبون في داخل البرج المتحرك، في دفعه بواسطة أعمدة طويلة، وكان البعض الآخر الذين رتبوا على الآلات يرمون الصخور الكبيرة التي كانت تصطدم بالسور - كل (ذلك) على أمل أن اصطدام (الصخور) المستمر، والضربات المتتالية ستضعف (الأسوار) مما يؤدي إلى تداعيها وسقوطها. (يضاف إلى ذلك) كان فريق آخر مسلح بأسلحة أصغر تدعى المنجنيقات (Mongons) يرمون حجارة أصغر حجماً ويعملون بحماس وجهد لمنع المدافعين عن الفصيل الحاق الضرر بمحاربينا.

وأما الذين كانوا يحاولون دفع الآلة [الكبيرة] (البرج) إلى الأمام فلم ينجحوا كما كانوا يأملون نظراً لوجود خندق عريض وعميق أمام الدفاعات (Bulworks) الذي أعاق كثيراً تقدم الآله الكبيرة. ولم يلاق الذين كانوا يحاولون عمل فتحة في السور النتائج التي يرغبون. كان سكان المدينة قد علقوا في الجهة الخارجية للسور أكياساً كبيرة جداً مملوءة بالقش والتبن (Chaff) إضافة إلى الحبال والسجاجيد وقطع الخشب الضخمة وفرش محشوةٍ بالحرير. وكانت نعومة هذه المواد العازلة للسور وطراوتها تجعل من ضربات المقذوفات عديمة الفائدة والتأثير، وبالتالي تغلبت على كل جهود المهاجمين. إضافة إلى ذلك فقد نصب المسلمون آلات داخل المدينة يفوق عددها كثيراً عدد ما لدينا من آلات، ومن هذه الآلات أيضا كانوا يطلقون النشاب والحجارة بصورة مستمرة لإعاقة جهود هجوم الفرنجة في الخارج.

وهكذا كان الجانبان يبذلان كل ما لديهم من جهد ويقاتلون بضراوة مريرة. واستمر الصراع من الصباح إلى المساء، وكان (صراعاً) (مريراً) ومثابراً ورهيباً لدرجة لا تصدق. وكانت الرماح والسهام تتساقط مثل زخات البرد (Hail) على الجيش، وكانت الحجارة التي ترميها الآلات من الجانبين تصطدم في الهواء مع ما كانت تجلبه للمتحاربين من الموت بأنواعه المختلفة.

وتزايد عمل الفرنجة أكثر إذ كان عليهم طم الخندق بالحجارة والتراب وغيره من الأشياء ليتمكنوا من عمل طريق يقربون منه الآلات نحو الأسوار.

. . . (كذلك) كانت جهود المدافعين لإعاقة عمل القوات التي تحاصر (المدينة). . . . وفي جهودهم اليائسة لحرق الآلات، ولذلك فقد إستمروا في إبداء مقاومة كبيرة ضد الجهود الحثيثة للمحاصرين، ومن أساليبهم اليائسة لحرق الآلات التي للفرنج خارج الأسوار أنهم كانوا يرمونها بمشاعل مشبعة بالكبريت والقار والدهون والزيت وأي شيء يزيد في تأجيج اللّهب. إضافة إلى كل ذلك كانت ضربات الآلات الكبيرة من دا خل المدينة والموجهة ضد

الفرنجة في الخارج، قوية بحيث بدأت إمدادات [الفرنج] تضعف وصارت جوانب (البرج) مليئة بالخروق. وأصاب المحاربون الفرنج، الذين صعدوا إلى الطوابق العليا للبرج لمهاجمة المدينة من ذلك الإرتفاع، الذعر وبالكاد إستطاعوا الهرب قبل وقوعهم على الأرض. وفي آخر الأمر نجح الفرنج في إخماد النار وأفشلوا جهود المدافعين لحرق (البرج) بصب كميات من الماء (عليه) من الأعلى.

الفصل الرابع عشر

ليلة ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٤ تموز ١٠٩٩م

وأدى اقتراب المساء إلى توقف القتال الشجاع الذي شن وسط خطر بالغ، ومع ذلك فلم يؤد إلى نتيجة حاسمة، وحصل المقاتلة، أثناء الحراسة، على قسط من الراحة الجسدية. . . ومع ذلك فقد كان قلقهم كبيراً من أن يتمكن المسلمون بأي وسيلة (ممكنة) لديهم من إشعال النار في الآلات، فقاموا من أجل (المحافظة عليها) بترتيب حراس لها أمضوا ليلة لم يغمض لهم فيها جفن.

وكان المحاصرون بدورهم يعانون من خوف مرير مماثل، وكان خوفهم خاصة من أن يتمكن العدو من إغتنام فرصة هدوء منتصف الليل فيدخلون المدينة عن طريق إحداث فجوة في الأسوار أو تسلق التحصينات، فبقوا بدورهم طوال الليل (يحرسون الأسوار) بدوريات كانت تجوب الأسواق بمثابرة من كان الأمر بالنسبة لهم قضية حياة أو موت، ووضعوا في كل برج قائد(يشرف) على الحراسة الليلية؛ في ذات الوقت كان شيوخ البلد وغيرهم ممن وقع عليهم مسؤولية حماية ا لمدينة يقومون بجولات في شوارعها، كما طلبوا من غيرهم اليقظة والحراسة من أجل (حماية) نسائهم وأولادهم وممتلكاتهم وأمن العامة. وكانوا يتفقدون بعناية الأبواب والطرقات بحيث لا يترك شيء ما يمكن أن يستغله العدو.

الفصل الخامس عشر

كانـت تلك الليلـة تقترب من نهايتهـا ، وكانـت خيوط الضـوء الأولى قد بدأت تعلـن وصول اليوم الـذي كنا نتطلـع اليه ، وكان النـاس . . . . قد استدعوا للقتال ، وعاد كل رجل إلى الموقع الذي كان يحتله في اليوم السابق . فـالبعـض استمر بـرمـي الحجـارة الكبيرة الوزن مـن الآلات على الأسوار، وبذلت جماعة أخرى كل ما لديهم من جهد في دفـع آلة الحصار إلى الأمام ، أما الذين كـانوا مرتبين في الطابق الأعلى من البرج فقد أربكـوا العدد المتمركز في الأبـراج المقابلـة لهم بـالقـذائف من آلاتهم وأقـواسهـم وكـل سلاح كـان لديهم ، وكان هـذا الرمي المستمر مؤثراً (إلى الدرجة) التـي منعت المدافعين من رفع أي طرف من أطرافهم وبقوا حبيسين في تحصيناتهم .

وعندما تم طم الخندق واختراق الأسوار الأمامية ، دفع المحاصرون الفرنج البرج بكل قوتهم قرب السـور. في ذات الوقت كانت قوة كبيرة (مـن الفرنج) ترمـي زخات متواصلـة من الحجـارة والسهام نحو المدافعين لإجبـارهم على التخلي عن تحصيناتهم بحيث لا يعيقوا الذين يدفعون البرج إلى الامام [باتجاه الأسوار] .

وعندمـا شاهـد سكان (المدينـة) تزايد جهـود الفرنـج [في الهجوم] بـذلوا بدورهم كل جهـدهم في مواجهة كل مناورة للفرنج بمثلهـا ، ومواجهة القوة بالقـوة ، واستمروا برمـي الحراب الملتهبة والحجارة ضـد المحاصرين خـاصة أولئك الذين كانوا يقومون بدفع البرج ، وأبدوا طاقة (دفاعية) تثير الإعجاب مكنتهم من إعاقـة تقدم الفرنج . وفي محاولة لوضـع حد نهائي لجهود الجيش الفرنجـي ، فقد ألقـوا بالنيران على الآلات ، في جـرار هشة وبكـل الوسـائل الأخـرى ، كما ألقوا إلى الأسفـل (على الآلات) ، بـالكبريت والقـار (Pitch) والشحم والشمع والخشب الجاف وغيره ، وكل شيء يمكن من تغذية النيران الملتهبة كوقـود لها ، ونتيجة لذلك انتشرت الفوضـى في الجيش ، وهلك كثير من الخيـالة والرجالـة . . . ومع ذلك فـإن كل هذه الكوارث لم تخفـف من تصميم الجانبين المتحاربين من الاستمرار بالحرب والقتال .

الفصل السابع عشر

وبينما كان هجوم (الفرنجة) في الجهة الشمالية من المدينة يجري باندفاع وحيوية كان كند طولوز ومن معه من الرجال يهاجمون الجهة الجنوبية باندفاع مماثل. وعمل [هؤلاء الرجال] لمدة ثلاثة أيام متتالية دون كلل حتى طموا الخندق. وعندما تم ذلك قدموا آلات الحصار إلى السور [بحيث صارت في موقع] يتمكن منه المدافعون في أبراج (السور) والفرنجة في آلات الحصار من جرح بعضهم البعض بالرماح والحراب . . . . وكان عمل هذين الفريقين من الفرنجة يسير بنمط متماثل . . .

الفصل الثامن عشر

كانت فرق جند الدوق والكندين تهاجم المدينة، كما ذكرنا (سابقا) من الشمال، ونجحت بمساعدة إلاهيه التحصينات الخارجية وردم الخندق. وصار العدو (آنذاك) في حالة إرهاق كامل بحيث لم يعد لديه مقدرة على متابعة المقاومة، ولذلك فقد تمكن الفرنج من التقدم إلى الأسوار دون خطر، ولم يلاقوا مقاومة الا من بعض شجعان المسلمين الذين استمروا في اطلاق النشاب من خلال الفتحات المخصصة لذلك في السور.

وباشارة من الدوق أشعل المحاربون في آلات الحصار النار في اكياس القش والوسائد المحشوة بالقطن التي ازدادت اشتعالاً بالريح الشمالية التي كانت تهب، وذلك عند اطلاقها إلى داخل المدينة، وقد ملأت هذه القذائف التي انصبت على المد ينة (خلف السور الشمالي) المنطقة بالدخان بكثافة بحيث لم يستطع المدافعون ترك أفواههم أو عيونهم مفتوحة، ودفع تيار الدخان الاسود المدافعين إلى التخلي عن الفصيل وتحصيناته. وعندما اتضح هذا الأمر للفرنجة أمر الدوق باحضار قطع الأخشاب الطويلة، التي أخذت

من العـدو* إلى أعلى البرج حالاً ثم وضعت بحيـث ارتكز أحد طـرفيها على البرج والطرف الآخـر على السور، ثم أمر الـدوق بانزال الجانب المتحـرك من البرج الخشبي عليهـا، مشكلا بـذلك جسراً قويـا . . . . وعندمـا انتهى وضـع الجسر بهذه الصورة قـاد الـدوق غـودفري، يـرافقـه أخـوه يوستـاس (Eustace) ، الفـرنج إلى داخـل المدينة وشجـع الآخريـن على اللحاق بـه . وتبعهم مباشرة الأخوين الشريفين Geslebert, Ludolf من مواطني مدينة تورناي Tournai . . . ثم عبرت الجسر مجموعة من الخيالة والرجالة بعدد لم يعد البرج أو الجسر قادراً على احتمالـه . وعندما شاهد العدو أن الفـرنجة قد استـولـوا على السـور وأن الـدوق قـد رفـع رايتـه فـوقـه تخلـوا عـن الأبـراج والتحصينات ، وهربوا باتجاه الشوارع الضيقة .

أما بالنسبة لجمـوع الفرنجة فانهم عندما رأوا أن الدوق وغـالبية القادة قد سيطروا على الأبراج اندفعوا ، دون انتظـار صعود البرج ، إلى الأسوار حاملين السلالم التي كـانوا مزودين بها بكثرة إلى السـور إذ كان قد أمر سابقـاً بالمناداة بالمعسكر بأن يقوم كل فارسين فيه بعمل سلم للإستعمال العام . وعن طريق هـذه السلالم ، ودون أمـر الدوق ، انضـم هـؤلاء إلى الذيـن تسلقوا إلى قمـة [السـور] . . . (ثم يـذكر أسماء مشـاهير من تسلـق السور) . ومـا أن رأى الدوق كـل هؤلاء الفرسان يـدخلون المدينة حتـى أرسل بعضهـم مع مـرافقي شرف لفتح الباب الشمالي للمدينة الذي يـدعى الآن [في وقته] باب القديس اسطفان ، ليمكنـوا عامـة الفرنجـة من دخـول المدينة . وتـم هذا الأمـر دون تأخير ، واندفع كل الجيش إلى الداخل دون ترتيب أو نظام .

كان ذلـك [الدخـول] في الساعة التـاسعة مـن يوم الجمعـة [٢٢ شعبان ٤٩٢هـ / ١٤ تموز ١٠٩٩م] . . . .

---

* كان المدافعون سابقـاً قد ألقوا قطعاً طويلة مـن الخشب مربوطة بحبال على السـور طوليا إلى أسفل واستطـاع الفرنجـة بوسـائلهم مـن قطع حبـال عـدد منها لـلاستفادة منهـا في تدعيـم جسر البرج الخشبي ، وقد ذكر وليم ذلك في السابق (لكنه لم يترجم في حينه من أجل التكرار) .

الفصل التاسع عشر

وجمع الدوق ومن كان معه من (القادة) صفوف قواتهم واندفعوا، تحميهم خوذهم وتروسهم ودروعهم، في كل الاتجاهات في الشوارع والساحات العامة في المدينة شاهرين سيوفهم ويقتلون كل من وجدوه في طريقهم من العدو دون تمييز للسن أو للجنس. وكانت مذبحة رهيبة في كل مكان. وفي كل مكان كانت أكوام من الرؤوس المقطوعة بحيث صار المار بعد قليل لا يستطيع الذهاب من مكان إلى آخر الا فوق جثث القتلى. وشق القادة طريقهم بالقوة إلى مركز المدينة تقريباً بطرق مختلفة ومن جهات مختلفة محدثين أثناء تقدمهم مذبحة لا تصدق، وسار خلفهم مجموعات كبيرة من عامة الفرنجة كانت عطشى لسفك الدماء وتهديم كل شيء.

في ذات الوقت كان كند طولوز والقادة الذين معه في منطقة جبل صهيون، يجهلون بأنه قد تم السيطرة على المدينة وأن النصر كان حليفنا، لكن صيحات الفرنجة العالية التي أطلقوها أثناء دخولهم القدس، وصيحات الخوف التي أطلقها العدو أثناء مذبحة المسلمين أدت إلى ذهول المدافعين في هذا الجزء من المدينة نتيجة لهذا الضجيج المختلط الذي ينبعث من المدينة. ثم عرفوا سريعاً أن المدينة قد تم الاستيلاء عليها وأن قوات الفرنجة قد دخلتها، فما كان منهم الا أن هجروا الأبراج والتحصينات دون تأخير، وهربوا في مختلف الإتجاهات طلباً للسلام والأمن، والتجأ القسم الأكبر منهم إلى القلعة القريبة منهم.

وهنا أيضاً أنزل الجيش الفرنجي الجسر دون مقاومة، ورفعوا السلالم على الأسوار، ودخلوا المدينة دون أدنى إعاقة من جانب المدافعين، وما أن دخلوا إلى الجهة الداخلية من السور حتى فتحوا البوابة الجنوبية القريبة منهم فدخل

بقية الفرنجة في هذه الجهة. من هنا دخل كند طولون [ومن معه من النبلاء] . . . واندفعت هذه القوات . . . . . . في المدينة. فالمدافعون الذين هربوا من أمام الدوق ورجاله إلى مناطق أخرى من المدينة واجهوا هذه القوات التي اندفعت من هذه الجهة.

الفصل العشرون

كان القسم الأكبر من سكان المدينة قد التجأ إلى ساحة المسجد الأقصى وقبة الصخرة التي تقع في جهة متطرفة من المدينة، وكان يحميها سور وأبراج وبوابات، لكنهم لم يجدوا الأمان هنا، ولحقهم بسرعة تنكرد ومعه القسم الأكبر من الجيش الذي فتح طريقه بالقوة إلى ساحة المسجد والقبة فكانت مذبحة كبيرة، وحمل منه تنكرد، كما تذكر التقارير، مقادير كبيرة من الذهب والفضة والمجوهرات، ويعتقد أنه بعد أن هدأت الأوضاع في المدينة أعاد هذه الكنوز إلى مكانها دون أن يلمسها.

وبعد أن قتل القادة كل من وجدوه في طريقهم في مختلف أجزاء المدينة، عرفوا فيما بعد بأن الكثير من سكانها قد التجأ إلى الحرم الشريف (المعبد)، فاندفع الجميع بسرعة إلى هناك، وتقدم جمهور من الفرسان والرجالة وسفكوا دماء جميع من التجأ هناك دون اظهار شفقة أو رحمة تجاه أحد، وامتلأ المكان كله بدماء ضحاياهم . . . . وقد ذكر [في السابق] بأن (عدد) من قتل داخل حدود الحرم يقارب عشرة آلاف من المسلمين اضافة إلى أولئك الذين قتلوا في كل مكان في المدينة في الشوارع والساحات والذين قدر عددهم بما لا يقل عن ذلك الرقم.

وقام بقية جند الفرنجة بالتجول في المدينة بحثا عن الناجين والذين يمكن

أن يكونوا قد اختبأوا في الطرق والحواري الضيقة تجنباً للقتل. وقد جر هؤلاء من [مخابئهم] إلى الأماكن العامة وذبحوا كالخراف؛ وكون بعض الفرنجة عصابات اقتحمت البيوت وأخذوا أربابها والنساء والأطفال وكل ما وجدوه فيها، وألقوا بهؤلا الضحايا من البيوت إلى الارض أو قتلوا، واخذ كل واحد منهم البيت الذي دخله كملكٍ دائم له وكل ما فيه. وقبل احتلال المدينة اتفق الحجاج (الفرنجة) أنه بعد الاستيلاء عليها أن ما يكسبه كل رجل لنفسه يصبح ملكاً دائماً بحق الاستيلاء [الملك]، دون مضايقة أحد له. ونتيجة لذلك فقد فتشوا المدينة بكل عناية، وقتلوا السكان، ووصلوا إلى أبعد الأماكن فيها وأكثرها انعزالاً، وكسروا وفتحوا بيوت العدو الخاصة جداً، وعلق المنتصرون على مدخل كل بيت عند أخذه درعاً أو سلاحاً، كاشارة لكل من يصل اليه [من الفرنج] حتى لا يتوقفوا عند بيت صار في حوزة شخص آخر.

الفصل الرابع والعشرون

. . . . وجد زعماء (الفرنج) أن من الأمور الملحة قبل أي شيء آخر هو تنظيف المدينة وخاصة ساحات الحرم الشريف [من الجثث] حتى لا ينتشر الوباء فيها لان الهواء كان مشبعاً بنتن جثث القتلى. وفرض على سكان المدينة [من المسلمين] الذين أسروا وكانوا في السجون نتيجة نجاتهم بالصدفة من القتل القيام بهذا العمل، ولما كان عددهم غير كافٍ لإنجاز هذه المهمة الكبيرة دون مساعدة، عرض على فقراء الجيش الفرنجي أجرة يومية للمساعدة في تنظيف المدينة دون تأخير. وبعد أن انتهى القادة من هذا الأمر الملح، عاد كل واحد منهم إلى البيت الذي اتخذه مسكناً له، والذي كان قد جهز له من قبل الخدم. وتبين أن المدينة كانت مليئة بالبضائع من كل صنف بحيث أن كل الفرنج [من العظماء والصغار] صار لديه وفرة من كل

شيء . . . . كان فيها مخازن للقمح والنبيذ والـزيت إضافة إلى المياه الكثيرة التي سبب نقصها أثنـاء الحصار معاناة كبيرة للفرنجة . وبـذلك استطاع من استولى على المنازل في القدس من تزويد اخوانهم المحتاجين بكل رضى .

وفي اليومين الثاني والثالث لاحتلال المدينة (السبت ، الأحد) أقيمت سوق عامة للبضائع لبيعها في أفضل الظروف ، وصار لدى عامة الناس وفرة في كل ما يحتاجون اليه . . . .

وللمحافظة على ذكرى هذا الحادث العظيم ، صـدر مرسوم هام ، والذي قوبل بموافقة عامة مـن الناس ، باعتبار هـذا اليوم عيداً مقدسـاً وتمييزه عن غيره [بالاحتفالات الخاصة التي صارت تقام فيه] . أما المسلمون الذين لجأوا إلى القلعة هـرباً مـن انتقام السيوف فقد لاحظـوا من هنـاك أن الفرنجـة قد استولوا على المدينـة ، وتحققوا أنهم لا يستطيعون مقاومة الحصـار حولهم مدة أطول ، فاتصلـوا بكوند طولون الـذي كان يقيم في منطقة قريبـة من القلعة ، وحصلـوا منـه على وعـدٍ بـالسّماح لهم بـالخروج مـن المدينـة مـع أزواجهـم وأولادهم ، وأمـان يوصلهـم إلى عسقلان إضـافة إلى السماح لهم بحمـل كل ممتلكاتهم التي نقلوها معهم إلى القلعة مقابل تسليم القلعة له . وأبدى الذين طلب منهـم تنظيف المدينـة حماساً ومثـابرة في العمـل ، وكان ممـا قامـوا به : أحرقت بعض الجثث ودفنت أخرى كما سمحت الظروف بذلك ، وانتهوا من عملهم خـلال أيام قليلة وعـادت المدينة إلى حالتها السـابقة مدينـة نظيفة . [يخالف ما ذكره فولشر سابقاً] .

فتح صلاح الدين للقدس ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م

(العماد الاصفهاني. **الفتح القسي في الفتح القدسي**) نشر محمد صبح. القاهرة. لا. ت.

«وسار واثقاً بكمال النصرة، وزوال العسرة، وحسر الفرنجة قناع الحسرة. ونزل على غربي القدس يوم الأحد خامس عشر رجب، وقلب الكفر قد وجب، وحزب الشرك قد شارف الشجى والشجب، والقدر قد أظهر العجب.

وكان في القدس حينئذ من الفرنجة ستون ألف مقاتل، من سائف ونابل وبطل للباطل، وعاس بالعاسل. قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون، ويعاجزون ويناجزون، ويرمون ويدمرون، ويحمون ويحمون، ويحتدون ويحتدمون. ويضطربون ويضطرمون. ويذودون ويذبون، ويشبون ويسبون. ويصرخون ويحرضون، ويلهثون ويتغوثون، ويلوذون ويلوبون، ويجولون ويجوبون، ويقدمون ويحجمون، ويتململون ويألمون. ويتعاوون ويتضاعون، ويحترقون للبلايا، ويقترحون المنايا.

وقاتلوا اشد قتال، وناضلوا أحد نضال، ونازلوا أجد نزال. وطافوا بصحاف الصفاح لإرواء الظبا الظماء من ماء الأرواح، وجالوا بالأوجال، وأجالوا قداح الآجال، وصالوا لقطع الأوصال. والتهموا والتهبوا وتأشبوا ونشبوا. واستهدفوا للسهام واستوقفوا للحمام.

وقالوا «كل واحد منا بعشرين، وكل عشرة بمئتين. ودون القمامة تقوم القيامة، ولحبِّ سلامتها تقلى السلامة»، ودامت الحرب، وإستمر الطعن والضرب. فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين من رجب إلى الجانب

الشمالي وخيم هنالك، وضيق على الفرنجة المسالك، ووسع عليهم المهالك. ونصب المجانيق، ومرى من آفاتها الأفاويق. وأصرخ الصخرة بالصخور، وحشر حشر السّوء منهم وراء السور. فما عادوا يخرجون من السور الرؤوس، الا ويلقون البوس، واليوم العبوس، ويلقون على الردى النفوس.

«فللداوية» دويّ، و «للبارونية» من البوار في الهاوية هوي. و «للإسبتار» تبار، وما «للفريرية» من الموت فرار. وما بين الحجار المحلقة وبين المرمى اليهم حجاب، وفي كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب. إذ الوجوه لقبل النصال مكشوفة، والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة. والأيدي على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة، والنفوس لاستبطاء الهمم في الاهتمام مهمومة، وقواعد السور ونواجذ شراريفه بالأحجار الخارجة من الكفات مهدومة مهتومة.

فكأن المجانيق مجانين يرامون، ومناجيد لا يرامون، وجبال تجذبها حبال، ورجال تنجدها رجال. وأمات الدواهي والمنايا، وحوامل تلد البلايا. لا حجرعليها في حجر، ولا أمن عندها من حذر، ولا تخطر سهامها الا بالخطر. ولا يفطر مرورها الا مرارات ذوي الفطر. فكم نجم من سمائها ينقض، وصخر من ارضها يرفض، وجمر من شرارها ينقض، وما شيء كآفات كفاتها وآيات نكاياتها ودركات إدراكاتها ولفتات فلتاتها، وجذبات عذباتها.

فما زالت تقلع بمقالعها، وتقرع بمقارعها. وتمتح بأشطانها، وتمرح في أرسانها، وتصدم وتهدم، وتصرع وتصدع، وتنهز بدلائها، وتجهز ببلائها، وتحل تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها، وتقل شمل المباني بتفريقها وتبديدها، وتقوض القواعد بضربها من اساسها، وتنقض المعاقد بجذبها في أمراسها، وتشفه الموارد بشربها من كأسها، حتى تركت السور سورا، وجعلت الذاب عنه محسوراً، وعاد العدو من نظمه المبتور متبورا.

وخرق الخندق وحفز الزحف، وظهر للإسلام الفتح وللكفر الحتف. وأخذ النقب، وسهل الصعب. وبذل المجهود، وحصل المقصود. وكمل المراد، وكلم المراد. وثغر الثغر، وأمر الأمر. وأربى الأرب، واستتب السبب. وخاف القوم الوقم، واستعاضوا من الصحة السقم. وأسلم البلد وقطع زنار خندقه، وبرز (إبن بارزان) ليأمن من السلطان بموثقه، وطلب الأمان لقومه، وتمنع السلطان وتسامى في سومه. وقال «لا أمن لكم ولا أمان وما هوانا الا أن نديم لكم الهوان. وغداً نملككم قسراً ونوسعكم قتلاً وأسراً. ونسفك من الرجال الدماء، ونسلط على الذرية والنساء السباء»، وأبى في تأمينهم الا الاباء. فتعرضوا للتضرع، وتخوفوا وخوفوا عاقبة التسرع. وقالوا : «إذا أيسنا من أمانكم وخفنا من سلطانكم وخبنا من إحسانكم، وأيقنا أنه لا نجاة ولا نجاح، ولا صلح ولا صلاح، ولا سلم ولا سلامة، ولا نعمة ولا كرامة، فإنا نستقتل فنقاتل قتال الدم، ونقابل الوجود بالعدم. ونقدم إقدام المستشري بالشر، ونقتحم اقتحام المستضري من الضر، ونلقي أنفسنا على النار، ولا نلقي بأيدينا إلى التهلكة والعار. ولا يجرح واحدٌ منا حتى يجرح عشرة. ولا تضمنا يد الفتك حتى ترى أيدينا بالفتك منتشرة. وإنا نحرق الدور ونخرب القبة، ونترك عليكم في سبينا السبة. ونقلع الصخرة ونوجدكم عليها الحسرة. ونقتل كل من عندنا من أسارى المسلمين وهم ألوف، وقد عرف أن كلاً منا من الذل عزوف، وللعز ألوف. وأما الأموال فإنا نعطبها ولا نعطيها، وأما الذراري فإنا نسارع إلى إعدامها ولا نستبطيها. فأية فائدة لكم في هذا الشح، وكل خسرٍ لكم في هذا الربح، ورب خيبةٍ جاءت من رجاء النجح، ولا يصلح السوء سوى الصلح، ورب مدلج أضله ظلام الليل قبل إسفار الصبح».

فعقد السلطان محضراً للمشورة، وأحضر كبراء عساكره المنصورة، وشاورهم في الأمر، وحاورهم في السر والجهر، واستطلع خبايا ضمائرهم

واستكشف خفايا سرائرهم. واستورى زندهم، واستعلم ما عندهم، وراوضهم على المصلحة المترجحة، وفاوضهم في المصالحة المربحة. وقال: «إن الفرصة قد أمكنت فنحرص في انتهازها، وان الحصة قد حصلت ونستخير الله في إحرازها، وإن فاتت لا تستدرك، وإن أفلتت لا تملك».
فقالوا: «قد خصك الله بالسعادة، وأخلصك لهذه العبادة. ورأيك راشد وعزمك لضالة النصر ناشد، وأمرك لأشتات المنائح وأسباب المناجح حاشد، وكلنا لك في إغتنام فتح هذا الموضوع الشريف مناشد».

واستقر بعد مراودات ومعاودات، ومفاوضات وتفويضات، وضراعات من القوم وشفاعات، على قطيعةٍ تكمل بها الغبطة، وتحصل منها الحوطة. واشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم، وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم. على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه، أو امتنع منه وماسلمه ضرب عليه الرق وثبت في تملكه لنا الحق. وهو عن كل رجلٍ عشرة دنانير وكل إمرأة خمسة، وكل صغير أو صغيرة ديناران. ودخل إبن بارزان والبطرك ومقدما الداوية والإسبتار في الضمان.

وبذل إبن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالأداء ولم ينكل عن الوفاء فمن سلم خرج من بيته آمناً ولم يعد إليه ساكناً.

وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردوه بالرغم رد الغضب لا الوديعة. وكان فيه أكثر من مائة ألف إنسان، من رجال ونساء وصبيان. فأغلقت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم الثواب. ووكل بكل باب أمير ومقدم كبير يحصر الخارجين ويحصي الوالجين. فمن استخرج منه خرج، ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج.

ولو حفظ هذا المال حق حفظه ، لفاز منه بيت المال بأوفر حظه . لكنها تم التفريط ، وعم التخليط . فكل من رشا مشى ، وتنكب الأمناء نهج الرشد بالرشا . فمنهم من أدلي من السور بالحبال ومنهم من حمل مخفياً في الرحال ، ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزي الجند ، ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد .

وكانت في القدس ملكة رومية مترهبة ، في عبادة الصليب متصلبة ، وعلى مصابها به ملتهبة ، وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة . أنفاسها متصاعدة للحزن ، وعبراتها متحدرة تحدر القطرات من المزن . ولها حال ومال وأشياء وأشياع ، ومتاع وأتباع . فمنّ عليها السلطان وعلى كل من معها بالإفراج ، وأذن في إخراج كل ما لها في الأكياس والأخراج ، فراحت فرحى ، وإن كانت من شجنها قرحى .

وكانت زوجة الملك المأسور – أبنة الملك أماري مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخدم والخول والجواري . فخلصت هي بمن معها ومن تبعها ، ومن إدعى أنه ممن صحبها وشيعها . وكذلك الإبرنساسة إبنة فيليب أم هنفري ، أعفيت من الوزن وتوفر مالها عليها في الخزن . واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسمائة أرمني ، ذكر أنهم من بلده . وأن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده ، وطلب مظفر الدين ابن علي كوجك زهاء ألف أرمني ادعى أنهم من الرها ، فأجراه السلطان من إطلاقهم له على ما اشتهى .

وكان السلطان قد رتب عدة دواوين ، في كل ديوان منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين ، فمن أخذ من أحد الدواوين خطاً بالأداء انطلق مع الطلقاء ، بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء . فذكر لي من لا أشك في مقاله أنه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله ، فربما كتبوا خطاً لمن نقده في كيسهم ، ويلبس أمر تلبيسهم . فكانوا شركاء بيت المال لا أمناه . وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضرغناه . ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار ، وبقي من بقي تحت رق وإسار ، ينتظر به انقضاء المدة المضروبة ، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة .

تهديد القدس أثناء الحملة الثالثة وصلح الرملة من كتاب

(*The Third Crusade*, edited with an introduction by Kenneth Fenwick, Folio Society, London, 1958)

الرابع من حزيران (في عسقلان وبعد الإستيلاء على (الداروم) دير البلار

(ص ١٢٣ - ١٢٦) النوادر مختصراً ص ٢١٠

. . . استدعى (ريتشارد) مناديه فيليب وأمره بالمناداة في جميع المعسكر بأن عليهم التجهز، كل حسب طاقته، والإستعداد لحصار القدس . . . . (ص ١٢٨) وبعد إستعداد الملك والجيش للتقدم (من عسقلان) . . . بدأوا السير من عسقلان في فجر يوم الأحد . . . نحو القدس . . ببطء نظراً لشدة الحر . . . وبعد عبورهم لنهر عذب المياه، وصلوا إلى تل الصافية (Blancheward) حيث ضربوا خيامهم في السهل حوله وأمضوا ليلتهم هناك . . . وتلكأ الجيش في هذا المكان مدة يومين.

وفي اليوم الثالث، التاسع من حزيران، وصل الجيش إلى (Turun of the Soldiers) اللطرون دون إعاقة، وفي تلك الليلة أسر رجالنا اربعة عشر رجلاً من الفرس (الاتراك) الذين جاؤوا من الجبال للنهب. وفي اليوم التالي، بعد الغداء (العشاء) تحرك الجيش إلى الأمام . . وفي اليوم الذي يليه وصل الفرنسيون، وتوجه الجيش كله باتجاه بيت نوبة حيث توقفوا هناك بانتظار الكوند هنري، الذي أرسله الملك إلى عكا لإحضار الناس منها . . . ولذلك اضطر الجيش إلى البقاء شهراً كاملاً وأكثر في سفح الجبل الذي يضطر الحجاج إلى عبوره في ذهابهم وايابهم من المدينة المقدسة . . . (غارة الجيش على الاتراك قرب عمواس ص ١٣٠).

وعندما وصلت الأخبار بتقدم الملك، من الاتراك الهاربين إلى أولئك الذين كانوا في القدس، أصابهم الرعب . . . فقد هرب المسلمون (Saracens) جميعاً من المدينة ولم يبق فيها أحد ممن يستطيع الدفاع عنها، ولم ينفع في ذلك تهديدات السلطان أو الوعد بالمكافأة (للبقاء فيها).

وفي ١٧ حزيران . . . كانت قافلة لنا في طريقها من يافا إلى الجيش محملة بامداداتهم وغيرها من الضروريات . . . . فهاجمها في مكان ليس بعيداً عن الرملة كمين للإتراك . . . . . . (في المعسكر الفرنجي) : وحضر إلى الملك ريتشارد رجل سوري كان أسقف كنيسة القديس جورج الذي كان تابعاً لصلاح الدين . . . ومعه قطعة من الصليب المقدس (وقدمها للملك) وكان يرافق الاسقف عدد كبير من الرجال والنساء من أتباع رعيته، وسلمها اليه (وقصة القطعة الاخرى ص ١٣٣) [ثم التذمر من قبل الجيش عامة من التأني في الزحف على المدينة المقدسة].

ونتيجة لذلك اجتمع الملك وقادة الجيش مع بعضهم لمناقشة امكانية الهجوم على القدس أو عدمها، وألح الفرنسيون (في الإجتماع) على الملك (إلى درجة المغالاة) القيام بالهجوم.

لكنه أجابهم أن ذلك لا يمكن القيام به «لانه قال (الملك) : « لن أتصرف كدليل وقائد للشعب في هذه القضية خشية أن أجلب العار، لأنه سيكون من سوء التفكير في الوقت الحاضر الإلحاح على هذه القضية، وإذا كان يسركم التقدم إلى القدس فإنني لن أتخلى عنكم، ولكن سأكون رفيقكم وليس قائدكم، سأتبعكم ولكن لن أقودكم. ألا يعرف صلاح الدين بكل ما يجري في معسكرنا؟ وهل تعتقدون أن وضعنا الضعيف قد خفي عليه؟

(ابن شداد. النوادر السلطانية. القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤. ص ٢١٠)

(السلطان) على وعي بقوتنا بدقة ، وإننا بعيدون عن ساحل البحر بحيث إنه في حالة نزول قوة مناسبة من العدو (الاتراك) من الجبال إلى سهول الرملة لمراقبة الطرق ومنع مرور اولئك الذين يزودونا بالإمدادات ، فإن النتائج ستكون كارثة للمحاصرين ، وعندها فقط سيكون ندمنا قد جاء متأخراً وندفع عقوبة عمليتنا الغبية .

«واضافة إلى ذلك فان أسوار القدس ، كما نسمع ، عظيمة الدور، وعلينا أن نحاول حصارها بإحكام بقواتنا القليلة الآن ، وعليه فان أعدادنا لن تكون كافية للقيام بالحصار أو حتى حماية [١٣٣] أولئك الذين يحضرون الإمدادات من هجمات الأتراك ، ولذلك فمن المؤكد بأنهم جميعا سيبادون إذا لم يجدوا من يمدهم» .

(الفقرة التالية توضح ما سيلحق به إذا أقدم على الحصار)

«اضافة إلى ذلك فاننا جميعا (القادة والعامة) لا نعرف هذه المنطقة وطرقها وأوديتها ، ولو كنا على معرفة بها بصورة أفضل لكان ممكنا التقدم بأمان وحتى تحقيق . . . . . . النصر المرغوب ، ولكن رأيي هو أن نطلب النصيحة من مواطني الأرض (الفرنجة المحليون) الذين يتشوقون إلى استعادة أراضيهم وممتلكاتهم ونطلب منهم ان يؤكدوا لنا ما يعتبرونه أفضل ما يمكن عمله ، كذلك فإنني أعتقد أنه يجب استشارة الداوية والاسبتارية ، وأن نأخذ برأيهم وحكمهم بالنسبة للإقدام على حصار القدس أولاً أو بابل [القاهرة] أو بيروت أو دمشق ، وهكذا لا يبقى الجيش منقسما في آرائه إلى أحزاب نتيجة إختلافها» .

وهكذا إتفق الجميع، بناء على توصية الملك، بأن يقسم عشرون رجلاً موثوقين [لدراسة الموضوع]، وعلى الجميع اتباع نصيحتهم دون معارضة. واختير لهذا الغرض خمسة من الداوية وخمسة من النبلاء الفرنسيين وخمسة من الإسبتارية وخمسة من أهل الشام (الفرنجة)، واجتمع هؤلاء الرجال، وبعد المداولة لبعض الوقت حول القضية المذكورة سابقاً، كان قرارهم الذي اتفقوا عليه أن أكثر الخطط قبولاً هو التقدم مباشرة لحصار [القاهرة] (ص ١٣٤).

وعارض الفرنسيون هذا الرأي لحظة سماعه، واجمعوا بأنهم لن يتحركوا إلى أي مكان الا لحصار القدس. وعندما عرف الملك عناد الفرنج وخروجهم عن الرأي المتفق عليه، علّق بقوله: «إذا وافق الفرنسيون على خطتنا وتقدموا [معنا] لحصار القاهرة طبقاً لقسمهم بالطاعة، فسأعطيهم أسطولي الراسي في عكا بكل تجهيزاته لحمل أثقالهم وحاجاتهم، وبذلك يستطيع الجيش أن يتقدم عن طريق الساحل في البر بثقة، أما بالنسبة لي فإنني سأقود، وعلى حسابي الخاص، ثمانمائة من الفرسان وألفين من أتباعهم . . . واذا احتاج أي كان إلى مساعدة من أموالي وما بحوزتي، فليكن متأكدا أنه سيزود بذلك طبقاً لحاجته، وإذا شك أحد بامكانية قيامي بذلك، فانني سأتقدم بجندي وحدهم ودون مساعدة من أحد (١٣٥).

(هنا يورد قصه اعتراض القافلة القادمة من مصر إلى صلاح الدين ص ١٣٥ - ١٣٦).

وبقي الجيش (بعد الاستيلاء على القافلة) عدةَ أيام . . . في حالة من الحزن والخيبة نتيجة عدم السماح لهم بالتقدم لزيارة كنيسة القيامة في القدس التي كانت تبعد عنهم مسافة أربعة أميال فقط . . . .

وعندما كان رجالنا يتحركون (من مواقعهم) كانوا يهاجمون من قبل الأتراك (١٤١) من جهة الجبال. وبالرغم من أن رجالنا كانوا يصدون الأتراك، فإنه قتل عدد من الذين لم يكن لديهم خيول جيدة . . .

ثم وصـل الجيش بعد ذلك إلى مكـان بين اللد (Saint George) والرملة حيث أمضوا الليل، وفي اليوم التالي تقـدموا في سيرهم بفرق منفصلة ووصلوا إلى حصن في منتصف الطـريق. وفي اليوم السادس مـن تموز، في هذا المكان هجر البعض الجيش . . . وساروا إلى يافا.

شروط صلح الرملة :

«بأن تهدم مدينة عسقلان، التي كانت دائماً مصدر ازعاج لحكومة صلاح الديـن وأن لا يعاد بنـاؤها لمدة لا تقـل عن ثـلاث سنوات ابتـداء من بـداية احتفالات عيـد الفصح القادم، ولكن في نهايـة هذه المدة فإن الـذي يسيطر عليها يستطيع إعادة تحصينها.

أن يسمح للنصـارى بالسكنـى في مدينـة يافـا دون أن يتعرضـوا للأذى، وكذلك في البلاد (الأرياف) القريبة منها على الساحل وفي الجبال.

أن يسـود السـلام بين المسيحيين والمسلمين، ويكـون لكـل منهما الحريـة بالذهاب والعودة كما يشاؤن، وأن يسمح للحاج بالوصول إلى كنيسة القيامة بدون دفـع رسوم أو أي ضرائب مهما كـانت، وحمل البضـائع لبيعها في كـل البلاد والقيام بالأعمال التجارية دون معارضة».

(وحلف الجانبان على شروط المعاهدة) ص ١٥٧

زيارة الفرنجة للقدس :

ثلاث مجموعات أو قوافل : الثانية كـان فيها المؤلف، الثالثة كان يقودها أسقف سالزبوري.

«. . . . . أرسـل صلاح الـدين رجـاله لاستقبـال الأسقف بحفـاوة، ولإرشاده لزيارة ما يريد من الأماكن المقدسة . . . كما طلب (منه السلطان) أن يقيم في قصره، وان يـزود بكل ما يحتاج اليـه على حسابه، لكـن الأسقف

رفض قائلاً : من المستحيل القيام بذلك لأننا مجرد حجاج»، عندها أمر صلاح الدين خدمه ببذل كل رعاية ممكنة للاسقف ومن معه، وبعث اليه بهدايا كثيرة، كما سمح له فيما بعد برؤية صليب الصلبوت، وسمح له بلقائه . . . وتحدثوا طويلاً. ص ١٦١ .

« . . . . ثم طلب (أسقف سالزبوري) أن يسمح لراهبين لاتينيين وإثنين من المساعدين (Deacons) باقامة الخدمة الربانية (عند قبر المسيح) اضافة (للنصارى) السوريين، كما طلب أيضاً السماح لعدد مماثل في (كنيسة المهد) في بيت لحم وكنيسة الناصرة . . . . ووافق السلطان على الطلب، وعين الأسقف قسيسين في كل واحدة من الأماكن المذكورة. ص ١٦٢ .

المدرسة الصلاحية

(ابن واصل . مفرج الكروب في اخبار بني ايوب. القاهرة المطبعة الاميرية، ١٩٥٧ . ص ١٤١ - ١٤٢، ٢١ - ٢١٢، ٢٤٣ - ٢٤٤).

«وفي هذه السنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م : ورد إلى والدي - رحمه الله - كتاب من السلطان الملك المعظم - رحمه الله - يستدعيه إلى خدمته على يد عفيف الدين ابن مراحل السلماني، وكان متردداً في الرسائل بين الملك المعظم والملك الناصر صاحب حماه، فسافرنا من حماه في أواخر شعبان، فوجدنا منه - رحمه الله - اقبالاً عظيماً، ولازم والدي الاجتماع به والحضور في خدمته، وكان الملك المعظم في أكثر الأوقات يحاضر الفقهاء العلماء ويباحثهم في دقائق العلوم فطلب والدي منه المقام بالقدس الشريف لينقطع فيه للعبادة، وتوقف الملك المعظم في اجابته إلى ذلك، وقال للقاضي نجم الدين خليل بن المصمودي الحموي قاضي العسكر : قل له يقيم بدمشق لأوليه أحد

المنصبين القضاء أو الخطابة بجامع دمشق، فأبى والدي الا المضي إلى القدس ففوض السلطان (الملك المعظم) اليه تدريس المدرسة الناصرية الصلاحية، وهي المدرسة التي كان فوض صلاح الدين - رحمه الله - تدريسها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد، ووليها بعده جماعة أكابر منهم الشيخ فخر الدين بن عساكر والشيخ تقي الدين بن الصلاح رحمهما الله، فمضينا إلى القدس في أوائل سنة اثنتين وعشرين وستماية وأقمنا به».

مفرج الكروب، ج٤، ص ١٤١ - ١٤٢

ابن عساكر : أنظر ابن خلكان، وفيات، ج٣ ص ١٣٥

ابن الصلاح، المصدر ذاته، ص ٢٤٣ - ٢٤٥

من مآثر المعظم في القدس

«وكان ملوك هذا البيت (الايوبي) كلهم شافعية، وانفرد هو (المعظم) - رحمه الله - بالانتماء إلى مذهب ابي حنيفة رحمه الله . . . . .

وكان شديد التعصب لمذهب أبي حنيفه - رحمه الله - عزل خطيب الاقصى وكان شافعيا وولي خطابة الاقصى رجلاً حنفياً بغداديا يقال له شهاب الدين، كان متميزا في الفقه ومدرسا بالمدرسة الحنفية التي على باب الحرم الشريف المعروفة بالامجدية، وهي منسوبة إلى الامجد حسن شقيق الملك المعظم، وكان مدفونا بها، ثم نقل (بعد ذلك) إلى مشهد جعفر الطيار - رضي الله عنه - بمؤتة من أعمال الكرك، وأبقى الملك المعظم بالصخرة الامامة للشافعية، وأمر المؤذنين ألا يبلغوا في تكبير الصلوات بالحرم الشريف الا خلف الامام الحنفي امام الاقصى لا غير، وبلغه مرة أن المؤذنين بلغوا بالحرم خلف امام الصخرة الشافعي، فأنكر ذلك غاية الانكار.

ثم بنى بالحرم الشريف قبة ووقف عليها وقفا جليلا على أن يشتغل في تلك القبة بالقراءات السبع ، وشرط أن لا يصرف من وقفها شيء إلا للحنفية فقط . وولى تدريسها للشيخ شمس الدين بن رزين البعلبكي تلميذ تاج الدين الكندي ، وقرأت عليه في تلك القبة الايضاح لابن علي الفارسي ، وجودت عليه القرآن العظيم . . . . »

مفرج الكروب ، ج٤ ص ٢١١ - ٢١٢

تسليم القدس ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م

«ولما وقعت الهدنة ، بعث السلطان من نادى في القدس بخروج المسلمين وتسليمه إلى الفرنج ، فحكى لي والدي رحمه الله ، وكان لما وقعت هذه الوقعة بالقدس الشريف قد وصل اليها من مكة ، حرسها الله ، فانه كان جاور فيها السنة الماضية ، وكنت قد سافرت إلى دمشق في السنة الماضية وأقمت بدمشق ، قال :

لما نودي بالقدس بخروج المسلمين ، وتسليم القدس إلى الفرنجة ، وقع في أهل القدس الضجيج والبكاء ، وعظم ذلك على المسلمين ، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم ، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل ، واستشنعوه منه ، اذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفار من أعظم مآثر عمه الملك الناصر صلاح الدين - قدس الله روحه - لكن علم الملك الكامل رحمه الله أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره ، وأنه اذا قضى غرضه واستتبت الامور له ، كان متمكنا من تطهيره من الفرنجة واخراجهم منه .

وقال (السلطان الكامل) انا لم نسمح لهم الا بكنائس وأدر خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله، وشعار الاسلام قائم على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله».

مفرج الكروب، ص ٢٤٣ - ٢٤٤

أسامة بن منقذ في القدس

أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتي. (صورة نشر الدار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٨١) عن طبعة مطبعة جامعة برنستون، ١٩٣٠، ص ١٧٢ - ١٧٣).

«. . . فكل من هو قريب عهد بالافرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين: فمن جفاء أخلاقهم، قبحهم الله، أنني كنت إذا زرت البيت المقدس، دخلت المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الافرنج كنيسة، فكنت اذا دخلت المسجدالأقصى وفيه الداوية، وهم أصدقائي، يخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلي فيه، فدخلته يوما فكبرت ووقفت في الصلاة، فهجم عليّ واحد من الافرنج مسكني ورد وجهي إلى الشرق، وقال: هكذا صل، فتبادر اليه قوم من الداوية أخذوه وأخرجوه عني، وعدت أنا إلى الصلاة، فاغتفلهم وعاد هجم عليّ ذلك بعينه، ورد وجهي إلى الشرق وقال: كذا صل، فعاد الداوية دخلوا اليه وأخرجوه، واعتذروا اليّ، وقالوا: هذا غريب وصل من بلاد الأفرنج في هذه الايام، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق، فقلت: حسبي من الصلاة، فخرجت، فكنت أعجب من ذلك الشيطان، وتغير وجهه ورعدته وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة.

«ومضيت مرة مع الامير معين الدين (انر) رحمه الله إلى القدس، فنزلنا نابلس . . . » في سفارة إلى ملك بيت المقدس الفرنجي.

الاعتبار، ص ١٧٩

كتاب بقلم القاضي الفاضل من صلاح الدين إلى «بردويل»* معزياً له في أبيه ومهنئاً له بالملك من بعده

«أما بعد،

خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد، والسعد الساعد، والحظ الزائد، والتوفيق الوارد؛ وهنأه من ملك قومه ما ورثه، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه.

فإن كتابنا صادر اليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق، والنعي الذي وددنا أن قائله غير صادق، بالملك العادل الأعز الذي لقاه الله خير ما لقى مثله، وبلغ الأرض سعادته كما بلغه محله؛ معز بما يجب فيه العزاء ومتأسف لفقده الذي عظمت به الأرزاء؛ الا أن الله قد هون الحادث، بأن جعل ولده الوارث، وأنسى المصاب بأن حفظ به النصاب، ووهبه النعمتين: الملك والشباب، فهيئاً له ما حاز، وسقياً لقبر والده الذي حق له الفداء لو جاز.

ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين، أدام الله سلامته، قائم عنا بالعزاء من لسانه، ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقه جيرانه.

---

* الرسالة تشير إلى بلدوين الخامس الذي توج في أوائل سنة ١١٨٣م.

وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا، وودنا الذي هو ميراثه عن والده من ودادنا فليلق التحية بمثلها، وليأت الحسنة ليكون من أهلها، وليعلم أنا له كما كنا لأبيه : مودة صافية، وعقيدة وافية، ومحبة ثبت عقدها في الحياة والوفاة، وسريرة حكمت في الدنيا بالموافاة، مع ما في الدين من المخالفات فليسترسل الينا استرسال الواثق الذي لا يخجل، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذي لا يحمل والده ما تحمل، والله يديم تعميره، ويحرس تأميره، ويقضى له بموافقة التوفيق، ويلهمه تصديق ظن الصديق».

هدم القدس ٦١٦هـ/ ١٢١٩م

(**تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية**، م٤ ج١، نشر انطون خاطر وازولد بورمستر، القاهرة، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، قسم النصوص والوثائق، ١٩٧٤، ص ٢٩)

«وهدم القدس . . . بعد أن أخلي من أهله، ولم يبق به سوى القيامة المقدسة، وبرج داود، ومسجد الصخرة، والجامع المعروف بالأقصى. وهدم بقية أسواره، ودوره، وفنادقه. ووقع على الناس بسبب هدمه خوف عظيم، وقلق للشام من أجله».

تسليم القدس ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م

(**تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية**، م٤ ج١، نشر أنطون خاطر وازولد بورمستر. القاهرة، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، رقم ١٤ ، ١٩٧٤ . ص ٥٢ - ٥٣).

«. . . ورسل الانبرور مترددة وهو على يافا، ورسل السلطان مترددة اليه أيضا . . .

وأشيع بأنّ السلطان، عز نصره، صالح الأنبرور على أن يعطيه [في الأصل: تعطيه] القدس الشريف، وبلاد من أعماله، وهي التي على الطريق من عكا اليه، وبيت لحم ولد الرملة، وما والى ذلك من القدس إلى عكا ويافا.

وكان [الأنبرور] طول هذه المدة قد عمر قيسارية ويافا، واستتب الأمر بينه وبين السلطان، خلد الله ملكه، وعبر الانبرور إلى بيت المقدس في اوائل الصوم الشريف من هذه السنة، وكان يوماً عظيماً، وتسلموا الصخرة.

ثم أقام الانبرور بالقدس يومين لا غير، وخرج منه إلى عكا، وبقي بها إلى أن فرغ العيد، واستخلف في البلاد من يثق به، وسافر في البحر إلى بلاده».

اخلاء الفرنجة للقدس

٦٣٦ - ٦٣٧هـ

(تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، م٤، ج٢، ص ٩٥ - ٩٦)

«. . . ثم ان الفرنجة لما انقضت [في الأصل: انفضت] أيام الهدنة، أخلوا القدس الشريف حتى لم يبق به سوى فارس واحد وسبعين راجلاً يعمروا في برج داود.

ثم ان السلطان جرّد زهاء الفي فارس في عدّة أمراء وسيرهم إلى غزة لحفظ البلاد. وكان الافرنج قد خرجوا إلى عسقلان ونزلوها وقصدوا عمارتها، فركبوا وتجمعوا وجاءوا إلى فربيا، فتواقعوا مع عسكر المسلمين الذي كان على غزة

فكسروهم من أول النهار إلى الظهر. ثم تحايا عسكر المسلمين على عادتهم وقد قتلوا من المسلمين جماعة وأسروا جماعة منهم أمراء ومقدمون، فتكافأت القبيلتان . . . . . .

(ويصف الحرب بين قوات المسلمين وقوات الفرنجة).

ونزل الملك الناصر صاحب الكرك إلى القدس بعد هذه الكسرة وتسلمه، وقتل من كان بقي فيه من الافرنج، وخطب فيه خطبة عظيمة على حكم القرآن».

تسليم القدس للفرنجة مرة أخرى : ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م

(تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، ص ١٠٥، ١٠٧)

«. . . ووردت الأخبار بأن الافرنج قد خرجوا إلى نابلس والغور وجاءوا إلى غزة ونزلوها، واخذوا القدس الشريف، وشرعوا في عمارة عسقلان، وأن ذلك بموافقة الملك الصالح غازي صاحب دمشق عم السلطان، وأنه أعطاهم رهاينة [أي رهائن] على أنه موافقهم ومعاضدهم. وجرد السلطان أربعة آلاف فارس ليمضوا إلى غزة، وخرجوا وبرزوا إلى بلبيس . . .» (ص ١٠٥).

«. . . ثم إن رسل الافرنجة ترددت إلى مولانا السلطان في طلب الصلح على إبقاء البلاد التي أعطاهم الملك الناصر بن المعظم اياها بايديهم، وأن يتسلموا أسراهم الذي أخذوا في هذه الوقعة القريبة على أنهم يعيدوهم [كذا] أيضاً الأسرى المسلمين الذين عندهم.

وتردد الوزيـر كمال الدين بن الشيـخ شيخ الشيوخ اليهم في هـذا المعنى، وانبـت الحال بينهم على ذلـك، وحلفـوا للسلطـان وحلف السلطـان لهم، وأخرج الكند [اي الكونت] الذي كان أسر والخيالة الذين كانوا معه، وخلع عليهم أجمعين، وشقوا القاهرة راكبين، وتـوجهوا إلى بلادهم . . . ووردت الأخبار بـأن قاضي نابلس تسلـم الأسرى المسلمين، وأنه خلع أيضـا عليهم وأحسن اليهم.

والبلاد التـي رجع الفرنجة أخـذوها، وهي : القدس الشريـف، وبيت لحم، وعسقلان وأعمالها، وبيـت جبريل وأعمالها، وعمل غـزّة غير المدينة، وطبرية وأعمالها، ومجدليـابا [في الأصل : مجدليـانا] وأعمالها، وجبل عـاملة وصفـد وكـوكـب والطـور، وتبنين وهـونين، والشقيفـان [في الأصـل : الشقيقان]. وعلى الجملة جميـع بلاد الساحل، لم يخرج عنهم سـوى نابلس والخليل ومدينة غزة لا غير.

ويقال : أن الصلح إنما هو مـع الغرباء* [الأصل : العرب] والاسبتارية [الأصل : الاسنارية] لا غير لأن الديوية لم يحلفوا».

الصلح سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م
بين السلطان الملك الكامل والإمبراطور فريدريك

(المكين جرجس بن العميد، **أخبار الأيوبيين**، نشر كلود كاهن، في مجلة المعهد الفرنسي بدمشق (BEO)، مجلد ١٥ (السنـوات ١٩٥٥ - ١٩٥٧)، ص ٢٩ - ٣٠ من المقدمة الفرنسيـة والنص العربي، وص ١٣٧ - ١٣٨ من المجلد).

* المقصود بالغرباء الإفرنج القادمين من أوروبا تمييزاً لهم عن الإفرنج المقيمين في ساحل بلاد الشام.

٦٢٥هـ «. . . وبلغه [اي السلطان الذي كان آنذاك في نابلس] أنّ الأنبرور وصل إلى يافا في ميعاده، فعاد السلطان من نابلس إلى تل العجول ونزل عليها.

وترددت الرسل بين السلطان والأنبرور، وكان السفير بينهما فخر الدين ابن الشيخ، فلم يزل يتردد إلى الأنبرور تارة بمفرده، وتارة يأخذ معه الصلاح الإربلي، إلى أن تقرر الصلح:

ان يعطى الأنبرور البيت المقدس والقرى على طريقه من يافا إلى القدس ومدينة لد».

٦٢٦هـ: «وفيهاانتظم الصلح عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوماً أولها يوم الأحد الثاني والعشرين من ربيع الأول.

قال: وتسلم الأنبرور مدينة القدس ومدينة لد والأماكن التي على الطريق، وحضر الأئمة والمؤذنون الذين كانوا في الصخرة [في الأصل: الصخراء] والمسجد الأقصى إلى باب دهليز الملك الكامل، فأذنوا على باب الدهليز في غير وقت الأذان، فعسر ذلك على الملك الكامل، وأمر أن يؤخذ ما معهم من الستور والقناديل الفضة، وجميع الآلات، ويتوجهوا إلى حال سبيلهم حاشية». قال المؤرخ: إن الأنبرور طلب من السلطان تبنين واعمالها بحكم أن صاحبتها بنت الهنفري دخلت عليه وسألته فيها، فأنعم السلطان عليه بها ودخلت في نسخة المهادنة التي بينهما».

تسليم القدس ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م

(أبو بكر بن عبدالله ابن أيبك الدواداري . **الدر المطلوب في أخبار بني أيوب**، الجزء السابع من كنز الدرر وجامع الغرر. تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، منشورات المعهد الألماني بالقاهرة، ١٩٧٢، ص ٢٩٢ - ٢٩٣).

٦٢٦هـ «وفي شهر المحرم كانت المراسلة بين السلطان الملك الكامل وبين الأنبرور . . . . وفي شهر ربيع الأول تقرر الصلح بين السلطان الملك الكامل وبين الأنبرور ملك الفرنج، وتسلم القدس الشريف . . . وشرط أن يكون في المسجد الأقصى الخطيب والإمام والمؤذن، ويقام فيه الجمعة والصلوات الخمس في كل يوم . .

[وبعد وفاة الملك المعظم صاحب دمشق سنة ٦٢٤هـ، وملك مكانه ابنه الناصر داود، استدعى عمه الأشرف اليه خوفاً من الكامل سلطان مصر]

وكان الأمير عز الدين ايبك، أستادار [المعظم وجد المؤلف] - المعروف بصاحب صرخد - جدنا، قال للناصر داود . . . بطريق النصيحة : «داري عمك الكامل واستعطفه، ولا تبعث للأشرف . . . أنا أمضي إلى الكامل واصلح حالك معه! وحضر الأشرف، فوجد الكامل قد أعطى الأنبرور القدس، فشق عليه ذلك الأمر [الأصل : أمر] العظيم، / وعتب الملك الكامل في ذلك، فقال [الكامل] :

وما أحوجني إلى ذلك الا المعظم، فإنه أعطى الانبرور من نهر الأردن إلى البحر، والضياع من باب القدس إلى يافا، فاحتجت أنا أن أعطيه القدس أيضاً.

ووصلت الأخبار إلى سائر بلاد الإسلام أن الملك الكامل أعطى القدس للإفرنج، فقامت الدنيا على ساق واحد، وعظم ذلك على سائر المسلمين، وأقاموا المآتم . . .

وفيها دخل الأنبرور . . . إلى القدس الشريف، وجرى له فيها عجائب، منها أنه لما دخل الصخرة رأى قسيساً جالساً عند الصخرة عند القدم، يأخذ من الفرنجة القراطيس، فجاء اليه كأنه يطلب منه الدعاء، ثم لكمه فرماه إلى الأرض، وقال له : «يا خنزير، السلطان تصدق علينا بزيارة هذا المكان، وتفعلوا فيه هذه الأفاعيل القباح! إن عاد منكم أحد إلى هذا الفعل قتلته».

البيليوغرافيا

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) . **الكامل في التاريخ**. بيروت، دار صادر، ١٩٧٩ . ج ١٠ - ١١ .
- ابن ايبك . **الدر المطلوب في اخبار بني ايوب** تحقيق سعيد عاشور. القاهرة، ١٩٧٢ .

تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، القاهرة، جمعية الاثار القبطية، ١٩٤٣ .

- ابن تغرى بردي، جمال الدين يوسف (ت بعد ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م) . **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية)، القاهرة لا. ت. ج ٦ .
- ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) . **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق احسان عباس . بيروت، دار صادر، ١٩٧١ .
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) . **سير أعلام النبلاء**، ج ٢٠، تحقيق شعيب الأرناوط . بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥ .
- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزاوغلو (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) .

مرآة الزمان، م ١٣ من مخطوط اسطنبول أحمد الثالث رقم ٢٩٠٧ .

مرآة الزمان : الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة نشر علي سويم، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقرة، ١٩٦٨ ؛ حيدر أباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٠هـ . ج ٨ .

- أبو شامة، شهاب الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) **تراجم رجال القرنين السادس والسابع أو الذيل على الروضتين**، نشر محمد زاهد الكوثري، وعزت العطار، ط٢، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٤ .

- ابن شداد، بها الدين يوسف بن رافع (٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م). **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤.
- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي الحلبي (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م). **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة** : تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، تحقيق سامي الدهان. دمشق، المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٦٢.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م). **الوافي بالوفيات**، تحقيق محمد يوسف نجم. بيروت. ١٩٨١ ج ٧.
- عبد اللطيف البغدادي، موفق عبد اللطيف بن يوسف، (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م). **الإفادة والاعتبار**، نشر أحمد سبانو، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨٣.
- ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله. **أحكام القرآن**، ق ٤ ط ١ : تحقيق محمد علي البجاوي. القاهرة، دار احياء الكتب العربية، ١٩٥٨.
- العليمي، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م). **الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل**، عمان، مكتبة المحتسب، ١٩٧٣.
- العماد الأصفهاني، أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م). **الفتح القسي في الفتح القدسي**. نشر محمد صبح، القاهرة، لا . ت.
- ابن العميد. **اخبار الايوبيين**. مجلة المعهد الفرنسي بدمشق. مجلد ١٥ السنوات ١٩٥٧ - ١٩٥٧.
- الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي). **تاريخ الفارقي**، ط ٢، تحقيق

بدوي عبد اللطيف. بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٤.
- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م). **المختصر في أخبار البشر**، ج ٣، بيروت، لا . ت (مصورة عن طبعة المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٣٢٥هـ).
- أبن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م).
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، جزء نشرة أيمن فؤاد السيّد. القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية.
دولة المماليك الأولى، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكي. بيروت، المركز الإسلامي للبحوث، ١٩٨٦.
- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن محمد التميمي (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م). **ذيل تاريخ دمشق**، تحقيق هـ. ف. امدروز، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩، وبعنوان : **تاريخ دمشق**، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار حسان، ١٩٨٣.
- المقدسي أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م). **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، تحقيق م. دي خوية، بريل، ليدن، ١٩٠٦.
- المقريزي، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ٢ - ٣، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة احياء التراث الاسلامي، ١٩٧١ - ١٩٧٣.
- ابن ميسر، محمد بن علي (ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م). **المنتقى من أخبار مصر**، تحقيق أيمن فؤاد السيد، القاهرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨١.
- ناصر خسرو. **سفرنامة**، ترجمة يحيى الخشاب، ط ٣، بيروت، دار

الكتاب العربي، ١٩٨٣ .

- الهروي، تقي الدين علي بن أبي بكر (ت ٦١١هـ/ ١٢١٤م). **الاشارات إلى معرفة الزيارات**، تحقيق جانين سورديل. دمشق، المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٥٣ .

- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م). **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**. ج٢، تحقيق جمال الدين الشيال. القاهرة، ادارة احياء التراث، المطبعة الأميرية، ١٩٥٧، ج٤ تحقيق حسنين محمد ربيع. القاهرة، دار الكتب، ١٩٧٢ .

- يحيى بن سعيد الانطاكي، (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م). **تاريخ يحيى بن سعيد**، نشر مع **التاريخ المجموع على التحقيق والتدقيق** لسعيد بن البطريق، تحقيق لويس شيخو، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩ .

- ابشرلي، محمد (ناشر). **أوقاف المسلمين وأملاكهم في فلسطين**، مركز الأبحاث والتاريخ والفنون الاسلامية باستنبول، ١٩٨٢ .

- الحياري، مصطفى. **الامارة الطائية في بلاد الشام**، عمان، وزارة الثقافة والشباب، ١٩٧٧ .

- عباس، احسان. «رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل». **الأبحاث**، ج ٢١ قسم ١ (آذار، ١٩٦٨).

- العسلي، كامل (ناشر). **وثائق مقدسية تاريخية**، ج ١. عمان، ١٩٨٣ .

- هنتز، فالتر. **المكاييل والأوزان الاسلامية**. ترجمة كامل العسلي. عمان، ١٩٧٠ .

Anonymous Pilgrims in *PPTS*, Vol. IV New York, AMS Press, 1971. Reprint of 1984 ed.

Asaad, Sadiq. *The Reign of al-Hakim Bi Amr Allah*, 996-1021, Beirut, 1974.

Burgoyne, M.H. *Mamluk Jerusalem*, London, World of Islam Trust, 1987.

———. "A recently discovered Marwanid inscription in Jerusalem" *Levant*, Vol. XIV, 1982.

———, and Amal Abul Hajj. "Twenty four medieval Arabic inscriptions from Jerusalem", *Levant*, Vol. XI, 1979.

Cahen, Claude. "Artuk", EI, second edition.

———. "Atsiz b. Awaq", *EI*, second edition.

Canard, M. "Djarrahids", *EI*, second edition.

Daniel, The Abbot. *The Pilgrim of the Russian Abbot Daniel in the* Holy Land, 1106-1107 A.D. trans. C.W. Wilson, New York, AMS Press, 1971. Reprint of 1895 ed. in *PPTS*, Vol. 4.

Fenwich, K. ed. *The Third Crusade*, ed. with an introduction, London, 1958.

Finucane, R. *Soldiers of the Faith*, J.M. Dent and Sons Ltd. London, Melbourne, 1983.

Fulcher of Chartres. *A History of the Expedition to Jerusalem* 1095-1127, trans. Harold S. Fink. New York, University of Tennessee

Press, Morton and Company, 1967.

Hiyari, M.A. *The Arab Tribal Emirates of the Fertile Crescent,* unpublished Ph.D. thesis, University of London, 1975.

Howarth, S. *The Knights Templers,* London, Collins, 1982.

John of Wurzburg. *Description of Holy Land,* trans. Aubrey Stewart Vol. V, New York, reprint AMS Press, 1971.

Join-Lambert, M. *Jerusalem,* trans. Charlotte Haldane, London, Elek Books, 1966.

La Monte, I. *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem,* New York, 1970. Reprint of 1932 ed.

Mayer, Hans E. *The Crusades,* trans. John Gellingham, Oxford University Press, 1972.

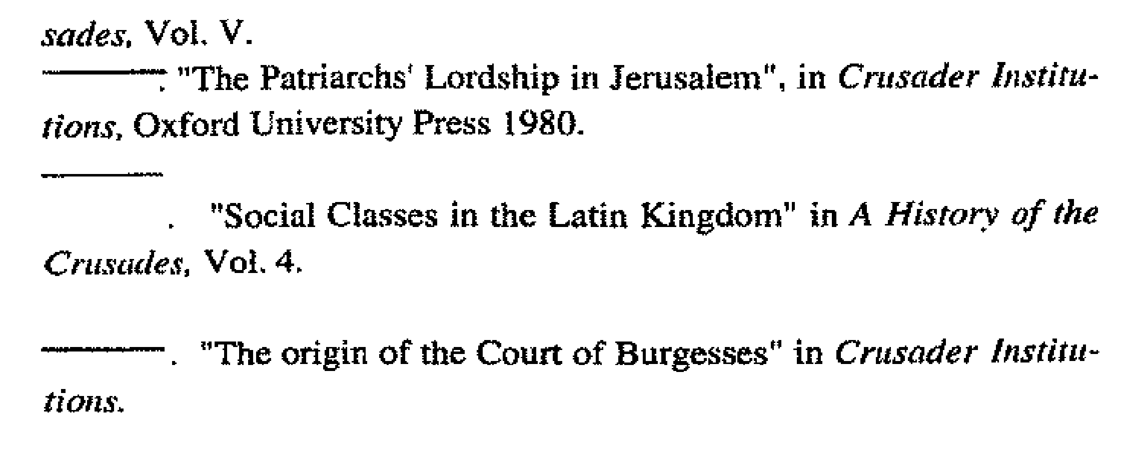
Nasir -i- Khisru. *Diary of a Journey through Syria and Palestine,* trans. by Guy le Strange, *PPTS,* Vol. 4, London, 1893. AMS reprint, New York, 1971.

Peters, E. ed. *The First Crusade* : the Chronicle of Fulcher of Chartres and other source materials, Philadelphia, University of Pennsylvania Press, 1971.

———: *Jerusalem: The Holy City in the Eyes of the Chronicles.* Princeton, Princeton University Press, 1985.

Prawer, J. *The Latin Kingdom of Jerusalem,* London, Wieden-field and Nicolson, 1972.

———: "Minorities in the Crusader states" in *A History of the Cru-*


sades, Vol. V.

———: "The Patriarchs' Lordship in Jerusalem", in *Crusader Institutions*, Oxford University Press 1980.

———. "Social Classes in the Latin Kingdom" in *A History of the Crusades*, Vol. 4.

———. "The origin of the Court of Burgesses" in *Crusader Institutions.*

Richard, J. *The Latin Kingdom of Jerusalem*, trans. Janet Shirley, Amsterdam, North-Holland Publishing Company, 1979.

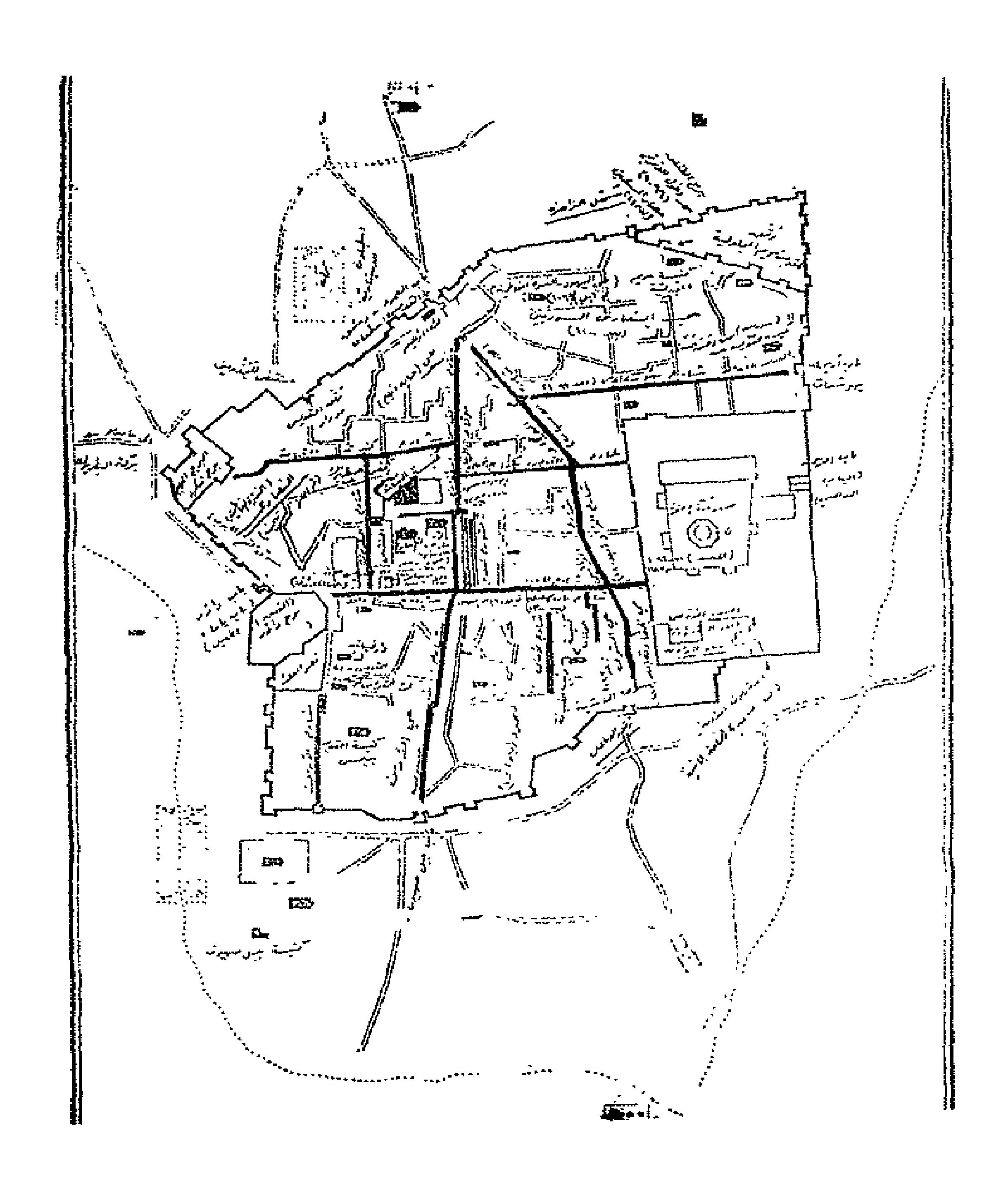
Riley-Smith, J. *The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus*, C. 1050-1310, London, Macmillan, St. Martin Press, 1967.

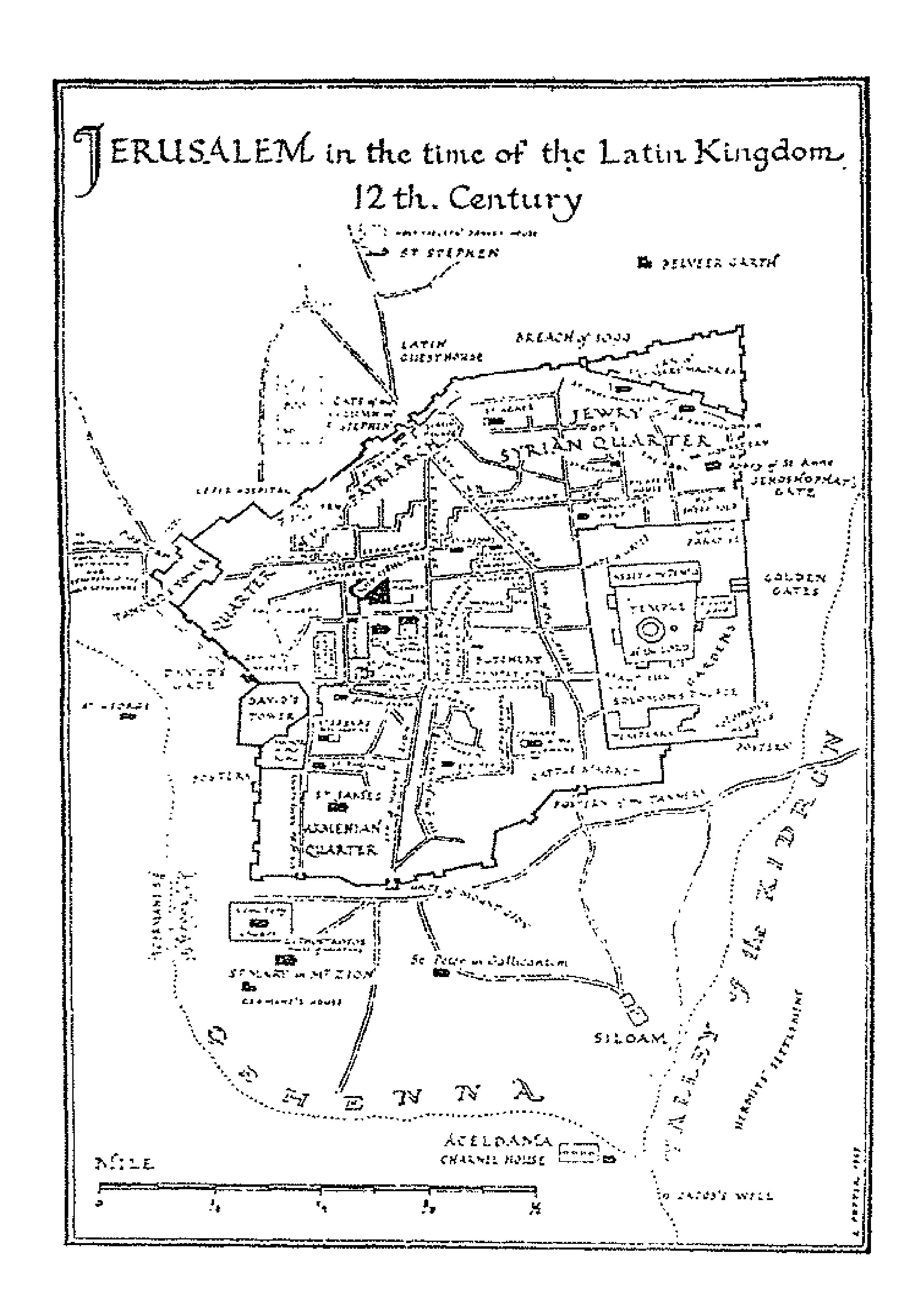
Runciman, S. *A History of the Crusades*, Vol. I : the first Crusade and the foundation of the Kingdom of Jerusalem, a Harper Tourchback, 1964.

Russel, Josiah B. "The Population of the Crusader States" in *A History of the Crusades*, Vol. 5 : The impact of the Crusades on the Near East, ed. Norman P. Zacour and Harry W. Hazard, Madison, University of Wisconsin Press 1985.

Tibawi, A. *The Pious Foundations in Jerusalem*, London, the Islamic Cultural Centre, 1978.

William of Tyre. *A history of deeds done beyond the sea*, 2 Vol. trans. Emily A Babcock and A. C. Kery. New York, Octagon Books, 1976.




JERUSALEM in the time of the Latin Kingdom
12 th. Century
ST STEPHEN
LATIN GUESTHOUSE
BREACH of 1099
JEWRY
SYRIAN QUARTER
PATRIARCH
QUARTER
JEHOSHOPHAT'S GATE
GOLDEN GATES
TEMPLE
GARDENS
DAVID'S GATE
DAVID'S TOWER
ST JAMES
ARMENIAN QUARTER
ST MARY on MT ZION
St Peter in Gallicantu
SILOAM
GEHENNA
ACELDAMA
CHARNEL HOUSE
MILE

الفهــرس

- ت -

– ف –

– ق –



مصطفى الحياري

أستاذ تاريخ العرب والمسلمين في العصور الوسطى - الجامعة الأردنية .

حامل شهادة بكالوريوس في التاريخ - الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٦٠ ؛ وماجستير في التربية من كلية المعلمين - جامعة كولومبيا في نيويورك ١٩٦٤ ؛ وماجستير في التاريخ - الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٦٩ ؛ ودكتوراة في التاريخ - جامعة لندن ١٩٧٥ .

مؤلف الكتب التالية : الامارة الطائية ؛ صلاح الدين : القائد وعصره ؛ السياسة من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر وكذلك الدواوين (دراسة وتحقيق) ؛ البرق الشامي (ج ٣ : تحقيق) .